شرح الكتاب

مذكرات على

سفر التكوين

تشارلس ماكنتوش

شرح الكتاب

مذكرات على

سفر التكوين

بقلم

تشارلس ماكينتوش

تعريب

ناشد ساويرس

٢٠٠٠

اسم الكتاب: **مذكرات على سفر التكوين**
المؤلف: تشارلس ماكنتوش
المترجم: ناشد ساويرس

طُبع بمطبعة الإخوة بجزيرة بدران

يُطلب من:
مكتبة الإخوة
٣ش أنجه هانم - شبرا مصر - ت: ٥٧٩٢٢٨٤
وفروعها:

مصرالجديدة :	٦٥ش نخلة المطيعي - تريومف	ت:٢٩٠٤٠٠٣
أسيوط :	٢١ش عبد الخالق ثروت	ت: ٣٤٢٠٢٨
المنيا :	٦ش الجيش	ت:٣٦٤٠٠٦

بريد إليكتروني: *bretheren_pub@writeme.com*

رقم الإيداع: ٢٠٠٠/١٥٧٩٥
الترقيم الدولي: *ISBN 977-321-023-5*

المحتويات

نبذة عن المؤلف



وُلد تشارلس هنري ماكينتوش بأيرلندا في أكتوبر ١٨٢٠. وكان أبوه ضابطاً بالجيش الأيرلندي وأمه من عائلة أيرلندية عريقة. وقد تعرّف بالرب وهو في سن الثامنة عشر عن طريق خطابات تلقاها من أخته بعد إيمانها. وامتلأ قلبه بالسلام على أثر مطالعته لكتاب «عمليات الروح القدس» من تأليف يوحنا داربي، وخاصة العبارات الآتية بذلك الكتاب «إن ما يعطي السلام للنفس هو عمل المسيح لأجلنا وليس عمله فينا» وكان شغوفاً بالدرس والتحصيل في دراسات علمية مختلفة. وفي عام ١٨٤٤ فتح مدرسة وكان يقوم بإدراتها بكل اهتمام ونشاط، وفي أثناء ذلك كانت حياته مكرّسة للرب، وكانت خدمة الرب هي هدفه الرئيسي. وفي عام ١٨٥٣ خشى أن يأخذ عمله في المدرسة مكانة أكثر من اللازم في حياته فترك هذه المهنة وكان في ذلك الوقت قد بدأ يكتب مذكراته في شرح أسفار موسى الخمسة. وقد ظهرت تلك المذكرات في ستة مجلدات (باللغة الإنجليزية): واحد لكل من أسفار التكوين والخروج واللاويين والعدد، واثنان لسفر التثنية. وهذه المجلدات تمتاز بتقديم الإنجيل بأسلوب عميق ومؤثر. وقد ذاع انتشارها وصدرت منها عدة طبعات وترجمت للغات مختلفة. وقد كتب مقدمتها صديقه «أندرو ملر» الذي ساهم مالياً في صدورها. ومن كلامه الصادق في تلك المقدمة قوله: «إن خراب الإنسان الكامل بسبب الخطية، وعلاج الله الشامل في المسيح، موضحان جلياً في هذه الكتب».

وماكينتوش كشارح له أسلوبه المؤثر الذي يمتاز بالقوة في توضيح أفكاره. ولا توجد كتابات تُنهض قراءها مثل كتاباته، لا سيما في ناحية التمسك الشديد بكلمة الله والإخلاص التام لها،

وأيضاً الثقة الشديدة الكاملة في المسيح، وهما الناحيتان اللتان تميزت حياته بهما.

وبعد أن ترك مهنة التدريس سافر إلى دبلن حيث بدأ خدماته الجهارية. وقد ظل عدة سنوات يدافع عن حقائق الإنجيل ويعلن الحق، وكان الله يبارك خدماته بكيفية عجيبة. وعندما اجتاحت النهضة الروحية أيرلندا في ٥٩-١٨٦٠ كان ماكينتوش يعمل بنشاط، يدلنا على ذلك كتاباته التي ظهرت في المجلدات الأولى من مجلة «جدد وعتقاء *Things New and Old*».

وكان ماكينتوش يمتاز بثقته الشديدة في الله، فكان يشهد دائماً بأن الله قد أجازه في امتحانات كثيرة إلا أنه لم يعوزه قط إلى شيء من ضروريات الحياة في أثناء خدمته للإنجيل بدون أي مورد زمني.

وفي السنوات الأربعة الأخيرة من حياته اعتكف بسبب ضعف صحته وتقدم سنه، ومع أنه اعتزل الخدمة الجهارية إلا أنه استمر في الكتابة. وآخر سلسلة من النبذ التي كتبها هي بعنوان «سنابل منسولة من الشمائل».

وكان تأثير كتاباته يفوق الوصف، حتى أنه كان دائماً يتلقي خطابات من كل أنحاء العالم معبِّرة عما في شروحاته لأسفار موسى الخمسة من تعاليم مشبعة. كما أن مقالاته المتفرقة قد جُمعت في سبعة مجلدات، وما جاء فيها لا يقل أهمية عما جاء في شروحاته المتقدمة.

وأول نبذة كتبها عام ١٨٤٣ كان موضوعها «سلام الله»، وبعد أن أرسل أصول نبذة «إله السلام» إلى المطبعة في عام ١٨٩٦ توقف قلمه عن الكتابة ودخل الراحة بعد ذلك بشهور قليلة.

وقد رقد في الرب بسلام في ٢ نوفمبر ١٨٩٦، وشيع جثمانه جمع كبير من محبيه جاءوا من جهات مختلفة وتكلم الدكتور ولستون متخذاً موضوعه عن دفن إبراهيم مستشهداً بما جاء في تكوين ٢٥:٨-١٠.

تمهيد

نصيحتي لكل الذين يحبون إنجيل نعمة الله البسيط ويجدون فيه لذة أن يقرأوا بإمعان الشرح الآتي لسفر التكوين. فقد امتاز بروح تبشيري محض. وبما أنه كان لي حظ أن أطالع مسودات الكتاب قبل طبعه فكلامي هو عن اختبار شخصي لفائدته. وقد بسّط الشارح فيه فساد الإنسان الكلي بواسطة الخطية، كما أفاض الشرح على علاج الله الشافي بالمسيح، فأجاد وأبدع لا سيما في الفصول الأولى من الكتاب.

وكل الذين يخدمون في إنجيل المسيح يهمهم جداً أن يقفوا على ماهية الخطية وماهية النعمة بتعبير جلي واضح لا سيما في أوقاتنا الحاضرة التي انتشرت فيها قشور الحقائق.

على أن الإحاطة بإنجيل المسيح الذي فيه الكفاية لسد كل عوز في طبيعة الإنسان وظروفه وصفاته، عزيزة ونادرة الوجود، والكرازة أو المجاهرة به أندر وأعزّ. ومن هنا نشأ الخوف الذي ساد على قلوب الكثيرين من أولاد الله الأعزاء والشك الذي ألقى الوساوس في ضمائرهم، لأن النفس التي لم تتحقق بعد أن مطاليب الله جميعها قد وُفّيت مرة واحدة إلى الأبد على الصليب، سواء كان من جهة خطية الإنسان أم قداسة الله، لا تعرف عن هدوء ولذة راحة الضمير إلا القليل جداً.

ولا يوجد ما يسكّن الضمير سوى ذبيحة المسيح الكاملة المقدّمة من أجلنا إلى الله على الصليب «لأن فصحنا المسيح قد ذبح لأجلنا» (١كو٥:٧) فهناك، وهناك ليس إلا، قد وُفي كل مطلب. وبالإيمان يرى الضمير هناك أن كل أسباب الشك والخوف قد زالت، ومشكلة الخطية قد انحلّت إلى الأبد، ومطاليب العدل الإلهي قد اكتفت بالتمام، وقد وُضع هناك أساس متين لسلامنا الكامل الآن لدى قداسة الله لأن «الذي أُسلم لأجل خطايانا وأُقيم لأجل تبريرنا» (رو٤:٢٥) فيه كفاية كل أمر. ومتى آمنا بالإنجيل خلصنا، ويجب أن نتمتع بالغبطة الإلهية لأن «الذي يؤمن بالإبن له حياة أبدية» (يو٣:٣٦؛ رو٤، ٥).

وعلى الصليب نعاين محبة الله للخاطئ في إدانته الخطية في شخص ابنه العزيز الوحيد.

فهناك قد أظهر الله نعمته المتجهة إلينا بكمالها لأنه قضى على الخطية بحسب عدله وقداسته. فوصل إلى أعماق سقوطنا وأحاط بكل خطيتنا ثم دان الخطية بموته، ورفع الخطايا بسفك ذلك الدم الثمين. دم حمل بلا عيب. فانتهت بذلك مسألة الخطية بالمرة على الصليب بين الله والمسيح وحدهما وانحسمت قطعياً. «قال له سمعان بطرس ياسيد إلى أين تذهب؟ أجابه يسوع حيث أذهب لا تقدر الآن أن تتبعني» (يو١٣:٣٦) وكما كان إبراهيم واسحاق وحدهما على جبل المُريّا هكذا كان الله والمسيح وحدهما وسط أهوال الجلجثة. والدور الذي مثلناه نحن إنما كان بوجود خطايانا هناك فيسوع وحده هو الذي حمل ثقل دينونتنا كله (راجع: دا ٩:٢٤ مع رو٨:٣؛ ٢كو٥:٢١؛ عب٩:٢٦، ٢٨).

ومتى تعلّم المؤمن هذا الحق المبارك من كلمة الله نفسها، ورسّخ في نفسه بالإيمان بقوة الروح القدس، أصبح كل شيء عنده سلاماً وفرحاً ونصرة. فينخلع الإنسان عن ذاته وعن كل شكوكه ومخاوفه وأوهامه ويتحول نظره إلى ذاك الذي بواسطة عمله الكامل قد وضع أساس البر الإلهي إلى الأبد، وهو جالس الآن في يمين عرش العظمة في الأعالي ليمثل كل مؤمن حقيقي، فتصبح مشغولية قلب المؤمن به وتعلقه بشخصه دون سواه.

والإيمان يعلّم باليقين أنه متى أبطل الله الخطية فقد بطلت نهائياً، ومتى قال المسيح «قد أُكمل» فلا بد وأن يكون العمل قد تم، فتمجد الله وخلُص الخاطئ وتلاشت قوة الشيطان وتثبَّت السلام على أساس متين. ولذلك نقرأ «إله السلام الذي أقام من الأموات راعي الخراف العظيم ربنا يسوع المسيح بدم العهد الأبدي» (عب١٣:٢٠). نعم إنه كان على الصليب الإله الديّان ولكنه عند فتح باب القبر أصبح إله السلام. فكل عدو قد انهزم وأصبح السلام الأبدي متوقفاً على دم الصليب لأنه «أُقيم من الأموات بمجد الآب» (رو٦:٤)، وقد قام بقوة حياة لا نهاية لها. فهو يقرِّب كل مؤمن إلى شخصه بقوة تلك القيامة من الأموات. والذين تطهروا بدمه أصبحوا مقبولين في شخصه (راجع: أف١:٦؛ كو٢:١٠؛ ١يو٥:٢٠).

وبعد أن أكمل يسوع العمل الذي أُعطي له لكي يعمله صعد إلى العلاء وأرسل الروح القدس ليشهد بإتمام عمل الفداء وبأن المؤمن قد تكمَّل إلى الأبد، والمسيح قد تَمجَّد في السماء. وابتدأ الرسل يكرزون بالخلاص للخطاة وأصبح موضوع كرازتهم «يسوع والقيامة» وكل من آمن أنه قام وتمجد كان يخلص في الحال وإلى الأبد. «وهذه هي الشهادة أن الله أعطانا حياة أبدية، وهذه الحياة هي في ابنه. من له الابن فله الحياة ومن ليس له ابن الله فليست له الحياة» (١يو٥:١١، ١٢) فلا توجد بركة خارجاً عن المسيح أو بدونه ـ وهو الإنسان السماوي «الذي فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً» (كو٢:٩). ومن ذلك الحين أخذ الله يضع أمام الخاطئ بواسطة إنجيله مسيحاً حياً مقاماً من الأموات ليكون غرض الإيمان الوحيد وهو «غاية الناموس هي: المسيح للبر لكل من يؤمن» (رو١٠:٤).

ومتى تثبت النظر في هذا المسيح السماوي فكل شيء نور وفرح وسلام، أما إذا تحول نحو الذات وانشغل بالأمور الذاتية أو بشعوره، أو إذا فصل بين القلب وبين المسيح فاصل أصبحت النفوس في ظلام وغم وريب. فما أبسط إنجيل نعمة الله بالحقيقة!

وخلاصة الرسالة التي يخاطب الله بها الخاطئ الهالك هي هذه «تعالَ لأن كل شيء قد أُعد» (لو١٤:١٧)، فلا محل هنا لذكر الخطية مطلقاً «تملك النعمة بالبر للحياة الأبدية بيسوع المسيح ربنا» (رو٥:٢١)، ومادام المسيح قد حلّ مسألة الخطية بينه وبين الله فالمسألة التي أصبحت بين قلبك وبين الله الآن هي هذه «هل اكتفيت تماماً بمسيحه نصيباً لك؟» هذا هو جوهر الإنجيل. أما ما عدا ذلك فقد وفّاه المسيح على الصليب لمجد الله. وهوذا الله مزمع أن يصنع عُرساً لابنه ليمجده ويكرمه ويرفع شأنه. فهل قلبك متفق مع الله في هذا الأمر؟ على أنه لا يطلب منك أن تعمل شيئاً، فلا حاجة إلى قوة فيك، ولا أنت مسئول عن أثمار، لأن الله قد أعد كل شيء وجهّز كل أمر. فالكل بالنعمة، من مجرد نعمة الله الكاملة. فقط آمن «تعالوا لأن كل شيء قد أُعد»: عشاء العرس، ثياب العرس، الأكاليل الملوكية، شبع سرور أمام الله، نِعم تدوم إلى الأبد.

أيها القارئ العزيز هل أنت مستعد؟ هل آمنت بالخبر؟ هل رضيت بالابن؟ هل أنت مستعد أن تُتَوِّجَه رباً على الكل؟ فالمائدة مبسوطة، والبيت يمتلئ بسرعة، ولكن «يوجد أيضاً مكان» إن الخبر قد وصل إلى سمعك، «ففي نصف الليل صار صراخ هوذا العريس مقبل فاخرجن للقائه» «فكونوا أنتم إذاً مستعدين لأنه في ساعة لا تظنون يأتي ابن الإنسان» (مت٢٢، ٢٥؛ لو١٢).

ولكني الآن أنتقل بالقارئ إلى الشرح نفسه ففيه يجد هذه الحقائق مبسوطة بسطاً وافياً. ويقرأ أيضاً عن كثير من المواضيع الخطيرة الشأن مثل وحدة كنيسة الله ومركزها في الوقت الحاضر والقداسة الحقيقية والتدريب الصحيح والنعمة .. الخ.

وسفر التكوين له الشأن الأول في أسفار الوحي، بعد الأناجيل الأربعة. وفيه نشعر بجدة وباكورة الوحي الإلهي لشعب الله. وهو يحتوي على موضوعات شتى ومفيدة جداً وهي لازمة لكل طالب الاستفادة من بقية كلمة الله الثمينة.

وها أنا أطرح الشرح عند قدمي المعلم الحقيقي متضرعاً ومتوسلاً إليه أن يستخدمه بنفسه لإفادة القراء، وفي ذلك أعظم دليل على رضائه عنه. آمين.

أندرو مولر

مقدمة الشارح

(للطبعة الرابعة)

إنه لا يسعني وأنا أهدي للقراء هذه الطبعة من شرح سفر التكوين إلا تقديم الشكر القلبي الخالص للرب من أجل جوده الذي غمر به هذه الآنية الضعيفة في إفادة النفوس ونشر حقه الثمين البسيط.

ومهما كانت درجة ومقدار الخدمة نحو تلك النفوس العزيزة في عيني المسيح، فمنح تلك الهبة امتياز جليل لا يُعبَّر عنه «أتحبني؟ .. ارع غنمي» هكذا نطق راعي الخراف بتلك الألفاظ الرقيقة قبل صعوده، ولا شك أنها متى أثَّرت على القلب بسلطانها الإلهي فإنها تولِّد في النفس الرغبة في إتمام تلك الوصية بقدر وسعها. فجمع غنم وخراف قطيع المسيح لإعالتها وتقديم الطعام لها، أمجد خدمة يمكن للإنسان أن يشتغل بها. ومهما كان الجهاد في هذا السبيل فأقل تعب لا يمكن أن يُنسى «متى ظهر رئيس الرعاة» العظيم.

ياليت الروح القدس يملأ قلب كل خادم للمسيح ويمسح شفتيه ويقدّس قلمه لكي تفيض منه مجاري الحق الحي الطاهر إلى كل جانب لإرواء النفوس السائرة في طريقها نحو المجد.

تشارلس. هـ. ماكينتوش

دبلن - مايو سنة ١٨٦١

الأصحاح الأول

إن الأسلوب الذي يفتتح به الروح القدس هذا السفر البديع لهو عجيب حقاً لأنه يقودنا مباشرة إلى الله بملء وجوده وتفرّد صفاته وكمالاته، وإذا نحن أمام الله جل شأنه. ثم كأننا نسمعه يقاطع سكون الأرض باعثاً نوره وسط ظلمتها، وغرضه إنشاء عالم يتجلى فيه بلاهوته وقوته السرمدية. فلاشيء هنا لإشباع الدهشة العقيمة، ولا شيء تتمشى فيه مخيلة الفكر الإنساني الضعيف، بل هو الحق الإلهي الصريح السامي بكل قوته الأدبية التي تفعل في القلب وتؤثر على المدارك والوجدان. لأن روح الله لا يرضى بإشباع الدهشة البشرية العقيمة فيوحي بالمستغربات في شكل نظريات كما يفعل العلماء الذين يفحصون طبقات الأرض ويحاولون أن يستنتجوا من أبحاثهم معلومات يكملون بها التاريخ الإلهي المُوحَى به أو يناقضونه أحياناً، أو يدرسون بقايا الحيوانات ليبنوا عليها ما شاءوا من النظريات.

أما إنسان الله فيتمسك بأهداب الوحي ويبتهج به. فهو يقرأ ويؤمن ويعبد ويخشع. ويا ليتنا نحن ندرس هذا السفر المفتوح أمامنا الآن بهذه الروح، ويا ليتنا نفهم قوة الإلتجاء إلى المقادس، فيصبح تأملنا في مضمون هذا الكتاب المقدس مقروناً بالخشوع والتعبد اللائقين به.

«في البدء خلق الله السماوات والأرض» (١:١).

وهنا نرى كلمة الله من أول وهلة تأتي بنا إلى حضرة من هو نبع كل بركة حقيقية، فلا حاجة إلى برهان منطقي لإثبات وجود الله. وحاشا للروح القدس أن يُقدِم على أمر كهذا لأن الله يعلن ذاته، وهو يعلن وجوده بأعماله إذ «السماوات تحدِّث بمجد الله والفلَك يُخبر بعمل يديه» (مز١:١٩)، «يحمدك يارب كل أعمالك» (مز١٤٥: ١٠). «عظيمة هي أعمالك أيها الرب الإله القادر على كل شيء» (رؤ١٥: ٣). ولن يطلب إقامة الحجة والدليل على وجود الله، الذي أبدع العالمين بكلمة فمه فأعلن بذلك أنه الإله

الحكيم وحده السرمدي صاحب الإجلال، إلا كل ملحد أو كافر. لأنه مَنْ خلق العالمين سوي الله! «ارفعوا إلى العلاء عيونكم وانظروا مَن خلَق هذه؟ مَن الذي يُخرج بعدد جندها يدعو كلها بأسماء؟ لكثرة القوة وكونه شديد القدرة لا يُفقد أحد» (إش٢٦:٤٠)، «آلهة الشعوب أصنام أما الرب فقد صنع السماوات» (مز٥:٩٦). وفي سفر أيوب (ص ٣٨-٤١) نجد الرب نفسه يستشهد بأعمال الخليقة، بأسلوب بديع، كحجة دامغة وبرهان قاطع على قدرته جل شأنه وتعالى اسمه. وهذا الاستشهاد، فضلاً عن كونه يؤثر على المدارك مؤيداً قدرة الله الفائقة على كل شيء، فإنه يؤثر أيضاً على القلب بتنازله العجيب. فعظمة الله ومحبته مقترنتان معاً وجلاله ولطفه جديران بالله.

«وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة...» (٢:١).

وهنا يتجلى أمام بصرنا مشهد لا يمكن لغير الله حقاً أن يمثل أدواره. ومع أن الإنسان في كبرياء قلبه حاول أن يتداخل في شئون الله ويرقى إلى دوائر أعلى مما صار له حق الوصول إليها، فإن المشهد المرسوم أمامنا الآن لم يكن للإنسان شأن فيه البتة لأنه لم يكن بعد في الوجود، إذ هو أيضاً من مخلوقات تلك القدرة الفعّالة. ففي دور الخليقة كان الله - عزّ شأنه - منفرداً بالوجود، وقد تطلع من نور مسكنه نحو هذا الفضاء ورأى فيه دائرة سيمثل ضمن حدودها مقاصده ومشوراته العجيبة التي كان مزمعاً أن يعلنها وينفذها: دائرة الكون التي كان الابن الأزلي مزمعاً أن يحيا فيها ويتألم ويسفك دمه فيموت لكي يظهر في الدهور الآتية أمجاد وكمالات اللاهوت. فعلى وجه الغمر كانت ظلمة وتشويش ولكن الله نور وسلام «الله نور وليس فيه ظلمة البتة» (١يو٥:١). لأن الظلمة والتشويش لا يلبثان أمامه، سواء كان ذلك من الوجهة المادية أم الأدبية أم النفسية أم الروحية.

«... وروح الله يرف على وجه المياه» (٢:١).

حائماً حول دائرة أعماله المستقبلة، يحلّق في فضاء الخليقة؛ وكان المنظر حالكاً جداً ولكنه وجد فيه مجالاً لإشراق نوره وبهاء حياته. إذ هو وحده المستطاع له إنارة الظلام وإعطاء الحياة واستبدال التشويش بالسلام وجمع اليابسة وسط المياه حيث تتجلى مظاهر الحياة بدون خوف من الموت، ويا لها من أعمال تليق بالله وحده!

«وقال الله ليكن نور فكان نور» (٣:١).

هذه أقوال مع بساطتها نرى في خلالها صفات الله جل شأنه «لأنه قال فكان. هو أمر فصار» (مز٩:٣٣). فالكافر قد يسأل: كيف؟ ومتى؟ وأين؟ أما المؤمن فيجيب «بالإيمان نفهم أن العالمين أُتقنت بكلمة الله حتى لم يتكون ما يُرى مما هو ظاهر» (عب٣:١١)؛ وفي هذا القدر كفاية للروح الوديع.

فالفيلسوف قد يضحك ساخراً ويدّعي أن هذا هو الجهل المُطبق والغباوة الفاضحة والتسليم الأعمى الذي لا ينطبق سوي على روح عصور الجهل الأولى ولا يليق بقوم وُجِدوا في عصر المدنية، عندهم من النور بفضل وسائل العلم الحديثة والاستكشافات ما لم يحلم به كتبة الوحي قديماً، ويا لها من حكمة! بل يا له من علم! ولكن أ ليست هذه بالحري هي السخافة ومنتهى الجهل؟ بل يا له من عجز عن إدراك غرض وقصد الكتاب المقدس! إذ ليست غاية الله تخريج علماء أو فلكيين، ولا غرضه أن يشغلنا بتفاصيل ميكروسكوبية أو تليسكوبية يهتم بها تلاميذ المدارس، إنما غايته أن يأتي بنا إليه كساجدين خاضعة قلوبنا ومتعلمة أذهاننا من كلمته المقدسة. أما الفيلسوف فلا يعنيه ذلك، بل تراه يسخر بما يدعوه قصور إدراك وتمسكاً أعمى بالكلمة؛ وبواسطة منظاره يحد أقاصي السماوات وبفكره يجول في الفضاء، وإذ يُنَقِّب في طبقات الأرض وقشرتها فاحصاً ما فيها من بقايا الحيوانات يظن أنه بهذه الوسائل يصحح رواية الكتاب المقدس أو يناقضها إذا أمكن، مفاخراً في ذلك ومستعملاً كل تحدٍ وعجرفة.

أما نحن فلا شأن لنا مع « مخالفات العلم الكاذب الاسم » (١تي٦: ٢٠)، لأننا نعتقد أن كل اكتشاف صحيح، سواء كان ما في السماوات من فوق أو ما على الأرض من تحت، يجب أن يطابق المكتوب في كلمة الله. وكل محب لأقوال الله يهزأ بما يناقضها ولا يبالي به، وفي هذا راحة لقلب المؤمن في أيام كهذه كثرت فيها الأقاويل والنظريات الفاسدة العقلية الكفرية. ويجب أن يتثبت القلب بالتمام من جهة كفاية وحي كلام الله وسلطانه وكماله وتأثيره، وهذا هو الرادع القوي ضد أبحاث العلماء الفلسفية العقلية وتقاليد البشر الخرافية، والإلمام بكلمة الله والخضوع لها وحدها هما حاجتنا في الوقت الحاضر، ويا ليت الرب بنعمته يهبنا هذا وذاك معاً.

«ورأى الله النور أنه حسن. وفصل الله بين النور والظلمة. ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً» (١: ٤، ٥).

هنا نقرأ عن رمزين يكثر ورودهما في كلمة الله ولهما شأن كبير فيها. فحيث يوجد النور هناك نهار، ومتى غاب النور فهناك ليل. هكذا حال النفس. فيوجد « أبناء نور » كما يوجد « أبناء ظلمة »، وهما شطران يمتاز أحدهما عن الآخر. فجميع الذين أشرق عليهم نور الحياة وافتقدهم « المُشرق من العلاء » (لو١: ٧٨)، كل الذين أشرق في قلوبهم نور الله لإنارة معرفة مجده في وجه يسوع المسيح، هؤلاء أجمعون - أيّا كانوا - هم من الفئة الأولى « أبناء نور » و« أبناء نهار ».

ومن الجهة الأخرى كل الذين لا يزالون في ظلمة طبيعية وعمى طبيعي وعدم إيمان طبيعي، أي الذين لم يقبلوا في قلوبهم بالإيمان أشعة شمس البر اللامعة، هم بعد في ظلمة ليل روحي « أبناء ظلمة » و« أبناء ليل ».

وهنا أرجوك أيها القارئ العزيز أن تتمهل قليلاً وأنت في حضرة فاحص القلوب، وتسأل نفسك: من أي الفريقين أنت الآن؛ أما كونك لا بد أن تكون منتمياً لأحدهما فهذا أمر لا يقبل الجدال. قد تكون واحداً من عامة الناس المحتقَرين المساكين، ولكنك إذا كنت بالنعمة قد ارتبطت بابن الله «نور العالم» فأنت من «أبناء النهار» ولا شك أنك ستضيء عن قريب في أفق السماء حيث المجد الأبدي حول «الخروف المذبوح» الذي هو «كالشمس وهي تضيء في قوتها» (رؤ١:١٦)، هذا ليس من عمل يُعزى إليك بل هو نتيجة مشورات الله ومقاصده الأزلية. هو الذي أعطاك نوراً وحياة ووهبك فرحاً وسلاماً بيسوع وكفارته الكاملة. أما إذا كنت لم تزل بعيداً عن عمل وتأثير نور الله المقدس ولم تنفتح بعد عيناك لتبصر جمال ابن الله (ولو كان لك علم نيوتن وكنوز الفلسفة البشرية وأوتيت قوة الذكاء الإنساني وتوشحت بأسمى ألقاب الشرف ولبست أفخر النياشين وتخرجت من أشهر مدارس وكليات العالم الحاضر) فأنت لا تزال من «أبناء الظلمة» و«أبناء الليل» وإذا مت في حالتك هذه فإنك ستُطرح في الظلمة الخارجية والليل الأبدي. فأرجوك أيها القارئ الحبيب أن لا تقلب صفحة أخرى قبل أن تتيقن أولاً من أنك من «أبناء النهار».

وغرضي الآن أن أتوسع في شرح الأنوار وأفيض في الشرح.

«وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل. وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين وتكون أنوار في جلد السماء لتنير على الأرض. وكان كذلك. فعمل الله النورين العظيمين. النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل. والنجوم» (١:١٤-١٦).

معلوم أن الشمس هي مركز النور ومركز عالمنا الأرضي أيضاً، وبقية الكواكب تدور في أفلاكها حولها ومنها تستمد نورها. ومن هذه الأوجه يصح أنها تشبه ذاك الذي سيظهر عما قريب والشفاء في أجنحته ليفرّح قلوب خائفي الرب. والذي قضى ليلته يراقب بزوغ الشمس ثم رآها وهي طالعة ترسل أشعتها الذهبية لتملأ الفضاء وتبدد الضباب وتقشع الغيوم وتشق سواد الليل يرى أوجه الشبه في تمثيل هذا المنظر بظهور شخص الرب في جلاله وبهائه حين يستقبله القديسون كما تستقبل الخليقة أشعة نور الشمس عند الصباح. إذ بعد قليل ستشرق شمس البر ومن أمام وجهه ستهرب أوهام الظلام وتبتهج الخليقة بأسرها ببزوغ فجر بل ضباب بداية نهار مجد أبدي.

أما القمر* فهو كتلة جامدة في حد ذاتها تستمد نورها جميعه من الشمس، وهي تعكس في كل حين نور الشمس، إلا متى اعترضت الأرض بينهما. ثم أنه حالما تختفي الشمس تحت الأفق وتحتجب عن الأبصار حينئذ يظهر القمر مستمداً نوره منها وعاكساً أشعتها على الأرض المتسربلة بالظلام. أما إذا

* من الغريب أنك إذا تأملت في القمر بتلسكوب قوي (منظار مُقرِّب) ترى كتلة مشوهة لا منظر ولا شكل لها بالمرة في حالتها الطبيعية.

حاولت أن ترى القمر في النهار فلا تبصر سوي نور أصفر باهت لأن الشمس تكون مضيئة في قوتها. وكما قلنا سابقاً فإن نور القمر قد يحتجب أحياناً متى اعترضت الأرض بينه وبين الشمس أو تتصاعد الأبخرة من الأرض وتتلبد الغيوم وتتكاثف السحب فيختفي نور القمر الفضي عن أبصارنا.

وكما أن الشمس رمز بديع وفي غاية المناسبة للمسيح، كذلك القمر رمز جميل للكنيسة التي تستمد نورها من ذلك المصدر الخفي عن أبصار العالم. فالعالم لا يراه أما هي فتراه وتعرفه. وهي مسئولة لتعكس أشعة نوره على العالم المظلم. فلا توجد واسطة للوصول إلى المسيح إلا بالكنيسة. والرسول يقول بالوحي «أنتم رسالتنا .. معروفة ومقروءة من جميع الناس» وأيضاً «ظاهرين أنكم رسالة المسيح» (٢كو ٣: ٢، ٣).

هذا الوجه يشير إلى مسئولية الكنيسة التي عليها أن تسعى ضد كل ما من شأنه أن يعطل ظهور نور المسيح السماوي في كل طرقها. ولكن كيف يتسنى لها أن تعكس هذا النور؟ بمواجهة نور الشمس في ضوئه الكامل حتى ينعكس عليها، لأن الكنيسة متى سلكت في نور المسيح فلا شك أنها تعكس نوره، وهذا هو مركزها الحقيقي. إن نور القمر ليس هو نوره الخاص، وهكذا الحال مع الكنيسة. ولا هو مطلوب منها أن تُظهِر ذاتها للعالم. وإنما هي مطالبة أن تمد المسكونة بالنور الذي تستمده من المسيح، وعليها أن تدرس بمواظبة واجتهاد المثال الذي تركه لنا لنقتفي آثار خطواته التي سلكها هنا على الأرض بقوة الروح القدس الساكن فيها. ولكن وا أسفاه! فإن غيوم العالم وسُحبه وأبخرته أي غموم وغرور الحياة تحجب النور وتمحو كتابة الرسالة، فيبيت العالم وهو لا يرى من صفات المسيح وكمالاته في ذويه المدعوين باسمه إلا النذر القليل، بل قل إنه في بعض الأوقات يرى بدل المشابهة مفارقة ويبصر عكس تلك الصفات. فيا ليتنا نشخص إلى المسيح وننظر إلى مجده الأبدي بروح الصلاة فننسج على منواله ونكون أمناء في الاقتداء به.

أما النجوم فهي عبارة عن أنوار بعيدة عنا جداً. وهي تضيء في أجواء أخرى علاقتها الوحيدة بمركزنا أننا نبصر ضوءها. إلا أن «نجماً يمتاز عن نجم في المجد» (١كو١٥: ٤١)، وهكذا يكون عند مجيء ملكوت الابن، فالمسيح سيبقى هو مركز النور والضياء. وعلى الكنيسة الآن أن تعكس نوره على كل الذين هم حولها.

أما القديسون فسيضيئون في مداراتهم الخاصة بهم بحسب ما يرى ذلك الديّان العادل البار عند توزيع الأجرة على مستحقيها جزاء الخدمات التي أدوها بأمانة في ليل غياب سيدهم. إن هذا الفكر لَيبعث فينا الغيرة والسعي الحثيث لاتّباع ربنا الغائب عنا الآن (لو١٩: ١٢-١٩).

ثم نقرأ عن الخلائق العجماوات. وهنا نرى الحياة وقد ابتدأت تدب على وجه الأرض وفي وسط

البحر. نعم إن بعض المفسرين أخذوا ترتيب خليقة الله في الأيام المتوالية رمزاً إلى تدابير الدهور المختلفة وما يميزها عن بعضها البعض، إلا أني ألاحظ هنا أنه يُخشَى من استعمال كلمة الله بهذه الصورة لئلا يُفسَح المجال للخيال الفكري. وأشير على من يقصد أن ينهج هذا المنهج أن يلاحظ مقارنة الروحيات بالروحيات لئلا يقع في حبائل الخطأ. أما أنا فلا أرى سبباً لاتباع هذه الخطة في الشرح، وبحسب فكري يجب المحافظة على معاني الكلمات حسب النص الإلهي.

والآن لنتأمل في مركز الإنسان كما أقامه الله على أعمال يديه. لأنه بعدما أبدع الله كل شيء رأى ضرورة وجود رأس لتلك الخليقة.

«وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا. فيتسلطون على سمك البحر، وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على وجه الأرض. فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكراً وأنثى خلقهم وباركهم الله وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض واخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض» (١: ٢٦-٢٨).

ليلاحظ القارئ العزيز انتقال الوحي في الكلام عن الإنسان من صيغة المفرد إلى صيغة الجمع. لم يذكر الوحي شيئاً عن المرأة إلا في الأصحاح الثاني ومع ذلك فإنه تكلم عن أكثر من واحد في قوله «وباركهم» وأعطاهم أن «يتسلطوا»، لأن حواء كانت في آدم حينئذ وقد نالت البركة فيه، وكل الخليقة قد خُلقت من أجلهما معاً، وفيه قد نالت مقاماً، ومع أنها لم تكن في الوجود بعد إلا أنها كانت في مقاصد الله واحداً في الرجل. «رأت عيناك أعضائي وفي سفرك كلها كتبت يوم تصورت إذ لم يكن واحد منها» (مز ١٣٩: ١٦).

وهكذا الأمر مع الكنيسة أيضاً، عروس المسيح. فمقامها منذ الأزل كان في المسيح رأسها وسيدها وعريسها. كما نقرأ في الأصحاح الأول من أفسس «كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه في المحبة»، فقبل أن يوجد عضو من أعضاء جسد المسيح في الوجود كانوا جميعهم معيَّنين حسب فكر الله الأزلي ليكونوا مشابهين صورة ابنه. فمشورة الله تقضي أن الكنيسة تكون ملء ذلك الإنسان الروحي وكماله، ولذلك قيل عنها إنها «ملء الذي يملأ الكل في الكل» (أف١: ٢٣)، وهو مقام سامٍ، فيه سرّ عظمة ومجد وأهمية الكنيسة.

إن الفكر الشائع بين جمهور الناس أن الفداء له بركات وفوائد تتجه نحو المؤمنين كأفراد؛ ولكن هذا ليس هو الفكر الأسمى، ولو أنه صحيح. إن جميع البركات الموعود بها المؤمنين هي لكل فرد منهم فعلاً بلا نزاع، ولكن هذا أقل ما يقال عن نتائج الفداء، لأن مجد المسيح مقترن بنوع أسمى، بالكنيسة، ومتعلق بوجودها. وفي هذا التعبير من القوة والبلاغة والمتانة ما لا يوجد في

التعبير الأول لأني متى تحققت من كلمة الله أني عضو لازم لتكميل جسد المسيح فلا يوجد عندي أقل ريب أن كافة أعوازي ونقائصي قد وفاها هو. وهل كانت الكنيسة ضرورية للمسيح؟ نعم لأنه «ليس جيداً أن يكون آدم وحده. فأصنع له معيناً نظيره» وأيضاً «لأن الرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل ولأن الرجل لم يُخلق من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجل .. غير أن الرجل ليس من دون المرأة ولا المرأة من دون الرجل في الرب لأنه كما أن المرأة هي من الرجل هكذا الرجل أيضاً هو بالمرأة. ولكن جميع الأشياء هي من الله» (١كو١١:٨-١٢). إذاً فالمسألة ليست فيما بعد إمكان الله قبول وخلاص الخطاة الضعفاء المساكين ولا هي مسألة غفران خطاياهم وقبولهم بقوة بُر الله، بل أن الله قال «ليس جيداً أن يكون آدم وحده» فهو لم يترك الإنسان الأول بلا معين، ولم يشأ أن يترك الإنسان الثاني هكذا وكما أن الخليقة الأولى كانت تُعدّ ناقصة بدون حواء هكذا الخليقة الجديدة تعد ناقصة - ويا لخطورة هذا الفكر والمجاهرة به - بدون العروس أي الكنيسة.

والآن لنتأمل في كيفية تكوين حواء، ولو أن هذا الموضوع يضطرنا إلى استطراد الكلام على جزء من الأصحاح الثاني من سفر التكوين. إن الله لم ير في كل الخليقة مُعينة تليق بآدم، إذ كان ينبغي أن يوقع عليه «سباتاً» أي نوماً عميقاً، وفي أثناء ذلك تتكون من جسمه معينة له تشاركه في بركاته وفي سلطانه.

«فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام. وأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً وبنى* الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم. فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي. هذه تدعى امرأة لأنها من امرءٍ أُخذت» (٢:٢١-٢٣).

وإذا اعتبرنا آدم وحواء رمزاً للمسيح والكنيسة، كما هو ثابت من كلمة الوحي نفسها، نرى كيف أن موت المسيح كان لابد منه لكي يمكن أن تُبنى الكنيسة أو تتكون، ولو أنها حسب مقاصد الله مختارة في المسيح قبل تأسيس العالم.

غير أنه يوجد فرق بين مشورات الله المحتومة السابقة وبين إعلان تلك المقاصد والمشورات أو تنفيذها. ولكي يتم قصد الله من جهة بنيان أو تكوين جسد المسيح كان ينبغي أن ابن الله يتألم ويُصلَب ثم يتبوأ كرسيه في العلا لكي يرسل الروح القدس الذي به يعتمد المؤمنون إلى جسد واحد. ليس المعنى أن النفوس لم تولد ولم تخلص إلا بعد موت المسيح. فقد كان قبل المسيح مولودون ومخلّصون بلا شك. فآدم وألوف غيره من جميع الأجيال قد حُسبوا أبرار بواسطة

* إن أصل اللفظة العبرانية المترجمة هنا (بنى) هو عين أصل اللفظة المترجمة في أفسس٢:٢٠، ٢٢ «مبنيين» و«مبنيون معاً».

ذبيحة المسيح ولو أنها لم تكن قد قُدِّمت بعد. ولكن تبرير النفوس كأفراد شيء وتكوين الكنيسة بالروح القدس كشعب خاص شيء آخر.

ولكن الذين يدركون هذا الفرق قليلون، وحتى الذين يقبلون هذا التعليم نظرياً لا ترى الأثمار المباركة التي تنشأ عن حق خطير كهذا إلا في القليلين من بينهم، مع أن معرفة نسبة الكنيسة الفريدة هذه وعلاقتها الجديدة بالإنسان الثاني الرب من السماء، وامتيازاتها ومركزها الخاص بها، هذه الحقائق إذا رسخت بقوة الروح القدس تثمر أشهى وأحلى الأثمار (أف٥:١٣-٣٢).

ومتى تأملنا في الرمز المطروح أمامنا الآن نقدر أن ندرك بعض النتائج التي ينبغي أن تتولد من التمسك بمبدأ مقام الكنيسة ونسبتها الجديدة. لأنه كيف كانت عواطف حواء الحبية من نحو آدم؟ وكم كان مقدار شغفها وتعلقها به وشركتها في جميع حاسياته! ففي مجده وفي جلاله كانت واحداً معه، ولم يملك عليها بل معها، وهو كان سيد الخليقة وهي كانت شريكته فيها. وكما قلنا، سبق الله فرآها في آدم، وفيه قد باركها. فموضوع البركة كان «الإنسان» ولكن «المرأة» كانت لازمة له ولذلك أوجدت له. وما ألذ التأمل في هذه الصورة. فالرجل هو الذي أُقيم أولاً ولكن المرأة كانت فيه وبُنيت منه. هذا كله رمز بديع ولكن لنا فيه تعليماً وإرشاداً بليغاً. ليس المعنى أننا نبني على الرمز عقائد وتعاليم ولكننا حين نرى التعليم المنصوص عنه في فصول متعددة مرموزاً إليه في موضع من الكتاب المقدس تصير لنا فرصة المقارنة والتأمل.

وفي المزمور الثامن وصف جميل للإنسان الذي أُقيم على أعمال يدي الله: «إذا أرى سماواتك عمل أصابعك القمر والنجوم التي كونتها فمن هو الإنسان حتى تذكره وابن آدم حتى تفتقده. وتنقصه قليلاً عن الملائكة. وبمجد وبهاء تكلله ـ تسلطه على أعمال يديك. جعلت كل شيء تحت قدميه. الغنم والبقر جميعاً وبهائم البر أيضاً. وطيور السماء وسمك البحر السالك في سبل المياه. أيها الرب سيدنا ما أمجد اسمك في كل الأرض». والكلام هنا عن الإنسان ولكن ليس بالانفصال عن المرأة لأن المرأة في الرجل، وهذا في غاية المناسبة.

ومع ذلك فإنه لا توجد إعلانات صريحة عن سر الكنيسة في أسفار العهد القديم، والرسول بولس يقول صريحاً «الذي في أجيال أُخر لم يُعرَّف به بنو البشر كما قد أُعلن الآن لرسله القديسين وأنبيائه بالروح (أي أنبياء العهد الجديد)» (أف٣:٥-١١)، ولذلك فنحن لا نقرأ في مزمور ٨ الذي اقتبسنا منه الأقوال السابقة إلا عن «الإنسان»، ولكننا نعلم الآن أن الرجل والمرأة هما واحد، وسيعلن لنا هذا تماماً في الدهور الآتية حين يتبوأ الإنسان الحقيقي (الرب من السماء) عرشه ويملك مع عروسه أي الكنيسة على الخليقة بعد ردها.

هذه هي الكنيسة التي أُقيمت مع المسيح وهي «أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه» (أف٥:٣٠) فهو الرأس وهي جسده وكلاهما إنسان واحد، كما نقرأ أيضاً في أفسس ٤:١٣ قوله «إلى أن ننتهي جميعنا إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله إلى إنسان كامل. إلى قياس قامة ملء المسيح». وبما أن الكنيسة هي واحد مع المسيح فسيكون لها في المجد شأن عظيم ومقام سام. وكما كانت حواء أقرب الخلائق إلى آدم لأنه لم يكن سواها جزء منه، هكذا سيكون شأن الكنيسة عندما يأتي المسيح في مجده، لأنها ستأخذ أقرب مكان من المسيح.

على أن تأملاتنا الآن لا تقتصر على مستقبل الكنيسة بل على حاضرها أيضاً. فهي الآن جسد المسيح الرأس المجيد، وهي الآن هيكل الله الذي يسكنه بالروح. فأي أناس يجب أن نكون نحن؟ وإذا كان هذا هو مقامنا الآن وهذا هو نصيبنا المستقبل في المجد الذي سيكون لنا بنعمة الله مكان فيه فكم يليق بنا أن نسلك في القداسة ونعيش بالتعبد كشعب منفصل متميز.

يا ليت الروح القدس يكشف هذه الحقائق لقلوبنا بقوة ووضوح أكثر لكي تتعمق في اختبار العيشة والتصرف اللائقين بهذه الدعوة السامية التي دعينا بها (أف١:١٤) «مستنيرة عيون أذهانكم لتعلموا ما هو رجاء دعوته وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين وما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين حسب عمل شدة قوته الذي عمله في المسيح إذ أقامه من الأموات وأجلسه عن يمينه في السماويات فوق كل رياسة وسلطان وقوة وسيادة وكل اسم يسمى ليس في هذا الدهر فقط بل في المستقبل أيضاً وأخضع كل شيء تحت قدميه وإياه جعل رأساً فوق كل شيء للكنيسة التي هي جسده ملء الذي يملأ الكل في الكل» (أف١:١٨-٢٣).

الأصحاح الثاني

هذا الفصل يسوقنا إلى التأمل في موضوعين خطيرين لهما شأن كبير مع المفسرين وهما «اليوم السابع» و «النهر» وأولهما يستدعي التفاتاً خاصاً وعليه مدار بحثنا الآن.

لا يخفى أن عقيدة «يوم السبت» من المسائل التي كثر فيها الجدال. وتضاربت فيها الآراء من غير وجه حق، لأن كلمة الله صريحة وبسيطة من جهة «حفظ السبت» لا تقبل الشك وسنتكلم عنها بمشيئة الرب في محلها عند تأملنا في سفر الخروج. أما الفصل المطروح أمامنا الآن على بساط التأمل فليس فيه ذكر لوصية بل مجرد الخبر أن الله استراح في اليوم السابع.

«فأكملت السماوات والأرض وكل جندها. وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع وقدسه. لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً» (٢:١-٣).

فلا ذكر هنا لوصية سُلِّمت للإنسان بل مجرد الخبر أن الله استراح من جميع عمله لأنه كان قد أكمل عمل الخليقة ولم يُبقِ شيء ليعمله. وكما أنه لبث ستة أيام يعمل فيها ففي اليوم السابع انقطع عن العمل واستراح من جميع عمله لأن كل شيء قد أُكمل ورأى الله كل شيء أنه حسن لأنه كان بالصورة التي خلقه بها فاستراح في ذلك «عندما ترنمت كواكب الصبح معاً وهتف جميع بني الله» (أي٣٨:٧) وإذ انتهى من عمل الخليقة استراح يوم السبت.

ليلاحظ القارئ أن هذا هو وصف السبت الحقيقي بل هذا هو السبت الوحيد الذي استراحه الله مذكوراً في كتاب وحيه. ثم نقرأ بعد ذلك أن الله أمر الإنسان أن يحفظ يوم السبت ولكن الإنسان كسر الوصية، غير أننا لا نقرأ بعد ذلك «أن الله استراح» بل بالعكس نسمع السيد يقول «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو٥:١٧) والسبت بمعناه الحقيقي يعني الانقطاع عن العمل، ولا يمكن

حفظه إلا إذا لم يكن هناك عمل ليُعمَل. إذاً فحفظه لا يتأتى إلا وسط خليقة طاهرة - خليقة ليس فيها أثر للشر، ولا يمكن لله أن يستريح ما دام الشر موجوداً. ومجرد النظر إلى ما حولنا يكفي لأن نتحقق أن الله لا يستطيع أن يستريح الآن وسط الخليقة الحاضرة. فالشوك والحسك وربوات المصائب والأحزان التي تئن من جرائها الخليقة وتمثل أدوارها أمام بصرنا تؤكد لنا أن الله إلى الآن يعمل وأنه لم يسترح بعد - إذ كيف يستريح الله وسط الحسك والشوك - وسط الدموع والزفرات - وسط المرائر والبلايا - وسط المرض والموت - وسط انحطاط وتشويش وخراب العالم بواسطة الإثم؟ وهل يتصور أحد أن الله يجلس الآن على عرشه مستريح البال معيِّداً بالسبت (إذا جاز التعبير) وسط ظروف كهذه؟

مهما كان الجواب على هذه الأسئلة فكلمة الله تعلمنا أن الله لم يعرف له سبتاً سوى ذلك اليوم السابع الذي ورد ذكره في الأصحاح الثاني من سفر التكوين وهذا «اليوم السابع» لا سواه كان سبت الله لأنه أشار إلى كمال الخليقة ولكن الخليقة قد فسدت وتشوهت فانتهى سبت اليوم السابع. ومن وقت السقوط إلى يوم التجسد كان الله يعمل ومن يوم التجسد حتى الصليب كان الابن يعمل ومن يوم الخمسين إلى الآن لا زال الروح القدس عاملاً.

وبدون شك لم يكن للمسيح سبت مدة وجوده على الأرض، نعم إنه أكمل العمل، ذلك العمل المبارك المجيد الذي كان قد أعطى له ليعمله .. ولكن أين صرف يوم السبت؟ تقول في القبر، نعم أيها القارئ العزيز إن السيد المسيح الله ظاهراً في الجسد، رب السبت، رب السماوات والأرض، حامل كل الأشياء بكلمة قدرته - قد قضى السبت في ظلام القبر وهدوئه. أوَ ليس في هذا صوت لنا؟ ألا نأخذ لنا منه تعليماً؟ ألا نقرأ في سطوره معنى؟ وهل كان يمكن أن ابن الله يقضي سبته في القبر إذا كان يجب أن يكون يوم راحة وسلام؟ وهل كانت أسباب الراحة قد توفرت بكل معاني الكلمة؟ نحن لا نحتاج إلى إثبات استحالة حفظ السبت ببرهان أوضح من وجود المسيح في القبر ذلك اليوم! ربما نقف عند باب القبر مندهشين من وجود شخص كهذا هناك في اليوم السابع، ولكن متى عُلِم السبب بَطُل العجب فالإنسان قد فسد وضل وأثِم، ومكيال شره قد كمل حين صلب رب المجد نفسه. على أنه لم يكتف بصلبه بل وضع على باب القبر حجراً وختمه، حاسباً أنه بضبطه هناك فلا يفلت منه.

وماذا كان يعمل الإنسان بينما كان ابن الله في القبر؟ كان يحفظ السبت. أمر غريب! المسيح في القبر لكي يجبر السبت المكسور والإنسان خارجاً يحاول حفظه كأنه لم يكسره. حقاً إن هذا السبت كان سبت الإنسان لا سبت الله، لأنه كان سبتاً بدون مسيح وبلا إله، صورة فارغة بلا معنى

وبلا قيمة، وهماً لا حقيقة.

ولكن ربما يقول البعض أن اليوم قد تغير ولكن مبادئ حفظه لم تتغير ولكني لا أظن أن في كلمة الله دليلاً واحداً لإثبات صحة هذا الزعم لأننا أين نقرأ في كلمة الله تعبيراً كهذا؟ وإذا فرض وجود مستند في كلمة الله، لذلك فنحن نطلب إبرازه، ولا يوجد أسهل من تقديمه إذا صح أن هناك شاهداً كهذا. ولكن الحقيقة أنه لا يوجد أقل برهان لذلك، بل إننا بالعكس نقرأ في العهد الجديد أن يوم الأحد غير يوم السبت. خذ مثالاً لذلك القول الوارد في متى ١:٢٨ «وبعد السبت عند فجر أول الأسبوع» فظاهراً من هذا أن السبت لم يُستبدَل باليوم الأول من الأسبوع ولا أن السبت انتقل من آخر الأسبوع إلى أول الأسبوع، فأول الأسبوع ليس هو السبت بل يوماً آخر. وهو بداية تاريخ جديد لا خاتمة تاريخ قديم، وكما أن اليوم السابع له علاقة بالأرض وراحة الأرض هكذا اليوم الأول يقودنا إلى السماء وإلى راحة السماء.

ومن هنا نرى أن المبدأ أيضاً قد تغير فهو ليس واحداً في الحالتين. ومتى نظرنا إلى الموضوع من وجهه العملي ظهر الفرق بنوع أوضح لأني متى حفظت اليوم السابع فأكون قد اعتبرت نفسي إنساناً أرضياً لأنه واضح أن السبت هو يوم راحة الأرض أي راحة الخليقة. أما إذا كنت متعلماً من كلمة الله، وبواسطة روحه قد فهمت معنى اليوم الأول من الأسبوع فإني أُدرك في الحال العلاقة التي بين هذا اليوم وبين نظام الأمور السماوية الجديدة، التي أساسها الأبدي في موت وقيامة المسيح. ثم أن اليوم السابع كان خاصاً بأمة إسرائيل والأرض أما اليوم الأول فعلاقته بالكنيسة والسماء وفضلاً عن ذلك فإن إسرائيل كان عليه أن يحفظ السبت بموجب وصية، أما الكنيسة فمن ضمن امتيازاتها أن تعيّد باليوم الأول من الأسبوع. ذلك كان فيه امتحان حالة اسرائيل الأدبية، وأما هذا ففيه برهان قبول الكنيسة قبولاً أبدياً. في الأول ظهر ما يمكن لإسرائيل أن يعمله لله، وفي الثاني مُعلَن لنا ما عمله الله لأجلنا بكل وضوح.

على أن أهمية وخطورة يوم الرب* الذي هو اليوم الأول من الأسبوع كما ورد في سفر الرؤيا - لا تخفي على أحد. فهو اليوم الذي فيه قام المسيح من الأموات وهو يشير إلى كمال عمل الفداء العجيب لا إلى إكمال الخليقة. ولكننا لا نعتبر التعييد بيوم الرب بصفة استعباد أو نير موضوع على عنق المسيحي بل هو يبتهج ويُسرّ بالتعييد في ذلك اليوم السعيد، حتى أن التلاميذ في أيام المسيحية الأولى ميزوه باجتماعهم فيه معاً لكسر الخبز، وكانوا حينئذ يميزون جلياً الفرق بين السبت والأحد. لأن اليهود كانوا يجتمعون معاً في مجمعهم حسب

* أي كريات ايميرا (باليونانية) ويقابله بالإنجليزية *The Lord's Day* وليس *The Day of the Lord* لأن لذلك معنى آخر.

عادتهم في حفظ السبت ليقرأوا الناموس والأنبياء، والمسيحيون يجتمعون معاً في مكان واحد في اليوم الأول من الأسبوع «ليكسروا خبزاً» ولا توجد آية واحدة في الكتاب المقدس تدل على أن اليوم الأول من الأسبوع دُعي سبتاً بل بالعكس نجد فيه الآيات التي تثبت وجود فرق كبير بينهما.

ولماذا كل هذا الجدال في مسألة لا أساس لها من كلمة الله بالمرة؟ إن كنت تحب أن تكرم يوم الرب وتُعيّد فيه وتحب أن تكون فيه «في الروح» كما كان الرسول يوحنا، أو إذا أردت أن تعتزل كل أشغالك وتتعبد فيه للرب فحسناً تصنع ولكن حافظ على اسمه ومركزه واعرف له صفاته التي تميزه عن السبت، وافهم مبادئه الخاصة به، وفوق هذا كله لا تحكم على المسيحي أن يحفظ السبت أو اليوم السابع فتحرمه حق التمتع بامتياز التعييد والفرح بيوم الرب الذي هو اليوم الأول من الأسبوع، ولا تجره من مركزه السماوي إلى أرض اللعنة الملوثة بالدم حيث لا توجد راحة، ولا تكلفه أن يحفظ اليوم الذي صرفه مولاه في القبر بدلاً من أن يُعيّد باليوم الذي قام فيه من بين الأموات وأخلى القبر (قارن مع التأمل مت٢٨:١-٦؛ مر١٦:١، ٢؛ لو٢٤:١؛ يو٢٠:١، ١٩، ٢٦؛ أع٢٠:٧؛ ١كو١٦:٢؛ رؤ١:١٠؛ أع١٣:١٤؛ ١٧:٢؛ كو٢:١٦).

ولكن لا يتوهم أحد أننا صرفنا النظر عن أمر رجوع الشعب القديم وتلك الحقيقة الراهنة أنهم سيعودون لحفظ السبت في أرضهم كلها لأنه «بقيت راحة (سبت) لشعب الله» (عب٤:٩) ومتى أخذ ابن إبراهيم وابن داود وابن الإنسان معاً مركز السيادة فوق الأرض حينئذ سيكون سبت مجيد - راحة لا تشوبها خطية أما الآن فكل الذين يعرفونه ويحبونه مطلوب منهم أن يشاركوه في رفضه ومدعوون إلى الخروج إليه خارج المحلة حاملين عاره (عب١٣:١٣). ومحاولة الكنيسة الإسمية أن تجعل اليوم الأول من الأسبوع يوم السبت تكشف القناع عن حقيقة مهمة جداً ومبدأ خطير إذ هذا بمثابة محاولة الرجوع إلى النظام الأرضي وإلى طقس أدبي أرضي.

ولكنه قد يوجد كثيرون لا يدركون هذه الحقيقة وعدد كبير منهم يحفظون يوم السبت بتلك الصورة بضمير صالح، ونحن مضطرون أن نحترم ضمائرهم، غير أنه يسوغ لنا أن نطالبهم بتقديم مستند كتابي اقتنعت به ضمائرهم، ونحن لا نقصد جرح أو تعثير ضمائرهم بل غايتنا نصحهم وهدايتهم ليس إلا، ومع ذلك فنحن لا نريد أن ننشغل بمسألة اقناع الضمير الآن بل نقصد تقرير مبدأ يهدم الأساس الذي بُني عليه حفظ السبت. فلنسأل القارئ المسيحي الذي درس كلمة الله وأدرك روح العهد الجديد «أيهما ينطبق على روح الإنجيل - حفظ السبت أي اليوم السابع - أم

التعييد في يوم الأحد أي يوم أول الأسبوع وهو يوم الرب*»؟

والآن نتأمل في علاقة السبت بالنهر الخارج من جنة عدن. ففي ذلك لذة وفائدة وهي أول مرة ذُكر فيها نهر الله وهو مقترن هنا براحة الله أيضاً لأنه حالما استراح الله من أعماله شعرت الخليقة بالانتعاش والبركة وكان غير ممكن أن الله يحفظ سبته ولا تشعر الأرض بتأثير ذلك السبت، ولكن بكل أسف فإن المجاري التي كانت تخرج من وسط الجنة، مركز راحة الأرض، انقطع جريانها لأن الخطية قد دخلت فشوهت راحة الخليقة.

ولكن مبارك الله فالخطية لم تَحُلْ دونه ولا أوقفت سير مساعيه بل أوجدت لعمله دائرة جديدة، وحيثما وجدنا الله عاملاً نجد نهره جارياً. ففي البرية الناشفة والقفر الموحش حيث سار بشعبه الذي أخرجه من أرض مصر بذراع رفيعة ويد ممدودة نجد ينبوعاً منفجراً جارياً ليس من وسط جنة عدن بل من الصخرة المضروبة (رمز بديع، فيه إشارة إلى أساس معاملات الله بالنعمة من نحو أعواز الخطاة، ففيه الفداء لا الخلق وحده) «والصخرة كانت المسيح» (١كو١٠:٤) مضروباً لسد أعواز شعبه وكانت الصخرة المضروبة متصلة بمسكن الرب في الخيمة. وفي هذه الصلة جمال أدبي حقاً كأن الله ساكن وراء الستار ولكن إسرائيل يشرب من الصخرة المضروبة التي مصدرها مسكن الله وفي هذا الرمز صوت جميل لمن له أُذنان للسمع ودرس بليغ لكل مختون القلب (خر١٧:٦).

* هذا الموضوع سيُبْسَطُ أمامنا مرة أخرى إن شاء الرب عند تأملنا في الأصحاح العشرين من سفر الخروج. ولكنى ألاحظ هنا أن سبب العثرة وسوء الفهم المقترنين بهذا الموضوع الخطير يصح أن ننسبهما إلى بعض المسيحيين المتطرفين الذين يتمسكون بمبدأ حرية المسيحى حسب زعمهم ويغضون الطرف بالمرة عن مطاليب الضمير الصالح ومركز يوم الرب كما ورد ذكره في العهد الجديد. طالما سمعنا من البعض الذين يمارسون أشغالهم الاعتيادية في هذا اليوم أن غايتهم الوحيدة في ذلك هي إثبات حريتهم المسيحية ليس إلا، مع أنهم بتطرفهم هذا يسببون عثرة بدون داع. لأنى مهما كنت موقناً في فكرى ومخلص النية فلا يجب أن أغض النظر عن ضمائر إخوتى أبداً. والذى يتصرف هكذا لا يمكن أن يكون منقاداً بروح المسيح. ولست أظن أن الذين يتطرفون إلى هذا الحد يفهمون حقيقة امتيازاتهم المباركة المقترنة بيوم الرب. لأن حريتى المسيحية لا أتمتع بها بممارستى أشغالى الاعتيادية بل بالحرى بطرح كل شاغل ليفيض القلب بالشكر من أجل الإحسان. وليتيقن كل واحد في نفسه أن الانقطاع عن العمل هو من رحمة الله بشعبه إذ لولا ذلك لكان أيسر ما على القلب الخدّاع أن يستهين حتى بالاجتماع في محضر القديسين حول مائدة الرب فيُحرم من ذلك الامتياز الحلو، ومن يقدر أن يصف النتائج السيئة التي تنشأ من انشغال البال في الأشغال العالمية في يوم الرب؟ إن المسيحيين الذين يصرفون أسبوعهم من صباح الاثنين إلى مساء السبت في دكانهم أو مكتبهم أو سوقهم يعرفون قيمة ومعنى الانقطاع عن شغل عالمى. ولا يمكن أن نعتبر الاستهانة بيوم الرب علامة حسنة، التي هي بالحقيقة ناشئة عن امتداد مبادئ الكفر وتأثير محبة العالم.

إلا أنه يوجد قوم يقولون بأن يوم الرب (أى كرياكى ايميرا) الوارد ذكره في سفر الرؤيا هو نفس اليوم الوارد ذكره في تسالونيكى ظانين أن الرسول كان في روح ذلك اليوم حين رأى رؤياه ولكن مراجعة النص تنفى تفسيراً كهذا. وفضلاً عن ذلك فإن الألفاظ الواردة في تسالونيكى واردة بعينها في ٢بط٣:١٠ تنفى تفسيراً كهذا. وفضلاً عن ذلك فإن الألفاظ الواردة في تسالونيكى واردة بعينها في ٢بط٣:١٠. فهى ليست هنا (أى كرياكى ايميرا) ويقابلها بالإنجليزية *The Lord's Day* بل (أى ايميرا كيريو) وبالإنجليزية (*The Day of the Lord*) والتعبيران يختلفان في المعنى اختلافاً جوهرياً وفى هذا فصل الخطاب وفضلاً عن ذلك فإن سفر الرؤيا يتكلم عن حوادث أخرى سابقة لمجيء يوم الرب.

ومتى تقدمنا في تاريخ معاملات الله مع شعبه نجد نهراً آخر يجري في قناة أخرى لأننا نقرأ «في اليوم الأخير العظيم من العيد وقف يسوع ونادى قائلاً «إن عطش أحد فليقبل إليّ ويشرب. من آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي» (يو٧:٣٧، ٣٨) فهنا نجد النهر يندفق من ينبوع جديد ويجري في قناة أخرى ولو أن الينبوع في الحقيقة واحد وهو الله وحده. ولكنه هنا معروف على أساس جديد وقياس جديد، ففي الجملة التي اقتبسناها الآن كان الرب يسوع آخذاً مركزه بالروح خارج دائرة العيان والنظام الحاضر، مقدماً نفسه كينبوع نهر ماء حي. وشخص المؤمن القناة التي يجري فيها ذلك الماء الحي. وكما كانت جنة عدن في القديم مصدر كل خير للأرض، ومنها تفيض كل المجاري بواسطة مياه النهر الخارج منها، وكما كانت الصخرة التي ضربت في القفر واسطة إرواء ظمأ شعب إسرائيل في البرية، هكذا الآن كل مؤمن بالرب يسوع مُطالب الآن بأن يسقي النفوس المتعطشة التي حوله من مجاري أنهار الماء الحي.

وعلى المسيحي أن يعتبر نفسه مجرى لتوصيل مياه نعمة المسيح المتنوعة لمن حوله حتى تفيض بغنى لسد أعواز المحتاجين وكلما زاد في التوزيع زاد إيراده إذ «يوجد من يفرق فيزداد أيضاً، ومن يمسك أكثر من اللائق وإنما إلى الفقر» (أم١١:٢٤) هذا هو امتياز المسيحي الحلو ومركزه الجميل بل هنا مسئوليته العظمى وواجبه الخطير، فهو مدعو ليكون شاهداً كل حين ومُطالب بإعلان نعمة ذاك الذي قد آمن هو به.

وكلما تعمق في معرفة إمتيازه كلما نما في اختبار مسئوليته وأدائها، وإذا كان المسيح طعامه اليومي فلا بد له من إعلانه للناس، وما دام الروح القدس مثبتاً بصره في المسيح فلا بد لقلبه من التعبد لشخصه المبارك، وحينئذ تصبح حياته وصفاته عنوان نعمته. إن الإيمان هو قوة الخدمة وقوة الشهادة وقوة العبادة، وإذا كنا غير عائشين بالإيمان، إيمان ابن الله الذي أحبنا وأسلم نفسه لأجلنا، فلا نكون خداماً عاملين ولا شهوداً أمناء ولا ساجدين حقيقيين. ومهما كثرت خدماتنا فلا تكون خدمات للمسيح ومهما عظمت شهادتنا فلا تكون شهادة للمسيح، بل مهما تظاهرنا بالتقوى والخشوع فلا يعد ذلك سجوداً بالروح والحق.

وأخيراً فإننا نقرأ عن نهر الله في الأصحاح الأخير من سفر الرؤيا* «وأراني نهراً صافياً من ماء حياة لامعاً كبلور خارجاً من عرش الله والخروف» (رؤ٢٢:١) ويكون هذا نهراً «سواقيه تفرح مدينة الله مقدس مساكن العلي» (مز٤٦:٤) وهو آخر موضع ذكر فيه «نهر الله» ولا يمكن أن يمس بسوء فيما بعد وسيبقى جارياً إلى الأبد لأن «عرش الله» يشير إلى الثبات الأبدي كما أن وجود

* راجع حزقيال ٤٧:١-١٢ مع زكريا ١٤:٨.

«الخروف» يشير إلى أساس الفداء الكامل الثابت. وليس العرش عرش الخليقة ولا عرش العناية ولا عرش السيادة بل عرش الفداء، وعندما أرى «الخروف» أعلم علاقة ذلك بي كخاطئ. فعرش الله في حد ذاته يزعجني، أما متى أعلن الله لي ذاته في شخص الخروف فالقلب ينجذب والضمير يستريح ويسكن روعه.

إن دم الخروف يُطهّر الضمير من كل دنس الخطية ويجعله في حرية كاملة أمام قداسة الله التي تكره الخطية. لأن جميع مطاليب قداسة الله قد وفيت عند الصليب بحيث أنه كلما ازداد إدراكي لقيمة قداسة الله كلما عظُمت لديَّ قيمة دم الصليب. وبمقدار ما يتعظّم شأن القداسة الإلهية يتعظّم أيضاً عمل الصليب «لأن النعمة تملك بالبر للحياة الأبدية بيسوع المسيح ربنا» (رو٥:٢١) لذلك يطلب كاتب المزامير من القديسين أن يقدموا الشكر عند ذكر قداسة الله. وهذا هو ثمر الفداء المجيد الكامل. فالخاطئ لا يمكنه أن يقدم من صميم قلبه حمداً عند ذكر قداسة الله إلا متى رآها بعين الإيمان مُقترنة بالجانب الآخر للصليب، أي جانب القيامة.

وإذ تتبعنا ذكر «النهر» من أول سفر التكوين إلى آخر سفر الرؤيا فعلينا أن نتأمل بالاختصار الآن في مركز آدم في الجنة: فيما سبق تكلمنا عنه كصورة للمسيح ولكنه لا يليق بنا أن ننظر إليه كرمز فقط ونعرض على شخصيته فهو من جهة: «مثال الآتي» ولكنه في شخصيته عليه مسئولية لا يصح الإغضاء عنها. فقد أقام الرب الإله في وسط الخليقة شهادة وكانت تلك الشهادة امتحاناً لمخلوقه وهي صوت موت وسط الحياة «يوم تأكل منها موتاً تموت» ويا له من صوت مريع! إلا أنه كان لازماً لأن حياة آدم كانت متوقفة على الطاعة الكاملة، وكانت الطاعة هي واسطة اتصال آدم بالرب الإله* تلك الطاعة المؤسسة على الثقة الكاملة في ذاك الذي هو واسطة وجوده في هذا المركز السامي العظيم، كما الثقة أيضاً في أمانة الله وصدقه، الثقة في محبته. وحيثما وجِدتْ الثقة وجِدتْ الطاعة، وسنرى هذه الحقيقة ونتثبت من صدقها عندما نأتي إلى شرح الأصحاح الثالث من سفر التكوين إن شاء الرب.

* ليلاحظ القارئ الانتقال في تعبير الوحي عن الله من (الوهيم) أي الله إلى (يهوه) أي الرب فإن ذلك له أهمية كبرى. فحين يتكلم الوحي عن علاقة الله بشعبه يأخذ لقب «الرب الإله» (يهوه الوهيم) ولكن قبل ظهور الإنسان على الأرض لم يرد ذكر يهوه أي الرب مطلقاً. ولكي يفهم القارئ قوة ومعنى هذا الفرق أسرد له ثلاثة شواهد فقط: الأول من تكوين ٧:١٦ «والداخلات دخلت ذكراً وأنثى من كل ذي جسد كما أمره الله (الوهيم) وأغلق الرب (يهوه) عليه» فالله (الوهيم كان مزمعاً أن يُغرق العالم بالطوفان ولكن الرب (يهوه) اهتم بخلاص الشخص الذي كان أمره معه. والشاهد الثاني من ١صموئيل ١٧:٤٦، ٤٧ «فتعلم كل الأرض أنه يوجد إله (الوهيم) لإسرائيل وتعلم هذه الجماعة كلها أنه ليس بسيف ولا برمح يُخلِّص الرب (يهوه)» فكل الأرض كان يجب أن تعرف وجود الله الوهيم، أما إسرائيل فكان عليه أن يميز معاملات الرب (يهوه) مع شعبه. والشاهد الثالث من ٢ أخبار ١٨:٣١ «فصرخ يهوشافاط وساعده الرب (يهوه) وحولهم الله (الوهيم) عنه» فالرب اهتم بأمر عبده الشارد عنه ولكن الله عمل بسلطانه في قلوب أولئك الأراميين الغلف ولو أنهم لم يعرفوه.

ولكنني أنبه القارئ هنا إلى الفرق العجيب بين شهادة الله التي وضعها في عدن والشهادة التي لنا نحن الآن. فحين كانت الحياة تملأ الكون تكلم الله عن «الموت» وأما الآن إذ دخل الموت إلى العالم فإن الله يتكلم عن «الحياة». في ذلك الحين كانت كلمة الله «يوم تأكل منها موتاً تموت» أما الآن فالكلمة هي «آمن تخلص» (أع١٦:١٣) وكما حاول إبليس في جنة عدن أن يُبطل شهادة الله من جهة نتيجة الأكل من الشجرة المنهي عنها، هكذا الآن يحاول أن يُبطل شهادة الله من جهة نتائج الإيمان بالإنجيل. كانت كلمة الله حينئذ «يوم تأكل منها موتاً تموت» أما الحية فقالت «لن تموتا» والآن يقول الله صريحاً «الذي يؤمن بالابن فله حياة أبدية» (يو ٣:٣٦) ولكن الحية نفسها تحاول أن تقنع الناس أنه ليس لهم حياة أبدية، وأنه من العبث أن يؤمنوا بذلك أو يخطر على بالهم فكر كهذا إلا إذا اختبروا أولاً وشعروا أو عملوا كذا وكذا.

أما أنت أيها القارئ المحبوب فإذا لم تكن قد آمنت من قلبك بشهادة الله فها نحن نتوسل إليك أن تستمع لصوت الله، لا إلى همس الحية «من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يو٥:٢٤).

الأصحاح الثالث

في هذا الفصل من السفر المطروح أمامنا للتأمل فيه الآن، نرى هدم البناء الذي كنا نتفرس في جماله عند الكلام عن الفصلين السابقين. ولكن لنا فيه أيضاً مبادئ خطيرة لها شأن كبير، وإليه المرجع وفصل الخطاب في قضايا كثيرة من جهة سقوط الإنسان وعلاج الله، لأن فيه شرحاً لهذه الحقائق الجوهرية. فقد دخلت الحية وألقت الريب في وحي الله بما وسوست به في أذن حواء - وكان سؤالها مثالاً ينسج على منواله الكافرون في جميع أدوارهم كلما استخدمتهم الحية ليكونوا أعوانها الأمناء وسفرائها في هذا العالم - ونحن ليس لنا رد على أسئلتهم إلا بتعظيم شأن الوحي ورفع الكتاب المقدس بالاستشهاد به دون سواه.

«أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟» (٣: ١).

هذه هي الخدعة الشيطانية ومكر الحية، ولو كانت كلمة الله ساكنة بغنى في قلب حواء لكان جوابها صريحاً وسديداً وبسيطاً. والسبيل الوحيد الذي يجب أن نسلكه عندما تأتي لنا أسئلة أو وساوس كهذه شيطانية إنما هو كلمة الله نفسها، حينئذ نرمي بكل سؤال عرض الحائط. أما إذا مال القلب للوساوس ولو للحظة فالقوة التي لنا تفارقنا، لأن العدو لا يقول عن نفسه صريحاً إنه هو الشيطان عدو الله، أو إنه جاء للغواية، أو إنه رسول الشقاء. إذ ليس هذا من خداع إبليس في شيء ما ولكنه إنما أغوى حواء بما ألقاه في أذنها، إذ متى ساغ عندي الاستفهام «أحقاً قال الله؟» مع علمي أن الله هو الذي تكلم فأكون قد كفرت بأقواله؛ لأن نفس سكوتي عن رد السؤال يثبت عدم استطاعتي على دحض الافتراء. ولكن حواء أجابت بما يدل على أن حيلة الحية قد انطلت عليها لأنها لم تتمسك بأقوال الله كما هي بل زادت عليها من عندها.

ومن هنا نرى أن الذي يحذف كلمة أو حرفاً من كلام الله أو يزيد عليه كلمة أو حرفاً يبرهن على

أن كلمته لم تسكن فيه بغنى وأنها غير مالكة زمام قلبه وقيادة ضميره. أما الإنسان الذي يجد لذته في طاعته بحيث تكون أقواله هي طعامه وشرابه، وتكون حياته بكل كلمة تخرج من فم الله فلا شك أنه مهتم بدرس الكلمة وله بها إلمام ولهجه دائماً فيها. لذلك نرى الرب يسوع في مقاومته لإبليس يستشهد بالنص الإلهي بكل تدقيق لأن حياته كانت بكلام الله، وكانت الكلمة عنده ألزم من الخبز. فما كان ليخطئ عند سرد الشواهد الكتابية أو يظهر عدم اكتراث بها. أما حواء فإنها بعكس ذلك زادت من عندها على كلمة الله. فقد كانت الكلمة «لا تأكلا منها» أما هي فأردفت قولها «ولا تمساها» ولكن الله لم يقل تلك الجملة ولا هذا كلام الله بل كلام حواء. فهو لم يُشِر إلى مَس الشجرة مطلقاً. وسواء كان الباعث لها على هذا الخلط هو الجهل أو اللامبالاة أو الرغبة في إظهار الله في شكل مستبد في أحكامه فعلى كل حال إنها قد خرجت عن حد الخضوع الكامل والتسليم التام لكلمة الله المقدسة «بكلام شفتيك أنا تحفظت من طرق المعتنف» (مز١٧:٤).

وإذا تأملنا في الكتاب المقدس من أوله إلى آخره فإننا نرى تناسقاً كاملاً في أجزائه وعلاقة كبرى بين الكلمة والخضوع لها، ونحن يجب علينا أن نخضع للكلمة لمجرد كونها كلمة الله ليس إلا. والذي يشك في أقواله التي نطق بها فقد كَفَر. فنحن خلائقه وهو خالقنا له منا حق الخضوع، وعلينا واجب الطاعة له. ربما تصوَّر الكافر أن هذا يعد «تسليماً أعمى» أما المسيحي فيعتبره «خضوعاً عن فهم» لأنه عالماً بمن آمن، والكلمة التي يخضع لسلطانها هي كلمة الله، والذي ليس عنده كلمة الله هو بعد في ظلام وعمى طبيعي إذ لا يوجد فينا أو حولنا شعاع من النور إلا ومصدره كلمة الله الصافية الأزلية. فكل ما نحتاج أن نعرفه هو هل الله هو المتكلم، وحينئذ تصبح الطاعة عن فهم، لأنه متى ارتقت النفس إلى الله فقد بلغت أسمى مراتب السلطة. أما البشر ومجامعهم فليس لهم أن يطلبوا منا الخضوع لأقوالهم لمجرد كونها أقوالهم. وكل المجامع المسكونية والمنشورات البابوية ليس لها أقل سلطة في حد ذاتها. وإذا طلبت كنيسة رومية أو غيرها الخضوع لتعاليمها فتكون قد سلبت حق الله. والذين يخضعون لها سلبوا حق الله فهي تدّعي الوساطة بين الله والضمير ومن يتجاسر على قول كهذا؟ أما متى نطق الله فعلى الإنسان الخضوع وطوبى له إذا خضع ولكن ويل له إذا عصى. فالكفر هو الشك في أقوال الله، والتقليد هو رفع شأن أقوال البشر ووضعها حكماً بين الله والضمير. وكلاهما حرمان الإنسان من كلمة الله نفسها والنتيجة حرمانه أيضاً من بركات الطاعة والخضوع لها.

والبركة مقترنة دائماً بالطاعة أينما وُجدت. أما الشك فيلقِي الوساوس في النفس فيجد العدو له باباً ولا بد أن يدخل منه، ومتى دخل زادت شقة الخلاف والبعد بين تلك النفس والله. لذلك

نقرأ في هذا الفصل بعد قول الشيطان «أحقاً قال الله» أنه قال أيضاً «لن تموتا» ومعنى ذلك أن النفس التي تسمح لهواجس الشك أن تجول في بالها ينتهي بها الأمر أخيراً إلى رفض الكلمة. وهي حقيقة يتبين لنا منها الخطر الهائل الذي يتهدد التصريح لأقل شيء من الشك أن يطرق باب القلب من جهة كمال الوحي الإلهي وعصمته وسلطانه. واستخدام المنطق البشري مهما كان حسناً في الظاهر لا يختلف عن الكفر الصريح. والذي يتجاسر على مناقضة الكلمة أو الحكم فيها عقلياً ليس هو أفضل من منكر وجود الله، بل كلاهما على نفس الدرجة من الكفر. إذ لولا أن حواء أظهرت عدم مبالاة بالأمر الإلهي وتساهلت في أقواله لما وصلت إلى الإصغاء إلى الكفر الصريح، وهي كأنها تتثبت في الإيمان مع أنها في الكفر وقد بلغ بها الحال إلى مناهضة خالقها، لأن الكلمة لم يبق لها سطوة على قلبها وضميرها وذهنها.

وفي هذا عبرة بالغة لكل الذين هم في خطر الوقوع في فخ العقليين لأن سلامتنا ترتكز على الإيمان الشديد بعصمة الوحي وسلطان «كل الكتاب». ومتى تشبعت النفس من هذا الحق وجدت جواباً سديداً لكل اعتراض، سواء كان مصدره البابوية أو غيرها. «فليس تحت الشمس جديد» (جا ١:٩) ونفس ينبوع الشر العامل الآن في إفساد الحاسيات الدينية في كل أنحاء أوروبا، هو نفسه الذي أفسد قلب حواء في جنة عدن. وأول خطوة سارت بها إلى هوة السقوط إنما كانت في سماعها ذلك السؤال «أحقاً قال الله؟» ثم أخذت تهوي من مركزها إلى أن سلمت ذاتها للحية وخضعت لها، فأصبح الحق عندها هو ما قالت الحية، وصارت الحية إلهها. نعم أيها القارئ إن حواء استبدلت الله بالحية وصدقه بكذبها. هكذا كان الأمر في سقوط الإنسان الأول وهو شأن نسله الساقط. وكلمة الله ليس لها مركز في قلب الإنسان غير المؤمن. أما كذب الحية فله مكان. وإنك إذا امتحنت قلب ابن آدم لتجدن فيه متسعاً لقبول كذب الشيطان، أما حق الله فليس له موضع. ومن هذا نفهم معنى قول المسيح لنيقوديموس «ينبغي أن تولدوا من فوق» (يو٣:٧).

ويهمنا ملاحظة كيفية تأثير الحية على حواء في زعزعة ثقتها في حق الله والسير بها إلى التمسك بمبدأ «البرهان العقلي». فإن ذلك قد تم بواسطة إضعاف ثقتها أولاً في محبة الله إذ حاولت أن تثبت لها من وصية الله أنه لا يوجد فيها أثر من المحبة بقولها :

«الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر»(١:٥)

وكأنها بعبارة أخرى تقول «إن لكما خيراً من وراء الأكل من الشجرة التي نهاكما الله عن الأكل منها ليحرمكما من فوائدها. فلماذا تصدقان الله؟ أو لماذا تثقان في من لا يريد لكما الخير؟ إذ لو كان عنده محبة من نحوكما لما نهاكما عن التمتع بهذا الامتياز الجليل؟».

ولو كانت حواء قصدت أن تَسلم من تأثير مبررات عقلية كهذه لكان عليها أن تعتمد فقط على صلاح الله غير المحدود ولها أن تجاوب الحية بالقول «إن لي ثقة كاملة في صلاحه وجوده ويستحيل أن أصدق أن يمنع عني خيراً. ولو كان في ثمر تلك الشجرة خير لي لكان الله صرّح لي بالأكل منه. وفي تحريم الأكل منه بأمره دليل على أنه لا ينتج لي خير من ورائه بل شر. وأنا واثقة في محبة الله لذلك أثق بصدقه أما أنت فمنافقة لا تقصدين سوي إبعاد قلبي عن مصدر الجود والحق فأبعد عني يا شيطان». ولكن حواء لم تجب هكذا فضعفت ثقتها في محبة الله وتزعزع يقينها في صدقه، ولذلك خابت آمالها، ومن ذلك الوقت أخذت ثقتها في أقواله تتناقص وبالتبعية ثقتها في محبته لها، وهكذا القلب الذي لم يتغير بالروح القدس فإنه يظل بعيداً عن هذه وتلك.

وجدير بنا الآن أن نرمي بكذب الشيطان عرض الحائط من جهة محبة الله وصدقه، ونرجع إلى الرب يسوع المسيح الذي أتى من عند الآب لكي يعلن لنا الله «أما النعمة والحق (وهما الشيئان اللذان أضاعهما الإنسان في السقوط) فبيسوع المسيح صارا» (يو١:١٧)، وقد كان هو «الشاهد الأمين» لله (رؤ١:٥). الحق يعلن لنا الله كما هو في ذاته، ولكنه مقترن بالنعمة الكاملة، حتى متى رأى الخاطئ حقيقة نفسه أمام الله، وجد هناك أساس خلاصه الأبدي عوضاً عن هلاكه، فيفرح فرحاً لا يُنطق به ومجيد. لأن «هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو١٧:٣). ويستحيل أن أعرف الله بدون أن تكون لي حياة، لأن عدم معرفة الله موت وأما معرفته فحياة. وهذا مما يجعل الحياة بالضرورة غير متعلقة بنا بل بما هو الله، ومهما بلغنا من أمر معرفة ذواتنا فلا يُقال عن هذه إنها حياة أبدية، ومع أن معرفة ذواتنا مقترنة بمعرفة الله، لكن الحياة الأبدية مرتبطة بالثانية دون الأولى. وهذه هي الحياة الأبدية أن نعرف الله كما هو. وكل الذين لا يعرفون الله سيُعاقبون من أمام وجهه بهلاك أبدي.

ويحسن بنا أن نفهم أن الختم الذي يميز الإنسان هو جهله بالله أو عدم معرفته به، وعلى هذا يتوقف مركز المرء في الوقت الحاضر وفي الأبدية أيضاً. فإذا كان شريراً في أفكاره وفي أقواله وفي أعماله فذلك يدل على جهله بالله. أما من الجهة الأخرى إذا كان طاهر الفكر، سيرته مقدسة، حسن المعاملة فذلك نتيجة معرفته لله المعرفة الحقيقية العملية. وهكذا من جهة المستقبل أيضاً. فأساس كل بركة حاضرة وأساس كل مجد أبدي إنما هو معرفته لله كما أن عدم معرفته «هلاك أبدي». إذاً فمعرفة الله يتوقف عليها كل أمر، فيها حياة النفس، وطهارة القلب، وسلام الضمير، وسمو العواطف، ورُقي الحاسيات، وقداسة السيرة، وحسن السريرة.

فهل نستغرب بعد إذا وجدنا أن أقصى ما يريده الشيطان هو حرمان خليقة الله من معرفته

المعرفة الحقيقية العملية، وتصويره أمام عيونهم بلا محبة وبلا رأفة؟ إن هذا هو سر السقوط وأساس كل شقاء ومهما كانت الصورة التي تلبسها الخطية أو الثوب الذي ترتديه أو الباب الذي تدخل منه فإن سبب كل خطية وعلة كل ويل هو عدم معرفة الله. وإن أرقى الناس أخلاقاً وآداباً وأشدهم تمسكاً بأهداب الدين وأشهرهم تفانياً في حب الجنس البشري إذا لم يكن يعرف الله فهو متجنب عن الحياة بعيد عن القداسة الحقيقية بُعد العشارين والزناة. وعندما خرج الابن الضال من عتبة بيت أبيه اعتُبر أثيماً عنده كما حينما توغل ضلاله وصار يرعى الخنازير في تلك الكورة البعيدة (لو١٥:٣-١٥). هكذا الأمر مع حواء فإنها من حين تركت أحضان الله وابتعدت عن مركز الثقة الكاملة والخضوع الكلي لكلمته أصبحت في حكم الله قد سلّمت نفسها بجملتها للشيطان.

ثم في العدد السادس من هذا الفصل نرى ثلاثة أمور هي «شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظّم المعيشة» (١يو٢:١٦) وهذه الثلاثة كما يقول الرسول يوحنا هي «كل ما في العالم» وهذه الأشياء هي التي تمسك زمام الحياة عندنا فتتحول النفس عن الله. والذي لا يثبت في غبطة الثقة بمحبة الله وصدقه - في نعمته وأمانته - فلا بد له من الاستسلام لإحدى تلك الأمور الثلاثة أو كلها معاً، وهذه هي عبودية الشيطان. أو بعبارة أخرى لا يوجد في الحقيقة ما يقال عنه «حرية الإنسان المطلقة» فإما عبودية للشيطان أو تعبّد للّه.

والأسلحة الثلاثة التي يحارب بها الشيطان إنما هي «شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظّم المعيشة». وهذه هي التجارب الثلاث التي عرضها الشيطان على ربنا يسوع المسيح حين قاده إلى الجبل ليجربه، إذ كانت غايته في تجربته الأولى للإنسان الثاني إنما إضعاف ثقته في الله وتوكله عليه. «قل أن تصير هذه الحجارة خبزاً» (مت٤:٣). على أن هذه التجربة لم تكن كتجربة آدم الأول. ففي الحالة الأولى قصد آدم أن يأخذ غير مركزه أما هذا فلامتحان حقيقة أمره وإثبات شخصيته. ثم عرض عليه ممالك العالم أجمع بكل مجدها. وأخيراً صعد به إلى جناح الهيكل ووسوس إليه أن يلقي بنفسه إلى أسفل ليكون موضوع دهشة الجماهير الوقوف من تحت (قارن متى٤:١-١١ مع لوقا ٤:١-١٣). وغرضه في كل ذلك أن يجرّب ذلك الشخص المبارك عساه يحوله عن الطاعة الكاملة لله والخضوع التام لمشيئته. ولكن سعيه لم يفلح وضاعت آماله أدراج الرياح، لأن أجوبة ذلك الشخص الفريد في التوكل والاعتماد التام على الله دلت على أنه خالي تماماً من أي إرادة ذاتية بل متكل على ما هو «مكتوب». فإذا اعتمد غيره على ذواتهم بقى هو متوكلاً على الله لأن الله معتمده.

وفي هذا مثال بديع للمؤمن في جميع طرقه لأن الرب يسوع وثق بالكلمة المكتوبة وبها غلب العدو. وقد دخل ساحة الحرب وجال ميدانه ولم يكن معه سلاح سوي سيف الروح وبواسطته فاز

فوزاً عظيماً. أما آدم الأول فبعكس ذلك لأن هذا كان يحارب في صف الله وذاك ضد الله، مع أن ظروفهما لم تكن واحدة. فالأول كانت ساحة حربه جنة عدن بأطايبها أما الثاني فالبرية الناشفة بجدوبتها، ولكن الأول صدَّق الشيطان أما الثاني فقد صدَّق الله. وهكذا انتهى الأمر مع ذاك بالكسرة ومع هذا بالنصرة. ومبارك الله إله كل نعمة الذي جعل رجاءنا في رجل الحروب الذي انتصر والعظيم في الخلاص.

والآن نتأمل فيما اكتسبه أو عاد على آدم وحواء من مواعيد الحية العرقوبية. وهذا البحث يقودنا إلى مسألة ذات شأن لها علاقة بسقوط آدم. ذلك أن الله كان قد رتب أن الإنسان بواسطة السقوط يحصل على «ضمير» يميز به بين الخير والشر. وهذا الضمير لم يكن له قبل السقوط إذ لم يكن ممكناً لآدم أن يكون له ضمير لأنه لم يكن له علم بالشر. لأن الشر إنما عُرف بعد السقوط، وآدم لما خلقه الله كان في حالة الطهارة لا يعرف شيئاً عن الشر. إذاً الضمير وُجد بالسقوط ومنذ السقوط. وكانت باكورة أثمار الضمير أن آدم اختبأ وراء الأشجار من الخوف. لقد انخدعت حواء بقول الشيطان لها «تنفتح أعينكما وتصيران كالله عارفين الخير والشر» لأنه حذف شطراً مُهماً من الحق. لأنهما كانا مزمعين أن يعرفا الخير ولا استطاعة لهما على عمله ويعرفا الشر ولا قبل لهما على اجتنابه. فتطاولهما إلى رِفعة موهومة قادهما إلى فقد رِفعة حقيقية. وهكذا سقطا فأصبحا خائفين، أقل صوت يزعجهما فيوبخان من الضمير وهما واقعان تحت سلطان الشيطان. نعم إن أعينهما قد انفتحت ولكن ماذا أبصرا سوى عريهما وخزيهما؟ فأعينهما انفتحت ليريا ما وصلا إليه من الشقاء والبؤس والفقر والعمى والعري، وهكذا علما «أنهما عريانان» هذا هو ثمر شجرة معرفة الخير والشر المر. فهما لم يعرفا شيئاً جديداً عن مجد الله وجلاله ولا أبصرا شعاعاً جديداً من نوره وبهائه السرمدي. بل إن أول ثمرة جنياها من وراء تطاولهما إلى إدراك المعرفة، من غير بابها، بدخول باب العصيان، كانت معرفتهما بأنهما «عريانان».

ويحسن بنا أن ندرك هذا الحق جلياً ونفهم عمل الضمير داخلنا عالمين أنه إنما يزيدنا جبناً وخوفاً. فبه نعرف ما نحن في ذواتنا. وكثيرون جَهلوا هذه الحقيقة حاسبين أن الضمير يُقرّبهم إلى الله. ولكن هل الضمير قرّب آدم وحواء من الله؟ أبداً ولا أي خاطئ مهما كان. لأنه كيف يمكن أن تكون معرفتي لذاتي واسطة قربي من الله ما لم يصحبها الإيمان بما هو الله. إن الضمير وحده لا يُولّد سوى التأنيب والتوبيخ والخزي وكآبة النفس والشعور بالعري. نعم قد يكون من نتائجه محاولتي إصلاح أمري وستر عيوبي التي انكشفت لي، ولكن مساعيَّ لا تدوم بل وتصبح حائلاً دون رؤية الله، وعوضاً عن تقريبي إليه تزيدني بُعداً على بُعد فلا أعود أبصره. وهذا كان الحال مع آدم

وحواء اللذين حين شعرا بعريهما أخذا يستران نفسيهما فخاطا من أوراق التين مآزر واتزرا بها.

وهنا نقرأ عن أول سعي من قِبل الإنسان لإصلاح أمره بنفسه. والتأمل بتروٍّ في هذا فيه تعليم ثمين وإيضاح حقيقة الديانات البشرية على اختلاف نزعاتها في كل العصور. وأول شيء نلاحظه أن سعي الإنسان (لا آدم وحده بل كل بني آدم) وراء إصلاح حاله مبني على شعوره بعريه. فهو مُعترِف أنه عريان والمساعي التي يبذلها إنما هي نتيجة ذلك الشعور. ولكن هيهات أن يجديه ذلك نفعاً. إذ يجب أن أكون لابساً مستوراً ومقبولاً لدى الله قبل أن أقدم إليه شيئاً أو أعمل ما يرضيه.

ومن هذا يتضح الفرق بين المسيحية وبقية الديانات البشرية. فالمسيحية تقدم للإنسان أولاً اللباس (الحلة الملوكية) ليلبسه. أما بقية الديانات فتطلب منه أن ينسج لباسه لستر عريه. فالأولى تبتدئ حيث تنتهي الثانية، وغرض هذه أساس تلك والمسيحي الحقيقي يعمل لأنه مستور. قد تغطي تماماً. أما المتدين بغير المسيحية فيعمل عساه أن يُستَر. وهنا فرق عظيم. وكلما تأملنا فيما وصل إليه دين الإنسان بكل صوره كلما ازددنا يقيناً في عدم كفايته لإصلاح شأنه ولو بمقدار تصوره وشعوره. نعم إنه قد يغنيه إلى حين، أو يظن فيه الكفاية إلى أجل قصير، لأنه لا ينظر إلى الموت والدينونة وغضب الله إلا عن بُعد. ولكنه متى وقف مع نفسه وواجه هذه الحقائق وجد من دينه فراشاً أقصر من أن يمدد رجليه عليها، ورداء أقصر من أن يستره، ولحافاً أضيق من أن يغطيه. لأنه بمجرد أن سمع آدم صوت الرب الإله وسط الجنة خاف وسبب ذلك كما اعترف هو نفسه أنه «كان عرياناً». وقد شعر أنه عريان مع أنه كان متزراً بأوراق التين ومن هنا يتضح أن تلك المئزرة لم تكن لتقنع ضميره، ولولا وخز وتأنيب الضمير لما خاف، «إن لم تلمنا قلوبنا فلنا ثقة من نحو الله» (١يو٣:٢١).

وما دام الضمير نفسه لا يستريح على ممارسة الطقوس البشرية فكم بالأولى قداسة الله. إن مئزرة آدم لم تكن كافية لستره من أمام وجه الله. لذلك علم أنه عريان فاختبأ وراء الأشجار. وهذا هو فعل الضمير في جميع الأحوال، فهو يقود الإنسان إلى الابتعاد عن الله، وفضلاً عن ذلك فإنه يدفع الإنسان إلى أن يبذل مساعي تحول دون رؤية الله فلا يراه. وهذا هو منتهى الغرور، إذ لابد له من الوقوف يوماً أمام وجهه. ومادام أنه لا يفتكر إلا في ذاته فلابد من الخوف، وويل له حينئذ. ولا يكمل مكيال شقائه سوى الطرح في جهنم النار وهي نصيب كل الذين يعرفون أنفسهم ولكنهم لا يتعدون تلك المعرفة وأنهم ليسوا أهلاً للقاء العزة الإلهية.

ولو كان آدم قد عرف محبة الله الكاملة لما وُجد عنده شيء من الخوف لأنه «لا خوف في المحبة. بل المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج لأن الخوف له عذاب. وأما من خاف فلم يتكمل في المحبة» (١يو٤:١٨) وآدم لم يعرف تلك المحبة لأنه صدّق كذب الحية، ولم يعرف أن الله محبة. لذلك لم يجسر

على الدنو من الله واختبأ من وجهه لأنه خَشيه، لأنه وُجدت هناك خطية والله والخطية لا يجتمعان. وحيث وُجد على الضمير خطية فلابد من الشعور بالبعد عن الله، «عيناك أطهر من أن تنظرا الشر ولا تستطيع النظر إلى الجور» (حب١:١٣). والخطية والقداسة لا يتفقان معاً بل حيث توجد الخطية فهناك يستقر غضب الله.

ولكن مبارك اسم الله إذ يوجد شيء آخر خلاف معرفتي بما هو أنا، وذلك هو إعلان ما هو الله. الأمر الذي ظهر أيضاً في نفس سقوط الإنسان. لأن الله لم يعلن ذاته تماماً في الخليقة. نعم إن أموره غير المنظورة تُرى منذ خلق العالم مُدرَكَة بالمصنوعات السرمدية ولاهوته* ولكن أعماق أسرار طبيعته وصفاته لم تعلن في ذلك.

ومن هنا نجد أن الشيطان قد ارتكب خطأً كبيراً بتداخله في شئون خليقة الله إذ ألقى نفسه بيده إلى التهلكة والسقوط الأبدي. والمصيبة إنما حلّت على رأسه وحده. وبكذبه صارت فرصة لإعلان حق الله الكامل. فالخليقة وحدها ما كان في وسعها إعلان ملء الله. لأنه لم تكن عنده قوة وحكمة فقط بل محبة ورحمة وقداسة وبر وصلاح ولطف وطول أناة، وهذه الصفات لا تتجلى إلا في عالم خطاة. ففي البدء نزل الله ليخلق ولكن لما تداخلت الحية في شأن الخليقة نزل الله ليخلص. ذلك واضح من كلام الرب الإله لآدم عقب السقوط مباشرة «فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت؟» ونستفيد من هذا السؤال أمرين: أولهما أن الإنسان قد سقط وثانيهما أن الله متنازل لانتشاله وفي هذه العبارة القصيرة نرى خطية الإنسان ونعمة الله.

«أين أنت» (٩:١)

وما أكثر جود الله، بل ما أغزر نعمته وأمانته. أما أمانته فلأنه كشف بالسؤال حقيقة حال الإنسان. وأما نعمته فظاهرة في الأسلوب الذي قدم به السؤال. وهكذا أعلن في هذا السؤال صفاته وحاسياته من نحو الإنسان الساقط. فالإنسان قد ضلّ. وها هو الله متنازل للسؤال عنه ليرده، إلى سعادة ثقة الإيمان، من وراء شجر الجنة، لكي يبيت في ستر العلي، وهذه هي النعمة.

إن خلق الإنسان من تراب الأرض يدل على قدرة الله، لكن رده بعد سقوطه دليل نعمته، ومن يستطيع أن يوضح أو يُعبّر عن المعاني التي تحويها صفات الله وهو يطلب الإنسان - الله القدوس مفتشاً عن الإنسان كخاطئ، وماذا رأى ذلك الأقنوم المبارك حتى جاء ليطلب من قد هلك. إن الرب

* توجد فائدة في مقارنة اللفظتين اليونانيتين المترجمتين بكلمة (لاهوت) في اللغة العربية لأن المعنى في الحالتين ليس واحداً. فلفظة (ثييوديس) الواردة في رومية١:٢٠ تشير إلى صفات الله التي تفوق العقل البشرى التي يراها الوثنى ظاهرة في المصنوعات فيعرف منها وجود الله. وأما لفظة (ثيوديس) الواردة في كولوسي٢:٩ فتشير إلى كون اللاهوت غير المدرك الجوهر قد حلّ في شخص الابن المعبود.

نفسه قد شرح ذلك بمَثل الراعي والخروف الضال أو المرأة والدرهم المفقود أو الأب والابن الشارد فأظهر بذلك قيمة الخاطئ لدى الله الذي سينكشف لنا بوضوح في الأبدية.

وماذا كان جواب الإنسان على سؤال الله المبارك الصادق الرؤوف؟ إن جوابه بكل أسف أوضح سر سقوط الإنسان «فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت. فقال من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها. فقال آدم المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت». وهنا نرى آدم يلقي مسئولية سقوطه المُشين على الظروف التي وضعه الله فيها، وكأنه بذلك يستذنب الله نفسه. وهذا هو شأن الإنسان الساقط دائماً، فهو يضع اللوم على كل واحد وعلى كل شيء ما عدا نفسه. أما إذا تاب توبة حقيقة، فإنه يظهر عكس ذلك قائلاً: «أنا أخطأت» وهذا هو لسان حال النفس المتواضعة حقاً. ولو كان آدم فهم حقيقة نفسه لكان غير لهجته، ولكنه لم يعرف نفسه ولا عرف الله، لذلك عوضاً عن استذناب نفسه استذنب الله.

ومن هنا نرى الحال الذي وصل إليه آدم فقد أضاع كل ما كان له من سلطان وجلال وسعادة وطهارة وبراءة وسلام، وأردأ من ذلك أنه أتهم الله بكونه سبب هذا الويل والشقاء* هذا هو الإنسان الشقي الهالك الأثيم لا يكفيه أنه يبرر ذاته بل يستذنب الله أيضاً.

على أن الله في نفس هذا الموقف أخذ يعلن ذاته ويكشف عن نوايا محبته الفدائية واضعاً للإنسان أساس سلامه وغبطته الحقيقية، وهكذا نري الله دائماً يمد يده لإظهار ذاته متى ظهر إفلاس الإنسان، وأقر بعجزه وليس قبل ذلك. إذ يجب أن يتخلى الإنسان عن كل ادعاء باطل ومحاولة كاذبة ودفاع عاطل حتى يتداخل الله لإعلان ذاته. وهكذا كان الحال مع آدم فإنه لما توارى

* ولم يكتف الإنسان بإلقاء تبعة السقوط على الله بل نراه أيضاً يلومه لأنه لم يرجعه إلى مركزه، وكم مرة سمعنا البعض يقولون إنهم لا يستطيعون أن يؤمنوا ما لم يعطهم الله القوة ليؤمنوا. وإنه لا يمكنهم أن يخلصوا إلا إذا كانوا من ضمن المختارين ولهم نصيب في مشورة الله ومقاصده الأزلية.

صحيح أن الإنسان لا يمكنه أن يؤمن بالإنجيل إلا بقوة الروح القدس وكل الذين يؤمنون بالإنجيل هم موضوع مقاصد الله الأزلية المحتومة. ولكن هل هذا يبطل مسئولية الإنسان من جهة الإيمان بشهادة كلمة الله الصريحة؟ كلا، بل إن هذا يعلن رداءة وشر قلب الإنسان الذي يقوده إلى رفض شهادة الله الواضحة في كتابه العزيز مستنداً على مشورات الله المكتومة عنه التي لا يعلمها سوي الله نفسه. ولكن هذا العذر لا يفيد لأننا نقرأ في ٢تسالونيكي١: ٨، ٩ عن «الذين لا يطيعون إنجيل ربنا يسوع المسيح الذين سيعاقبون بهلاك أبدي من وجه الرب». فالناس مطالبون بإطاعة الإنجيل وإلا عوقبوا لعدم الإيمان به. فلا يطلب منهم أن يعرفوا شيئاً عن مشورات الله التي لم يعلنها لهم، ولا الجهل بها يُعد ذنباً، ولكن مع ذلك يقول الرسول لكنيسة تسالونيكي «عالمين أيها الإخوة المحبوبون من الله اختياركم» فكيف تسنى له معرفة ذلك؟ هل اطلع على سفر مقاصد الله ومشوراته الأزلية؟ حاشا فكيف إذن عرف؟ يقول «إنجيلنا لم يصر لكم بالكلام فقط بل بالقوة أيضاً» (١تس١: ٤، ٥) وبهذا يعرف الاختيار متى قُبل الإنجيل بالقوة. هذا هو برهان اختيار الله.

أنا لا أشك أن أولئك القوم الذين يرفضون شهادة الله بحجة عدم الاختيار، إنما يطلبون لأنفسهم عذراً للبقاء في الخطية، وفي حقيقة الأمر هم لا يريدون الله. هؤلاء كان أشرف لهم لو قالوا بصريح العبارة ما يقصدون أولى من تقديم حجة تافهة فيها كفر بالله. إن تلك المراوغة لن تنفعهم يوم الدين وموعده قريب.

وراء أشجار الجنة أعلن الله له سر الفداء العجيب بواسطة نسل المرأة الذي يسحق رأس الحية واضعاً لنا مبدأ صحيحاً تتوقف عليه سعادة الإنسان وسلامه وثقته وتمتعه بوجه الله.

سبق لنا القول أن الضمير من ذاته لا يولد هذه النتائج، فإنه كان سبب التجاء آدم للاختباء وراء أشجار الجنة. أما كلمة الله فهي التي كانت سبب اقترابه منه. فشعوره بحقيقة ذاته جلب له الخوف. أما إعلان حقيقة الله فقد هدأ خوفه. وفي هذا تعزية لقلب الخاطئ المسكين. ومتى اجتمعت حقيقة ما هو الله بحقيقة من أنا فهذا هو الخلاص.

ولابد من هذا الموقف يوماً ما فإما في يوم النعمة وإما في يوم الدين ولابد من يوم يواجه الإنسان فيه الله فيظهر ما هو الإنسان وما هو الله، وطوبى للذين يقفون هذا الموقف الآن في يوم النعمة، ويا ويل الذين سيدركهم موقف يوم الدين إذ لابد أن يقضي الله علينا بحسب ما تقتضيه صفاته. وعند الصليب أعاين الله متنازلاً بالنعمة إلى أعماق أحوالي الإيجابية والسلبية كخاطئ وفي هذا السلام التام. لأنه إذا كان الله هو الذي أدركني في المركز الذي وصلت إليه وبنفسه قدم العلاج الكافي فقد انتهى كل أمر. ولكن كل الذين لا يعاينون الله بالإيمان بهذه الصورة على الصليب فلا بد وأن يقابلوه يوم القضاء وتكون دينونته لهم بحسب ما هو في ذاته وبحسب أعمالهم في ذاتها.

والإنسان الذي يصل إلى معرفة هذه الحقيقة لا يهدأ له بال إلا متى شاهد الله بنفسه عند الصليب فيستريح على الله نفسه. وهو تبارك اسمه سند وحمى لنفس المؤمن. هذا ما يضع الأعمال الإنسانية والبر الإنساني في مكانها الطبيعي. ويمكن لنا أن نجزم في القول حقاً إن الذين يستندون على أمور كهذه لا يستطيعون الوصول إلى حقيقة معرفة ذواتهم، إذ يستحيل على الضمير الذي استنار بنور الله أن يستريح على غير ذبيحة ابن الله. والذين يحاولون إثبات برِهم الذاتي إنما يجهلون بِر الله. وكان يمكن لآدم أن يستنتج من شهادة الله عن «نسل المرأة» إن مآزر أوراق التين لا تستر أبداً لأن جسامة العمل الذي كان ينبغي أن يُكمَل تدل على عجز الإنسان الخاطئ بالكلية عن إتمامه. فالخطية كان يجب أن تُمحى. وهل كان في استطاعة الإنسان ذلك؟ كلا إذ كان هو سبب دخولها إلى العالم. وكان يجب أن تسحق رأس الحية فهل كان في قدرة الإنسان ذلك؟ أبداً لأنه كان قد استُعبد لها. وكان يجب إبقاء مطاليب عدل الله فهل كان ذلك في وسع الإنسان؟ أبداً لأنه كان قد داسها تحت قدميه وكان ينبغي أن يُباد الموت فهل كان في طاقة الإنسان ذلك؟ أبداً لأنه كان بواسطة الخطية قد أدخل الموت وأعطى له شوكته المُرّة.

من هنا إذا قلبنا المسألة من أي وجه يتضح لنا عجز الإنسان الخاطئ عجزاً كاملاً. ومن هذا ينتج أن كل مساعي البشر لإضافة شيء على عمل الفداء العظيم إنما تدل على غباوة فاضحة، وما أجهل

كل الذين يحسبون أنهم يخلصون بأية واسطة أخرى إلا «بالنعمة... بالإيمان».

ومع أن آدم كان في إمكانه أن يرى - وبالنعمة قد رأى وشعر - أنه ليس في وسعه أن يُكمل ما يجب عمله، إلا أن الله قد أعلن ذاته كمن هو مزمع أن يُكمل بواسطة نسل المرأة كل موعد. وبالاختصار تعهد الله أن يأخذ على عاتقه إتمام كل أمر ولهذا جعل القضية بين الحية وبين شخصه مباشرة. لأنه وإن كان قد كلّف الرجل والمرأة أن يحصدا ثمر خطيتهما المُرّة بطرق متنوعة إلا أن قوله «لأنك فعلت هذا» قد وجهه الرب الإله للحية فقط. فالحية كانت أصل الشقاء وأما نسل المرأة فكان مزمعاً أن يكون أصل الفداء، سمع ذلك الوعد وآمن به. وبقوة ذلك الإيمان «دعا اسم امرأته أم كل حي» هذا هو ثمر الإيمان بكلمة الله الثمينة لأننا لو تأملنا في القضية من الوجه الطبيعي لكان يمكن أن تُدعى حواء «أم كل ميت» ولكنها في نظر الإيمان كانت «أم كل حي» كما دعت راحيل ابنها «بن أوني» (ابن حزني) وأما أبوه فدعاه بنيامين (ابن يدي اليمين).

وبقوة الإيمان أمكن لآدم أن يحتمل بالصبر نتائج ما صنعه. وكان من رحمة الله العجيبة أنه سمح له أن يسمع ما قاله للحية قبل أن يدعوه ليسمع ما قاله عن نفسه. ولولا ذلك لكان آدم وقع في أحبولة اليأس. لأني متى دعيت إلى التأمل في ذاتي ولم يكن في وسعي النظر إلى الله كما أعلن ذاته عند الصليب لأجل خلاصي فذلك هو اليأس بعينه. ولا يمكن لابن آدم الساقط الذي انفتحت عيناه ليبصر حقيقة ما هو في ذاته وصفاته أن يتخلص من الوقوع في اليأس إلا إذا التجأ إلى الصليب. إذاً فالمكان الذي ينحدر إليه كل الذين يرفضون المسيح الآن لا يوجد فيه رجاء. لأن الإنسان هناك سيبصر حقيقة أمره وماضي أفعاله فيتحسر ولا مناص له ولا حمى في الله. حينئذ يكون الله سبب هلاك أبدي بلا رجاء، كما أنه الآن سبب خلاص أبدي لما هو في ذاته. لأن قداسة الله تقوم في ذلك الحين ضده إلى أبد الآبدين مع أنها هي التي قد دعى جميع المؤمنين لأن يتمتعوا بها الآن. وكلما عرفت عن قداسة الله أكثر كلما ازددت علماً بثبات مركزي. أما الهالكون فنفس تلك القداسة ستكون سبب هلاكهم الأبدي وما أصعب التأمل في هذا وأهواله.

والآن نتأمل بالاختصار في الحقيقة التي يعلنها لنا الله بإلباس آدم وحواء الأقمصة الجلدية.

«وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصة من جلد وألبسهما» (٣: ٢١).

ولنا في هذا الأمر إشارة إلى البر الإلهي فالرداء الذي صنعه الله كان هو الغطاء الواقي لأنه هو صنعه، كما أن المآزر التي خاطها الإنسان لم تستره لأنها صنعة الإنسان وفضلاً عن ذلك إن الثوب الذي صنعه الله أسسه على سفك الدم أما المئزرة فلم تكن كذلك. وهكذا الآن بر الله قد ظهر بالصليب أما بر الإنسان فبالأعمال - الأعمال الملوثة بالخطية - عمل يديه. وعندما لبس آدم القميص الذي من

جلد لم يستطع أن يقول «إني عريان» ولا خطر على باله أن يختبئ وراء الأشجار. وهكذا الخاطئ الذي يعلم بالإيمان أن الله قد ألبسه ذلك القميص فإنه يشعر بالراحة الكاملة أما القول بوجود راحة بدون ذلك القميص فإدعاء باطل ومحض جهالة لأني متى علمت أن الثوب الذي لبسته وأنا ظاهر به أمام الله هو من صنع الله فلابد أن يستريح بالي ولا توجد راحة حقيقية في غيره أبداً.

ولنا في الأعداد الأخيرة من هذا الفصل تعاليم جمة. فالإنسان الساقط وهو في حالة السقوط لا يصح له أن يأكل من ثمر شجرة الحياة لأن ذلك يؤدي به إلى مكابدة العناء في هذا العالم إلى ما لا نهاية لأن الأخذ من شجرة الحياة والأكل من ثمرها يجعل الإنسان يحيا إلى الأبد في حالته الحاضرة، وفي هذا منتهى الشقاء. إن شجرة الحياة لا يمكن أن نأكل منها إلا بعد القيامة. أما إذا كنا نبقى خالدين في هذه الخيمة الضعيفة أو في جسد الخطية والموت فذلك ما لا يطاق. ولذلك فإن الرب الإله طرد آدم من الجنة، أخرجه منها ليدخل العالم حيث يحصد نتائج السقوط المحزنة. وأقام الكروبيم ولهيب السيف المتقلب لحراسة طريق شجرة الحياة لكي لا يأكل الإنسان من ثمرها، ثم أعلن له موت وقيامة نسل المرأة كمن له الحياة التي لا يسود عليها الموت.

وهكذا أصبح آدم خارج حدود الجنة أسعد وأضمن حالاً مما لو بقى داخلها، وذلك لأن سعادته داخل الجنة كانت متوقفة على شخصه أما خارجاً فتعلقت على آخر الذي هو المسيح الموعود به. وكان كلما رأى الكروبيم والسيف المتقلب يبارك اليد التي أقامتهما «لحراسة طريق شجرة الحياة» لأنها في الوقت نفسه فتحت أمامه طريقاً أفضل وأضمن وأسعد إلى تلك الشجرة، وإذا كان الكروبيم ولهيب السيف المتقلب قد أقاموا سداً أمام طريق الجنة فإن الرب يسوع المسيح قد فتح لنا «طريقاً حديثاً حياً» إلى قدس الأقداس «أنا هو الطريق والحق والحياة. ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي» (قارن يو١٤:٦، عب١٠:٢٠). والمؤمن الذي له هذه المعرفة يسير مطمئناً في وسط عالم موضوع تحت اللعنة ملآن بآثار الخطية من كل جانب لأنه وجد بالإيمان طريقاً إلى حضن الآب يركض إليه في الخفاء فيستريح وهو واثق ومطمئن أن الرب يسوع الذي أتى به إلى هذا المركز قد ذهب لكي يعد له مكاناً في بيت الآب ومتى أعد المكان يأتي ثانية ليأخذه إليه في مجد ملكوت الآب وهكذا يجد المؤمن في حضن وبيت وملكوت الآب نصيبه في الوقت الحاضر وموطنه الأبدي وجزاءه في المستقبل.

الأصحاح الرابع

إننا كلما قلبنا صفحة من سفر التكوين انفتح أمامنا باب موضوع جديد، ويجدر بنا أن نسمي هذا السفر كما قال عنه أحد الكتاب المعاصرين «مستودع بذار الكتاب المقدس جميعه» بل إن فيه أصول تاريخ الإنسان كله.

وفي الفصل الرابع أمامنا نموذج الإنسان العالمي المتدين، ورجل الإيمان الصحيح في شخصي قايين وهابيل. وبما أنهما كليهما قد وُلِدا خارج الجنة من آدم الساقط فلم يكن بحسب الطبيعة فيهما ما يميز أحدهما عن الآخر في شيء ما. فكلاهما كانا خاطئين، وكلاهما ورثا الطبيعة الفاسدة، وليس بينهما من هو طاهر. هذا ما يجب فهمه جيداً إذا أردنا أن نفهم معنى نعمة الله وقوة الإيمان فهماً جلياً. لأنه إن كان بين قايين وهابيل فرق طبيعي فينتج من ذلك ولا محالة أنهما لم يشتركا في طبيعة أبيهما الساقطة ولا في نتائج السقوط ولا يكون هناك محل للنعمة ولا موضوع للإيمان.

يحاول البعض أن يعلمنا أن كل إنسان يولد عنده استعداد ومَلَكة فطرية تؤهلانه إذا أحسن استعمالهما إلى الوصول إلى الله. ولكن تعليماً كهذا يناقض على خط مستقيم الحقائق الواضحة في القصة المطروحة أمامنا الآن. فقايين وهابيل لم يولدا داخل الجنة بل خارجها، ولم يكونا ابني آدم الطاهر بل الساقط، وقد دخلا العالم ولهما شركة في طبيعة أبيهما الفاسدة مهما كان شكلها الذي ظهرت به - فهي طبيعة ساقطة فاسدة لا يمكن إصلاحها «المولود من الجسد جسد هو (وليس فقط جسدياً) والمولود من الروح هو روح (لا روحي فقط)» (يو٣:٦).

ولو كان هناك فرق في الاستعداد الطبيعي أو الملكة الفطرية أو الأميال الأصلية لظهر في تاريخ حياة قايين وهابيل المعروض أمامنا، ولو كان في طبيعة الإنسان ما يؤهله لاسترجاع الطهارة التي كان بها والعودة إلى الجنة التي طُرِد منها فهذا هو الوقت الذي كان ينتظر أن يظهر فيه. ولكن لم يظهر شيء من ذلك. فكلاهما كانا هالكين وكلاهما كانا جسداً ولم يكونا طاهرين. لأن آدم

فقد طهارته ولم يسعه أن يستردها، ولا يمكن اعتباره سوي رأس جنس ساقط، إذ «بمعصيته» جُعل الكثيرون «خطاة» (رو١٩:٥). وبالنسبة إلى شخصه أصبح ينبوع فساد تخرج منه مجاري فاسدة وبشرية أثيمة هالكة الأصل الذي منه يتفرع جنس ميت روحياً وأدبياً.

صحيح أنه هو كما رأينا دخل تحت دائرة النعمة وقبل إيماناً حياً بالمخلّص الموعود به، ولكن هذا لم يكن منه بل من الله. وكما أن ذلك لم يكن منه فلم يكن في وسعه أن يورثه لأولاده، ولا استطاع أن يمنحه إلى قايين أو هابيل. فالإيمان الذي اقتناه كان ثمر محبة الله، وقد أودع في قلبه بقوة الله، ولم تكن له قوة ليُنعم به على سواه. أما ما كان لآدم بحسب الطبيعة فهذا كان يتوارثه أبناؤه طبيعياً ليس إلا. وبما أنه كأب كان هالكاً فأولاده كذلك، لأنه كما الوالد هكذا المولود منه. ومن الضروري أن يرث الأبناء الطبيعة التي ولدوا منها «كما هو الترابي هكذا الترابيون أيضاً» (١كو٤٨:١٥).

ولا يوجد الآن أهم من فهم مبدأ ومعنى «رأس الجنس». وإذا راجع القارئ معنا رومية ١٢:٥-٢١ فإنه يَقرأ هناك عن رأسين للخليقة كلها. ولكني لا أقصد الإسهاب في شرح هذا الموضوع وإنما أشير إليه فقط في عرض الكلام عن الرأس. وفي ١ كورنثوس ١٥ تعليم يوافق هذا الموضوع. ففي آدم الأول لنا الخطية والمعصية والموت وأما في آدم الأخير فلنا البر والطاعة والحياة. وكما أننا نشترك مع الأول في طبيعته هكذا مع الثاني. ولا شك أنه في كل موقف خاص، سوف تظهر كل طبيعة من الإثنين إمكانياتها الخاصة وطاقتها وقوتها في كل شخص بمفرده. ولكن يظل المبدأ هو إمتلاك هذه النوعية من الطبيعة أو تلك بصفة مطلقة بإمكانياتها النشطة.

وكما أننا نشترك في طبيعة آدم الأول بالولادة الطبيعية هكذا نشترك في طبيعة آدم الأخير بالولادة الجديدة. فبالولادة الطبيعية لنا شركة في الطبيعة الأصلية وبالولادة الثانية لنا شركة في الطبيعة الجديدة. والطفل المولود حتى إذا لم يكن قادراً على أن يرتكب العمل الذي أدى بآدم إلى السقوط، يعتبر شريكاً له في طبيعته. وهكذا المولود من الله - النفس المتجددة فعلاً - وإن لم يكن له شأن في طاعة «الإنسان يسوع المسيح» الكاملة فهو يعتبر شريكاً له في طبيعته. نعم إن الطبيعة الأولى مقترنة بالخطية والطبيعة الثانية مقترنة بالبر، ولكنها في الأولى خطية الإنسان وفي الثانية بر الله. وعلى كل حال، مهما تكن النتائج وظهورها، فهناك مشاركة حقيقية كاملة لطبيعة حقيقية. فابن آدم يشترك في طبيعته الإنسانية بكل متطلباتها وابن الله يشترك في طبيعته الإلهية بكل متطلباتها. الطبيعة الأولى هي «من مشيئة رجل» (يو١٣:١) وأما الطبيعة الثانية فمن مشيئة الله، أو كما يقول الرسول يعقوب بالروح القدس «شاء فولدنا بكلمة الحق» (يع١٨:١).

مما مر بنا يتضح أن هابيل لم يمتز عن أخيه قايين بحسب الطبيعة في شيء ما، والفرق الذي

كان بينهما لم يكن بالنسبة لظروفهما واستعدادهما الفطري لأنهما في هذا «لا فرق»، فأين كان الفرق إذاً؟ إن الجواب على هذا السؤال بسيط جداً في إنجيل نعمة الله. فالفرق لم يكن في شخصيهما بل في «قرابينهما». والخاطئ التائب حقيقة يجد هذا القول بسيطاً جداً متى شعر، ليس فقط بأنه ورث طبيعة فاسدة، بل هو أيضاً خاطئ. وتاريخ هابيل يفتح أمام هذا الشخص باب الدنو من الله والوقوف أمامه والاشتراك معه. فيتعلم منه أنه لا يمكنه الدنو من الله بسبب أي شيء في طبيعته بل يجب أن ينظر إلى شيء مستقل عنه فيعتمد على شخص آخر هو المسيح وعلى عمله الكفاري ليكون له حق الدنو من الإله القدوس البار الحقيقي وحده. والأصحاح الحادي عشر من العبرانيين يشرح لنا هذا الموضوع بكل وضوح «بالإيمان قدّم هابيل لله ذبيحة أفضل من قايين. فبه شُهد له أنه بار إذ شهد الله لقرابينه. وبه وإن مات يتكلم بعد» (ع٤) ومن هنا نتعلم أن المسألة ليست في الأشخاص بل في القرابين، ليس من قدم بل ما قدم؛ وهنا الفرق بين قايين وهابيل. وعلى القارئ أن يتثبت من هذه الحقيقة جيداً لأن فيها الحق من جهة الخاطئ ومقامه أمام الله.

لنسأل الآن عن القرابين التي قدماها.

«وحدث من بعد أيام أن قايين قدم من أثمار الأرض قرباناً للرب. وقدّم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب إلى هابيل وقربانه. ولكن إلى قايين لم ينظر» (٣:٤-٥).

هذه الجملة تكشف لنا الفرق جلياً. فقايين قدّم للرب من أثمار الأرض الملعونة، قدّم «قرباناً غير دموي» لأنه لم يكن عنده إيمان، ولو كان له إيمان بهذا المبدأ لأدرك حتى في ذلك الحين أنه «بدون سفك دم لا تحصل مغفرة» (عب٩:٢٢) وهذا هو الحق الجوهري أن أجرة الخطية موت، وقايين كان خاطئاً وكخاطئ كان الموت بينه وبين الله. إلا أنه بقربانه لم يعترف بذلك ولا قدّم قرباناً فيه سفك دم لإيفاء مطاليب عدل وقداسة الله كما يليق به كخاطئ. بل قد أتى إلى الله كأنه إنسان نظيره يقبل أثمار الأرض الملطخة بالخطية المضروبة باللعنة.

هذا كله وأكثر منه متضمن في ذلك القربان غير الدموي، الذي أظهر فيه قايين جهله بمطاليب الله بالنظر إلى ذاته وصفاته كخاطئ هالك أثيم لذلك تجاسر أن يقدم من تلك الأثمار. لا ريب أن العقل يتصور أنه «لا يوجد قربان أفضل من تعب الإنسان بيديه وعرق جبينه» هذا ما يتصوره العقل ويقول به الدين البشري أما الله فلا يقول ذلك، والإيمان يتفق مع الله في الفكر. لأن الله يعلمنا وبالإيمان نقبل التعليم بأننا لا يمكن أن ندنو من الله بدون ذبيحة دموية.

وهكذا حين نتأمل في خدمة الرب يسوع نرى أنه لولا موته على الصليب لما كان لكل خدماته فائدة من جهة علاقتنا بالله. نعم إنه كان يجول صانعاً خيراً كل حياته ولكن موته فقط هو الذي شق

الحجاب (مت٢٧:٥١)، ولو كان بقى جائلاً بين الناس صانعاً خيراً إلى اليوم لبقى الحجاب حائلاً دون دنو الساجدين من الله إلى «الأقداس» ومن ثم نرى بطلان الأساس الذي بني عليه قايين اقترابه إلى الله كساجد. والخاطئ الذي لم تغفر له خطاياه إذا قدم إلى الله قرباناً غير دموي إنما يرتكب أفظع إثم. صحيح أنه قد تعب في قربانه ولكن ماذا يفيد ذلك؟ هل يمكن أن تعب الخاطئ يمحو أثر الخطية أو اللعنة؟ وهل ذلك يعوّض عن عقوبة الخطية؟ هل يسلب من الموت شوكته أو من الهاوية غلبتها؟ ولا شيء من ذلك مطلقاً إذ «بدون سفك دم لا تحصل مغفرة» وقربان قايين لم يكن فيه سفك دم، ومثل بقية القرابين التي بدون دم لم تكن فقط بدون قيمة بل مكرهة لدى الله. وقد دل قربان قايين على جهله بنفسه وبالله أيضاً لأن «الله لا يُخدَم بأيادي الناس كأنه محتاج إلى شيء» (أع١٧:٢٥) وقايين ظن أنه يخدمه هكذا. وهذا هو فكر كل المتدينين. وقد سار في طريق قايين الملايين من جيل إلى جيل، وعبادة قايين هذه لا تزال منتشرة في كل العالم. وكل نفس لم تتجدد إنما تخدم الله بهذه الصورة لأن كل الديانات البشرية قائمة على هذا المبدأ.

وإنك لترى الإنسان يأتي إلى الله كأنه يعطيه لا كمن يأخذ منه، ولكن حاشا أن يكون الأمر كذلك لأنه مغبوط العطاء عنده أكثر من الأخذ ولا ريب أن الغبطة نصيب الله «وبدون كل مشاجرة الأصغر يُبَارَك من الأكبر» (عب٧:٧) لأنه «من سبق فأعطاه» (رو١١:٣٥) وأن الله يقبل أبسط قربان من الإنسان متى أدرك معنى الآية التي تقول «من يدك وأعطيناك» (١أخ٢٩:١٤)، ولكن متى توهم الإنسان أنه يعطي الله أولاً فجواب الله له «إن جعت لا أقول لك»(مز ٥٠:١٢) لأنه «لا يُخدَم بأيادي الناس كأنه محتاج إلى شيء إذ هو يعطي الجميع حياة ونفساً وكل شيء» (أع١٧:٢٥) وما دام هو الذي يعطي الكل كل شيء فغير ممكن أنه يحتاج إلى شيء وكل ما في وسعنا تقديمه إلى الله إنما هو الحمد. وهذا لا نقدر عليه إلا متى أيقنا من محو خطايانا، ولا نستطيع التحقق من ذلك إلا إذا قبلنا بالإيمان قيمة كفارة المسيح الكاملة.

وإني أرجو القارئ في هذه اللحظة أن يطالع بالتأمل والصلاة الفصول الكتابية الآتية (مز ٥٠، إش ١:١١-١٨، أع ١٧:٢٢-٣٤) وفيها يجد الحق الصريح من جهة مركز الإنسان أمام الله وأساس العبادة الصحيحة.

والآن لنتأمل قليلاً في قربان هابيل.

«وقدّم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها» (٤:٤).

ومعنى ذلك أن هابيل تقدم إلى الله بالإيمان وهو فاهم حقيقة الاقتراب إلى الله في الذبيحة، عالم أنه خاطئ ويجب أن يتوسط ثالث بينه وبين نتيجة الخطية، وأن مطاليب صفات طبيعة الله

يجب أن توفى بسفك دم الحمل بلا عيب ـ حمل فيه الكفاية لسد مطاليب الله وأعواز الخاطئ. وهذا هو تعليم الصليب بالإيجاز ـ الصليب الذي فيه يستريح ضمير الخاطئ لأن الله قد تمجد به.

وكل خاطئ قد بكّته الروح القدس لابد وأن يشعر أن أمامه الموت والدينونة «جزاء ضلاله المحق» وأنه مهما عمل فلا يمكنه أن يغير سُنة وقضاء الله ومهما اجتهد وتعب وبعرق جبينه قدّم لله شيئاً وعزم وبإصرار أن يعمل كذا وكذا أو أصلح حياته الأدبية وأخلاقه الظاهرة وصار بكل معاني الكلمة متديناً من كل وجه عفوف النفس وطاهر السيرة وقويم الخلق، أو ربما قرأ الكتاب وصلى وحضر مواعظ، وبالاختصار عمل كل ما في وسعه وفي طاقة الإنسان المتدين تأديته من الفرائض الدينية ولم يكن عنده إيمان فلا يوجد أمامه سوي الموت والدينونة، وكل مساعيه لا تمحو هاتين الغمامتين اللتين تتهددانه بل يظلان فوق رأسه وهو سائر في طريق تدينه متخوف منهما إلى أن ينصبا على رأسه الأثيم يوماً ما. ولا يمكن للخاطئ أن ينقل نفسه من الموت والدينونة ـ إلى الحياة والنصرة بل نفس أعماله تسوقه إليهما سوقاً وتعجل بالقضاء عليه.

وهنا تظهر قيمة الصليب. فعند الصليب يجد الخاطئ التائب علاجاً إلهياً لإثمه وأعوازه أيضاً. وهناك يعاين زوال الموت والدينونة، وفي مكانهما الحياة والمجد فإن المسيح قد أخلى طريق المؤمن من الموت والدينونة وأعطاه بدلهما حياة وبراً ومجداً «أبطل الموت وأنار الحياة والخلود بواسطة الإنجيل» (٢تي ١٠:١) وقد مجّد الله برفع ما كان يفصل بيننا وبين الله القدوس المبارك إلى الأبد وقد أبطل الخطية ونزعها (عب ٩) هذه الحقائق جميعها مُشار إليها في «ذبيحة هابيل الأفضل» من باب الرمز. فهابيل لم يحاول التخلص من الاعتراف بحقيقة أمره كخاطئ أثيم، أو استحقاقه ضربة ذلك السيف المتقلب ولا قصد المغالطة لعله يجد له طريقاً مرة ثانية إلى شجرة الحياة، ولا تطاول إلى تقديم ذبيحة غير دموية، ولا قدّم للرب من أثمار الأرض الملعونة، بل أخذ مركزه كخاطئ ولذلك جعل موت الذبيحة بينه وبين خطاياه، بين خطاياه وبين قداسة الله الذي يمقت الخطية. من هذا كله يتضح أن هابيل استحق الموت والدينونة ولكنه وجد له بديلاً.

وهذا هو شأن كل خاطئ أثيم مسكين قليل الحيلة شاعر بخطاياه ومعترف بها، فالمسيح بديله وفديته وقربانه الأفضل وكل شيء. وكما أن هابيل أدرك أن ثمر الأرض لا يُغني، هكذا ذلك الخاطئ وهو عالم أنه مهما قدّم لله من أفخر أثمار الأرض فلا يزال ضميره موبخاً بالخطية لأنه «بدون سفك دم لا تحصل مغفرة». وأطيب الأثمار بل أشهاها مهما عظمت لا تمحو من الضمير أقل وصمة. ولا يريح القلب أو الضمير سوي ذبيحة ابن الله الكاملة، وكل الذين يتمسكون بهذا الحق الإلهي بالإيمان يتمتعون بسلام لا يقدر العالم أن يهبه أو يسلبه. والإيمان وحده هو الوسيلة التي بها تفوز

النفس بهذا السلام «إذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح» (رو٥:١) و«بالإيمان قدّم هابيل لله ذبيحة أفضل من قايين» (عب١١:٤).

فالمسألة ليست مسألة شعور كما يريد كثيرون تأويلها بل إيمان بعمل قد أكمل وانتهى، إيمان ينشئه الروح القدس بعمله بقوة في نفس الخاطئ وهذا الإيمان يختلف عن مجرد الشعور القلبي أو التصديق العقلي الذي لا يعد إيماناً. إن بعضهم يحاول أن يثبت أن الإيمان عبارة عن التسليم بقضية ما تسليماً عقلياً، ولكن ما أضل هذا الزعم الذي به يصبح الإيمان مصدره الإنسان مع أنه مصدره الله، ويحط من شأنه بدلاً عن رفعه إلى مستوى الله نفسه. فالإيمان لا يتعلق باليوم والغد بل هو مبدأ ثابت مصدره أزلي هو الله نفسه. به يتمسك الإنسان بحق الله وتتثبت النفس في الله.

أما الأحاسيس البشرية والعواطف الإنسانية فلا تعلو فوق المستوى الذي صدرت منه أعني به مستوى الذات، ولكن الإيمان علاقته بالله وكلمته الأزلية وهو رباط حي يقرن النفس التي تمتلكه مع الله الذي يهبه. والعواطف الإنسانية مهما اشتدت والأحاسيس البشرية مهما سمت لا يمكنها أن تقرن النفس بالله، لأنها ليست إلهية ولا أزلية بل إنسانية فانية، مثل يقطينة يونان التي كانت بنت ليلة وهلكت في ليلة، أما الإيمان فليس هكذا بل هو مبدأ ثمين به يصير الإنسان شريكاً للغرض الذي أمامه بكل وجوهه وحقائقه ونتائجه. فهو يبرر النفس (رو٥:١) ويطهّر القلب (أع١٥:٩) ويعمل بالمحبة (غل٥:٦) ويغلب العالم (١يو٥:٤) أما الأحاسيس والعواطف فلا تعمل شيئاً من ذلك لأن علاقتها بالأرض وما عليها بخلاف الإيمان الذي علاقته بالله والسماء. والعواطف إنما تنشغل بالذات ولكن مشغولية الإيمان في المسيح. تلك تتطلع إلى الداخل وإلى أسفل وأما هذا فيشخص إلى الخارج وإلى فوق. تلك تلقي النفس في ظلمة وريب وأما هذا فيقودها إلى النور والسلام. تلك تعتمد على أحوال الإنسان المتقلبة أما الإيمان فيثق في كلمة الله الثابتة وذبيحة المسيح الأبدية الكاملة.

نعم إن الإيمان يولد الأحاسيس وعواطف، ولكنها حاسيات روحية وعواطف حقيقية. ولكن الإيمان شيء وثمر الإيمان شيء آخر. فأنا لم أتبرر بالأحاسيس، ولا بالحاسيات مع الإيمان، بل بالإيمان وحده. ولماذا؟ لأن الإيمان يختم على شهادة الله أنها صادقة ويُصدّق الله متى تكلم، ويعرفه كما أعلن هو ذاته في شخص الرب يسوع المسيح وعمله، وهذه هي الحياة والبر والسلام. ومتى عرفت الله كما هو فإن لي في تلك المعرفة كل البركات الحاضرة والمستقبلة. والنفس التي وجدت الله قد وجدت كل شيء تحتاج إليه سواء كان هنا أو في الأبدية. على أن الله لا يُعرَف إلا بإعلان منه وبالإيمان الذي يعطيه هو، الذي لا غرض له سوى إعلانات الله.

ومتى أدركنا هذا جميعه فحينئذ نقدر أن نفهم على نوع ما معنى وقوة القول «بالإيمان قدّم هابيل

لله ذبيحة أفضل من قايين» فقايين لم يكن عنده إيمان لذلك قدّم قرباناً غير دموي، وهابيل كان عنده إيمان لذلك قدّم «دماً وشحماً» وهذان يشيران إلى حياة المسيح وفضائله. فالدم يرمز إلى الحياة والشحم إلى الفضائل التي امتاز بها عن بقية البشر، وفي العهد الموسوي كان أكل الدم والشحم محرماً (لا ٧:٢٥، ٢٦). لأن الدم كانت فيه الحياة وبحسب النظام الموسوي لم يكن للإنسان حق في الحياة. أما من يوحنا ٦ فنتعلم أننا إذا لم نشرب الدم فليس لنا حياة فينا والمسيح هو الحياة، وخارجاً عنه لا توجد حياة. لأن كل ما هو خارج عن المسيح موت ولكن «فيه كانت الحياة» (يو١:٤) وأما في غيره فلا.

على أن حياته قد بذلها على الصليب، تلك الحياة التي كانت من باب العدل مرتبطة بالخطية، حينما سمر جسمه على خشبة اللعنة. فلما بذل حياته فإنه أنهى الخطية معها، وبذلك أبطلت لأنه تركها في القبر إذ قام منتصراً بقوة حياة جديدة مرتبطة بالبر، كما كانت الحياة الأولى التي أسلمها على الصليب مرتبطة بالخطية، إن تعبيراً كهذا يساعدنا على فهم جملة قالها ربنا المبارك بعد قيامته «إن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي» (لو٢٤:٣٩) فهو لم يقل «لحم ودم» لأنه بعد القيامة لم يأخذ الدم الذي كان قد سفكه على الصليب ككفّارة عن الخطية لأن «نفس الجسد هي في الدم فأنا أعطيتكم إياه على المذبح ليكفر عن نفوسكم لأن الدم يكفّر عن النفس» (لا ١٧:١١) والتأمل الدقيق في هذه المسألة يثبت في نفوسنا أمر محو الخطية بموت المسيح إلى الأبد، ولا شك أن كل ما من شأنه تثبيت هذه الحقيقة المجيدة لابد وأن يعود بالضرورة علينا بازدياد السلام، كما يعظم مجد المسيح، بالارتباط مع شهادتنا وخدمتنا.

سبق لنا فيما مر أننا أشرنا إلى مسألة ذات شأن عظيم في قصة قايين وهابيل ولهما فائدة عملية أعني بها مسألة تمثيل كل منهما بالتمام في القربان الذي قدمه، ويحسن بالقارئ أن يتوسع معي في هذا البحث، فالمسألة لم تكن بين شخصين بل بين قربانين لذلك نقرأ عن هابيل أن «الله شهد لقرابينه»، ومن هذا يتبين سر وأساس قبول المؤمن وسلامه مع الله.

إن القلب يميل دائماً إلى جعل قبولنا وسلامنا مؤسسين على شيء فينا أو منا حتى عندما نعترف بأن ذلك الشيء ناتج من عمل الروح القدس. ومن هنا ينشأ تحول نظرنا إلى ماداخلنا بينما يكون الروح القدس يريد أن يحول نظرنا إلى ما هو خارجنا. والأمر الذي يجب أن ينشغل به المؤمن ليس «ما أنا» بل «ما هو المسيح» لأن الذي يأتي إلى الله «باسم المسيح» هو مثل المسيح أمامه في القبول وغير ممكن أن يُرفض لأن الشخص الذي تقدم باسمه لا يمكن رفضه. وقبل أن تُرفع قضية على أضعف مؤمن ينبغي أن تُرفع على شخص المسيح نفسه أولاً، وهذا محال. إذن فالأساس الذي يبني عليه المؤمن ثابت لا يمكن أن يتزعزع. ولو أنه في ذاته خاطئ مسكين ومحتقر، لكنه حين يأتي

باسم المسيح يصبح هو والمسيح واحداً فيُقبَل في شخصه ومثله وله الحق في الحياة التي في المسيح. والله لا يشهد له بل لقربانه، وقربانه هو المسيح. هذا كله مما يطمئن ويعزي، ولنا الحق بالإيمان أن ندفع كل تهمة ونصد كل هجمة واعتراض بواسطة الإحالة على شخص المسيح وكفارته الكاملة. لأن كل ينابيعنا فيه ونحن فيه نفتخر كل النهار. فليست ثقتنا في ذواتنا بل فيه لأنه أتم كل شيء لأجلنا ونحن متمسكون باسمه معتمدون على عمله ناظرون إلى شخصه ومنتظرون مجيئه.

على أن العقل البشري من طبعه مقاومة حقائق كهذه مع أن فيها فرح وشبع قلب المؤمن. هكذا كان الأمر مع قايين إذ «اغتاظ جداً وسقط وجهه» والشيء الذي ملأ هابيل سلاماً ملأ قايين غضباً لأنه في عدم إيمانه احتقر الطريق الوحيد لإتيان الخاطئ إلى الله، فرفض أول كل شيء أن يقدم الدم الذي بدونه لا تحصل مغفرة ولذلك لم يقبل في خطاياه، أما هابيل فقد قُبِل في قربانه.

«فاغتاظ قايين جداً وسقط على وجهه» (٤:٥).

ولكن ما ذنب الله في ذلك؟ فإما أنه كان يقبله في خطاياه أو بدونها، ولكنه لم يشأ أن يأتي بالدم الذي يرفع الخطايا إذ يكفر عنها ولذلك رفض. وإذ رفض أظهر رداءته وثمر ديانته الباطلة إذ اضطهد وقتل ذلك الشاهد الأمين ـ الشخص البار المقبول، رجل الإيمان. وفي ذلك أصبح مثال المتدينين باطلاً في كل الأزمان وجميع العصور الذين أقرب ما عندهم اضطهاد وقتل الناس بأسباب الدين أكثر من سواها وهذا هو طريق قايين.

إن التبرير الكامل المطلق المؤسس على الإيمان وحده يجعل الله كل شيء والإنسان لا شيء. وهذا لا يرضي الإنسان فيغتاظ جداً ويسقط على وجهه، بدون أن يكون له حق في الغضب. لأن القضية كما قلنا ليست خاصة بالإنسان بل بالواسطة التي تقرّبه إلى الله. ولو كان قايين قد قتل هابيل بسبب أمر وُجِد فيه وبه امتاز على أخيه لكان لقايين بعض العذر في السخط وسقوط الوجه، ولكن قبول هابيل كان بسبب قربانه ليس إلا. إذ أن الله لم يشهد له بل لقرابينه لذلك كان غضب قايين بدون داع. ذلك واضح من كلام الرب نفسه إذ قال لقايين «إن أحسنت ـ أو بحسب قراءة الترجمة السبعينية ـ (لو أنت قدمت حسناً) أفلا رفع؟» (ع٦). فالعمل الحسن ارتبط بالقربان وليس بهابيل في ذاته. وقد أحسن هابيل لأنه توارى في قربانه المقبول، وقايين أساء لأنه قدّم قرباناً ليس فيه دم. وقد ظهر من تصرفه فيما بعد أن عبادته كانت فاسدة.

«وكلم قايين مع هابيل أخيه. وحدث إذ كانا في الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله» (٤:٨).

وهذا أمر كثير الحدوث. أن الذين يسلكون طريق قايين يضطهدون أمثال هابيل ويقتلونهم.

ذلك الإنسان الطبيعي وديانته سواء، والإيمان وديانته سواء، وأينما التقيا اشتبكا في حرب عوان.

ومما يهمنا معرفته هنا أن قتل قايين لهابيل كان نتيجة لازمته وثمراً لابد منه لديانة الإنسان الباطلة. لأنه متى كان الأساس واهياً فالبناء الذي يقام عليه باطل. ولكن قايين لم يقف عند حد القتل بل حين سمع قضاء الله خرج من لدنه يائساً وأخذ يبني لنفسه مدينة جمع فيها الصناع وأرباب الحرف والمزارعين وأسباب اللهو والطرب، وإذ جهل صفات الله حسب ذنبه أعظم من أن يُحتمَل* وليست الحقيقة هي أنه قد عرف خطيته بل أنه لم يعرف الله. وثبت ذلك من نفس كلامه الذي كشف عن شر سقوطه. فهو لم يرغب في الغفران لأنه لم يرغب في الله. ولم يعرف حقيقة نفسه لأنه لم يدرك أساس قبوله كخاطئ أمام الله ولا اشتاق إلى الله إذ فسد بجملته وضلّ السبيل. لذلك ابتعد عن الله، وزاغ في وسط العالم وتوغل في شهواته، وحسب أنه يتمتع بالحياة بالبعد عن الله. لذلك أخذ يعمر في العالم ويزينه بقدر ما وسعت طاقته ليكون له فيه شأن ومقام، حتى لو كان تائهاً وهارباً من وجه الله على الأرض مضروباً باللعنة.

هذا هو طريق قايين الذي يركض فيه ملايين من الناس إلى هذا الوقت. وهم يعيشون لا كأنهم بلا دين بل تراهم يحاولون أن يقدموا شيئاً لله ويحسبون أن تقديم شيء من ثمر أتعابهم هو عين الصواب، ولكن هؤلاء يجهلون أنفسهم ويجهلون الله أيضاً. ومع ذلك تراهم باذلين كل الجهد في إصلاح العالم وتحسين شئونه والاهتمام بمرافق الحياة، بدلاً عن استعمال طريق الله في التطهير يستخدمون سعي الإنسان في التزويق وهذا هو طريق قايين (يه١١).

وإذا أراد القارئ أن يعرف عن انتشار هذه المبادئ فما عليه إلا النظر إلى ما حوله الآن. فمع أن العالم ملوث بجريمة سفك دم أفضل من هابيل - دم ابن الله نفسه - إلا أن الإنسان ساعٍ بكل قواه في تحسينه، وكما كان في أيام قايين صوت «العود والمزمار» و «كل آلة من نحاس وحديد» مغطياً على سمع الإنسان لكي لا يطرق أذنه صوت دم هابيل الصارخ، هكذا الآن قد غطّت أصوات كثيرة على صوت دم الجلجثة فصمّت الآذان وثقلت العيون فلا تعود ترى أو تسمع عن المسيح المصلوب من صوت الأغراض الكثيرة، لأن الإنسان قد شحذ مداركه الطبيعية لاستنباط ما فيه سد أعوازه واختراع ما يظنه لازماً له أو تميل إليه نفسه وتشتهيه عينه. ومتى اشتهى أمر ظن أن الحياة بدونه مرة وتصور أن العيش لايحلو بدونه فلا يهدأ له بال حتى يمتلكه. خذ مثالاً لذلك السكك الحديدية فقد كان الناس قديماً (قبل أن تُعرَف السكك الحديدية) يرضون بقطع أميال في أيام طوال حتى إذا قطعوها الآن في بضع ساعات وتأخر القطار ولو لبضع دقائق ضجروا وسئموا السفر.

* إن الكلمة العبرية التي عبّر بها قايين هنا هي نفس اللفظة الواردة في مزمور ٣٢:١ من جهة غفران الخطية. فقوله أعظم من أن يُحتمَل بمعنى «يغتفر».

وكلما زادت معدات الراحة زاد القلق حتى أن الناس الآن يتمنون لو أنهم يسافرون بلا تعب ويتناولون الأخبار بدون انتظار فيمدون السكك الحديدية على الأرض والأسلاك البرقية في الهواء* كأنما هم يعجلون بذلك الوقت الذي فيه «البحر لا يوجد في ما بعد» (رؤ١:٢١).

هذه أوهام من يدعون الدين والدين براء منهم. يسيرون القهقرى ويريد الله لهم الرفعة. ذلك لأن الإنسان لا يرضى أن يعيش بلا دين، لأن شرفه في الدين. فتراه يقنع بيوم من الأسبوع فيه يلبس لباس الدين وعلى حسب فكره يقضي فيه مصالحه الأبدية بينما يصرف بقية الأسبوع في قضاء مصالحه الشخصية الزمنية، مع أن الحقيقة أنه يخدم في الحالتين نفسه سواء كان ذلك في يوم الراحة أو في بقية أيام الأسبوع وهذا هو طريق قايين. وعلى القارئ أن يتأمل في ذلك وينظر إلى الطريق الذي هو سائر فيه كيف ابتدأ وإلى أين المصير.

أما رجل الإيمان فطريقه على اختلاف ذلك. وهو مثل هابيل يشعر باللعنة ويعترف بأنه مستحق لها. يرى أثر الخطية وبالإيمان يقدم ما يطهرها ويمحوها بأسلوب إلهي ومضمون، لذلك يلتجئ إلى الله نفسه عوضاً عن أن يبني لنفسه مدينة على الأرض يجد فيها قبراً يضمه. لأن الأرض التي كان قايين يمرح عليها مع عائلته قد آوت في جوفها دم هابيل البار. وياليت الإنسان العالمي يحفظ ذلك في باله. بل ياليت رجل الإيمان يضع ذلك أيضاً في قلبه، وياليت المسيحي المشغول بالعالم يأخذ له درساً من ذلك أن الأرض التي تدوسها بطون أقدامنا قد تلطخت بجريمة سفك دم ابن الله. والدم الذي يبرر الكنيسة سيدين العالم. والمؤمن يرى بعين الإيمان تأثير صليب المسيح على هيئة هذا العالم الزائل «لأن هيئة هذا العالم تزول» (١كو٣١:٧) وعما قليل سينتهي كل ما تراه عيوننا الجسدية الآن «وطريق قايين» لابد وأن يعقبها «ضلالة بلعام» «فمشاجرة قورح» وأخيراً تفتح الهاوية فاها لتبتلع الأشرار وتحفظهم في «قتام الظلام إلى الأبد» (يه ١٣).

* لا شك أن الرب يستخدم هذه الوسائط لتنفيذ مقاصده الصالحة كما أن عبد الرب مصرح له أن ينتفع بها. ولكن ذلك لا يمنعنا من أن نرى روح تلك المساعي من قبل الإنسان وغرضه منها.

الأصحاح الخامس

إن مجرد مطالعة الأصحاح الخامس يؤيد صحة المبادئ التي ذكرناها في نهاية الفصل السابق لأننا فيه نشاهد تاريخ عجز الإنسان المعيب ووقوعه تحت طائلة الموت. ومهما عاش من مئات السنين أو «ولد بنين وبنات» فآخر ما يسجله عنه الوحي أنه «مات» وهكذا «ملك الموت من آدم إلى موسى» «كما وضع للناس أن يموتوا مرة» (عب٩:٢٧) ذلك ما لا مفر منه. فلا قوة البخار ولا أجهزة الكهرباء ولا مساعي الإنسان مهما بلغت من ذكاء تستطيع أن تخلص واحداً من شوكة الموت أو ترد عنه قضاءه مهما تنعم في معيشته أو ترفه في دنياه.

ومن أين أتى هذا الموت المريع الغريب يا ترى؟ إن الجواب عن ذلك نقرأه في رومية ٥:١٢ «كأنما بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت» هذه هي غلبة الموت الذي دخل بسبب الخطية. لأن الخطية قطعت حبل الاتصال الذي كان يربط الإنسان بالله الحي، وإذ انحل الرباط دخل الإنسان في قبضة الموت ولم يكن في وسعه التخلص من صولته. وفي ذلك برهان على عجز الإنسان المطلق عن الإتيان إلى الله، إذ يستحيل إيصال نفس الإنسان بالله بدون قوة حياة النفس، ولكون الإنسان تحت طائلة الموت إذن فالشركة مع الله على أسس طبيعية تكون مستحيلة لأنه أية شركة بين الموت والحياة أو بين النور والظلمة أو بين القداسة والخطية؟ إذن غير ممكن للإنسان أن يجدد شركته مع الله إلا على مبدأ أو أساس جديد أعني به الإيمان - ذلك الإيمان الذي به يعرف الإنسان حقيقة أمره ومركزه وأنه «مبيع تحت الخطية» (رو٧:١٤) مستعبد للموت ولكنه أيضاً يرى صفات الله الواهب الحياة التي لا يسود عليها الموت أو يمسها سوء ولا يسلبها منا العدو أو يبطلها.

وهذا ما يجعل حياة المسيحي في مأمن من كل شر. لأن المسيح هو حياته - المسيح الممجد والمُقام من الأموات - المسيح المنتصر على كل قوة يمكن أن تقوم ضده.

إن حياة آدم متوقفة على طاعته فلما عصى فقد الحياة. ولكن المسيح له حياة في ذاته وقد جاء هنا إلى العالم وأحاط بكل ظروف الإنسان وخطيته مهما كان نوعها وإذ دخل تحت دائرة الموت أباد الذي له سلطان الموت وبواسطة القيامة أصبح حياة وبراً لجميع الذين يؤمنون باسمه العجيب.

والشيطان غير ممكن له أن يمس هذه الحياة بأي وجه من الوجوه، لا من حيث مصدرها ولا من حيث مجراها ولا من حيث قوتها ولا من جهة دائرتها ولا من حيث دوامها فالله مصدرها والمسيح المُقام مجراها والروح القدس قوتها والسماء دائرتها والأبدية دوامها، ولذلك فكل من له هذه الحياة العجيبة تراه قد حصل على كل شيء جديد. وكما يمكن أن يقال «في وسط مشهد الموت وُجدت الحياة». والدائرة التي يقود المسيح المقام إليها شعبه لا أثر فيها للموت لأنه من أين يأتي الموت وقد أبطله المسيح؟ هل يمكن أن يكون الموت قد أُبطل وهو موجود بالنسبة إلى شعب المسيح؟ إن كلمة الله تشهد عنه أنه قد أُبطل، والمسيح قد استبدله بالحياة ولا يوجد أمام المؤمن موت بل مجد؛ إذ الموت أصبح وراءه وسيبقى وراءه إلى الأبد أما مستقبله فمجد أبدي وسعادة لا يشوبها كدر. نعم إن المؤمن قد يرقد في الرب ولكن رقاده هذا لا يقال عنه أنه موت بل عربون الحياة. وانتقال المؤمن لكي يكون مع الرب لا يغير شيئاً من رجائه من جهة ملاقاة الرب في الهواء لنكون معه ومثله إلى الأبد.

وأمامنا الآن أخنوخ يمثل لنا هذه الحقيقة المهمة. لأنه قد استُثنى من القاعدة التي جرى عليها الأصحاح الخامس من سفر التكوين. فقد قيل عن كل واحد إنه «مات» أما هذا فقد «نقل لكي لا يرى الموت ولم يوجد لأن الله نقله إذ قبل نقله شُهد له بأنه قد أرضى الله» (عب ١١:٥) هذا هو أخنوخ «السابع من آدم» الذي تداخل الله في أمره ليكون مثالاً وبرهاناً على نصرة الله في إبادة سلطان الموت. وإن صدر الإنسان لينشرح عندما يقرأ عن الإنسان «السابع» أنه لم يمت بعدما يكون قد انقبض من ذكر كلمة «مات» ست مرات أما إذا سألنا ولماذا لم يمت أخنوخ كالباقين؟ فالجواب «بالإيمان» فأخنوخ سار مع الرب قبل انتقاله بثلاثمائة سنة وعاش بقوة إيمان انتقاله لذلك انفصل عن العالم عملياً. وهكذا الإنسان الذي يسير مع الله ينفصل بالضرورة عن الأفكار العالمية التي تحيط به كما اختبر أخنوخ ذلك في نفسه. ولا شك أن العالم حينئذ كان ضد الله كما هو الآن لأن رجل الإيمان يشعر بأن لا علاقة له مع العالم إلا أن يكون شاهداً فيه لنعمة الله أو الدينونة القادمة. وإذا حاول أبناء قايين إصلاح الأرض المضروبة باللعنة وسعوا وراء إدراك غاياتهم عبثاً، فمثل أخنوخ إنما يضع قلبه وراء عالم آخر أفضل ويعيش بقوة ذلك الرجاء* لأن الإيمان الذي أُعطى له لم

* واضح جداً أن أخنوخ لم يتمسك بمبدأ التمسك بالدنيا والآخرة معاً. لأنه لم يعرف سوى عالم واحد كان يسعى إليه. وهكذا يجب أن يكون الحال معنا أيضاً.

يعطه ليصلح به العالم بل لكي يسير به مع الله.

وكم لنا من الفوائد في هذه الكلمات الثلاث «وسار مع الله» ففيها لنا الانفصال عن العالم وإنكار الذات وطهارة السريرة ونقاوة السيرة واللطف والتواضع والوداعة مع النشاط والاجتهاد والحرارة الروحية. وكم فيها من الصبر وطول الأناة، بل كم فيها من الأمانة والثبات. إن السير مع الله يتضمن كل أثمار الحياة الإلهية ففيها معرفة صفات الله كما أعلن هو ذاته، كما أنها تتضمن معرفة الصلة التي أصبحت بين الله وذلك الإنسان، حينئذ تكون الحياة لا مجرد حفظ وصايا وفرائض والعزم على عمل كذا وكذا أو الذهاب إلى هنا وهناك، لأنها تترفع عن هذا كله، فهي تارة تقودنا إلى عمل أمر لا ينطبق على ذوق الناس وحتى إخوتنا أنفسهم إذا كانوا هم أيضاً غير سائرين مع الله، وتارة إلى إتهام الغير لنا بالغيرة الزائدة وأحياناً بالفتور. ولكن الإيمان الذي بقوته يسير الإنسان مع الله يستطيع أيضاً أن لا يعلق أهمية على أفكار بشرية كهذه.

ففي هابيل وأخنوخ تعاليم من جهة القربان الذي يستند عليه الإيمان والرجاء الذي يسير بقوته وبينهما المسير مع الله في الحياة، وقوله سار مع الله يتضمن جميع أطوار الحياة العملية بين هذين الطرفين لأن «الرب يعطي رحمة ومجداً» (مز ٨٤:١١). وبين رحمة نلناها ومجد موضوع أمامنا تصير لنا ثقة أن الله لا يمنع خيراً عن السالكين بالكمال.

وقد لاحظ أحدهم مرة أن الصليب ومجيء المسيح هما طرفا الكنيسة على الأرض وفي قربان هابيل ونقل أخنوخ إشارة إلى ذلك فالكنيسة تعرف أن تبريرها الكامل إنما هو بموت وقيامة المسيح، كما أن رجاءها أن يأتي المسيح ويأخذها لنفسه لأننا نحن «بالروح من الإيمان نتوقع رجاء بر» (غل٥:٥). فالكنيسة لا تتوقع البر لأن لها ذلك بالنعمة الآن ولكنها تتوقع رجاءه الخاص بمركزها الذي وضعت فيه.

وأرجو القارئ أن يفهم هذه القضية جلياً لأن بعض مفسري النبوات قد جانبهم الصواب بعدم التفاتهم إلى مركز الكنيسة الخاص بها ونصيبها ورجائها فغضوا النظر عن حقيقة طلوع «كوكب الصبح المنير» (رؤ٢٢:١٦) وألبسوها ثوباً من الغموض والإبهام مع أنها رجاء الكنيسة الخاص بها حتى أصبح كثيرون من القديسين في الوقت الحاضر لا يبلغون إلى أسمى مما بلغه أتقياء العهد القديم أو البقية الإسرائيلية التي ترجو «شمس البر والشفاء في أجنحتها» (ملا٤:٢). ولم يكتفوا بذلك بل حرموهم قوة ذلك التأثير العملي الأدبي الذي ينشئه رجاء ظهور المسيح إذ علموهم أن يتوقعوا حدوث بعض أمور قبل أخذ الكنيسة مثل رجوع اليهود واسترجاع السلطة النبوخذنصرية واستعلان إنسان الخطية. على أنه يسهل إبطال هذه الدعاوي بسرد الشواهد الكتابية من العهد

الجديد لو كان هذا المجال مناسباً.

فالكنيسة مثل أخنوخ لابد أن تُنقل من وسط الشر وتنجو من الغضب الآتي، وكما أن أخنوخ لم يُترك في الأرض لكي يشاهد سطوة الشر أو قضاء الله المُنصَب عليه أو ينابيع الغمر حين انفجرت أو طاقات السماء لما انفتحت بل نُقل قبل أن يحدث شيء من ذلك هكذا توجد في نظر الإيمان جماعة كان أخنوخ يرمز لها ورجاؤها « لا نرقد كلنا ولكننا كلنا نتغير في لحظة في طرفة عين » (١كو١٥: ٥١، ٥٢). لأن أخنوخ لم يتوقع الموت بل الانتقال، وكذلك الكنيسة. والرسول بولس يلخص هذا الرجاء في بضع كلمات في ١تسالونيكي١: ١٠ فيقول «تنتظروا ابنه من السماء» وهذه الحقيقة يستطيع أن يفهمها أبسط مؤمن مهما كان عامياً ويتمتع بها ويختبر قوتها وتأثيرها على نوع ما. قد يمكن أن لا يكون له إلمام بالأسفار النبوية إلا القليل ولكنه تبارك اسم الله يستطيع أن يذوق بركة وقوة وتعزية ذلك الرجاء السماوي وما يولده من الانفصال العملي عن العالم كعضو في ذلك الجسد السماوي أي الكنيسة. فهو لا ينتظر فقط شمس البر بل «كوكب الصبح المنير» (رؤ ٢: ٢٨) وكما أنه لا يرى «كوكب الصبح» الطبيعي غير الساهر المترقب طلوعه هكذا المسيح «كوكب الصبح» السماوي لا تبصره سوي الكنيسة، وذلك قبل أن ترسل أشعة شمس البر على البقية الإسرائيلية.

الأصحاحات ٦-٩

هنا يبتدئ قسم جديد من أقسام هذا السفر له أهمية عظمى. وقد اختفى أخنوخ من المشهد بعد أن انتهى تاريخ غربته على الأرض وسيره فيها مع الله بالإيمان فنُقل إلى السماء. وذلك قبل أن يكمل مكيال شر الإنسان وينصب غضب الله على الأرض. وظاهر من العددين الأولين من هذا الفصل أن سير أخنوخ هنا وانتقاله إلى السماء لم يؤثرا على العالم قط إذ :

«حدث أنه لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا» (٦: ١، ٢).

ومن هنا نتعلم أن اختلاط بني الله مع بنات الناس شر، ومزج ما هو من الله بما هو من الإنسان من ضمن وسائط الشر التي يستخدمها الشيطان لإفساد شهادة المسيح على الأرض ولو أن هذا الخلط يأخذ أحياناً شكلاً مرغوباً فيظهر كأنه واسطة لانتشار حق الله ،ويوهم الساعي فيه أنه يؤول إلى امتداد ملكوت الله وأنه وسيلة فعالة ومؤثرة لنشر أمور الله. إلا أن حكمنا في ذلك يجب أن يكون من الوجه الذي ننظر إليه، أما من الوجهة الإلهية فلا يمكن أن نتصور أقل فائدة من اختلاط شعب الله بأهل العالم أو حق الله بأفكار البشر. لأن نشر الحق أو نجاح المبشرين به لا يقوم بمشاكلة من يجب أن ننفصل عنهم ونشهد لهم. والمبدأ الإلهي الصحيح هو «الانفصال عن الشر» وغير ممكن المحافظة على سلامة الحق سوى على هذا الشرط.

وفي التاريخ الموضوع أمامنا نقرأ نتائج اختلاط «أبناء الله» مع «بنات الناس» ووخامة العاقبة. نعم إن النسل حسب الظاهر كان حسناً جداً في نظر الإنسان لأننا نقرأ في عدد ٤ أن

«هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم» (٦: ٤)

ولكنهم في حكم الله لم يكونوا كذلك لأنه لا ينظر بعين الإنسان، وأفكاره ليست كأفكارنا إذ

«رأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض. وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم» (٦:٥)

فبحسب فكر الله كان الإنسان شريراً «كل يوم» أي بالاستمرار. وهذه هي نتيجة اختلاط المقدسين بالمنجسين، وهكذا الحال على الدوام. وإذا لم يحافظ النسل المقدس على طهارته فلابد أن تبطل شهادته على الأرض، فقد سعى الشيطان أولاً لكي لا يتم قصد الله وذلك بتسليم النسل المقدس إلى الموت، ولما خاب سعيه حاول أن يفسد قداسته.

ويهمنا جداً أن يفهم القارئ الغرض من اختلاط «أبناء الله» مع «بنات الناس» والنتيجة الحتمية لذلك، إذ يوجد في الوقت الحاضر خطر شديد يتهدد سلامة الحق بسبب هذا التساهل يجب الاحتراس منه. والاتحاد مهما كان جميلاً في ذاته فلا يجوز للمسيحي أن يضحي بالحق في سبيله بل يجب أن يكون شعاره دائماً «المحافظة على الحق مهما كان الأمر فإذا أمكن الاتحاد مع عدم الاخلال بهذا الشرط كان ذلك أفضل وإلا فالحق أحق أن يُتّبع». أما الاستحسان البشري فمبدأه بعكس ذلك «المحافظة على الوحدة بكل الطرق وإذا أمكن معها الحق كان بها وإلا فالوحدة أهم» ولكن تنفيذ هذا المبدأ مستحيل إلا إذا أعرضنا عن أقوال الوحي من جهة الشهادة* لأن الشهادة لا تكون صحيحة إلا مع الحق ولا تكون قوية إلا بالانفصال عن الشر، ومن ثم نرى أنه لما اختلط بنو الله مع بنات الناس وما هو من الله بما هو من الناس قبل الطوفان، ازداد الشر في العالم وحينئذ انسكب غضب الله وحل قضاؤه.

«فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان» (٦:٧)

إذ لم يكن طريق آخر، وكان لابد من محو ما كان سبباً في إفساد طريق الله على الأرض «الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم» كان لابد من إبادتهم بدون تمييز لأنهم جميعاً لا يصلحون لشيء

«نهاية كل بشر قد أتت أمامي» (٦:١٣)

فلم تكن نهاية بعض البشر إذ الجميع فسدوا معاً في نظر الرب وغير ممكن إصلاحهم - وزنوا في الموازين ووجدوا ناقصين ولكن الله أعلن لنوح طريقاً للخلاص بقوله

«اصنع لنفسك فلكاً من خشب جفر» (٦:١٤)

فأصبح نوح عارفاً بأفكار الله من جهة العالم الذي هو في وسطه لأن معنى أقوال الله هو أن كل

* يجب أن نعلم تماماً أن «الحكمة التي من فوق هي أولاً طاهرة ثم مسالمة» (يع٣:١٧) أما الحكمة التي من تحت فهي أولاً مسالمة ومن ثم لا يمكن أن تكون طاهرة.

ما يمكن للإنسان أن يستند عليه في كبرياء قلبه لا يجديه نفعاً، أما القلب البشري فينتفخ عجباً وتكبراً كلما وقعت عينه على أهل الذكاء ورجال القوة والبأس وأصحاب المواهب والاختراعات من إخوته الذين «هم الجبابرة وذوو الاسم منذ الدهر» وكلما طرق أذنه صوت الموسيقى وتجلّى أمام بصره منظر المزروعات وجال بفكره ذكر الاكتشافات الحديثة أبعد عن باله ذكر الموت والدينونة وقضاء الله، ولكن ما أشد هول تلك الكلمات «إني أمحو» حقاً إنها تبدل بهرجة تلك المناظر بعبوسة، لأنه ليس في وسع الذكاء الإنساني أن يخترع طريقاً ينجو به من ذلك الموقف الحرج. وهل يستطيع الجبار أن ينقذ نفسه «بشدة قوته»؟ أبداً وأسفاه. إذ لم يكن سوي باب واحد للنجاة، يرشد إليه الإيمان لا العيان ولا العقل ولا الخيال.

«بالإيمان نوح لما أوحي إليه عن أمور لم تُرَ بعد خاف فبنى فلكاً لخلاص بيته فبه دان العالم وصار وارثاً للبر الذي حسب الإيمان» (عب١١:٨) وهكذا كلمة الله تنير خفايا خزي وخداع قلب الإنسان، فيزول الطلاء الخارجي الذي تطلى به الحية هيئة هذا العالم الزائل المعلق فوقه سيف عدل الله المنتقم. وعندما يعلن الله الأمور التي لا تُرى فلن يصدقها إلا المؤمن، لأن الإنسان الطبيعي يحكم في الأمور الظاهرة ويحكم فيها حسياً فقط، أما المؤمن فقانونه كلمة الله الثمينة (ذلك الكنز الغالي الثمن في وسط ظلمة هذا العالم) وعليها استناده ويقينه مهما كانت الظواهر. لأنه عندما أوحى الله إلى نوح عن الدينونة القادمة لم تكن هناك إشارة إلى قرب ذلك اليوم لأنها «لم تكن ترى بعد» ولكن كلمة الله جعلت ذلك حقيقة واقعة لأنها كانت مقترنة بالإيمان في قلب نوح، والإيمان لا ينتظر أنه يرى الأمر حتى يؤمن به إذ «الإيمان بالخبر والخبر بكلمة الله» (رو١٠:١٧).

ورجل الإيمان لا يحتاج إلا أن يعلم أن الله تكلّم وحينئذ تكمل ثقته، «وهكذا قال الرب» فيها كل الكفاية. وإن سطراً واحداً من الكتاب الموحى به من الله يكفي لدفع كل مفتريات وأبحاث العقل البشري، ومتى كانت كلمة الله هي دستور الاقناع فلا يبالي المؤمن بآراء البشر أو مبادئهم. إن قلب نوح لم يتثبت كل أيام خدمته الطويلة إلا بكلمة الله، وبهذه الكلمة عينها قد تثبتت قلوب ملايين من القديسين من ذلك الحين إلى اليوم ضد مفتريات العالم وتهجماته. ومن هنا نعلم أهمية الكلمة إذ بدونها نبقى في ظلمة الشك أما بواسطتها فكل شيء نور وسلام. بنورها يضيء طريق إنسان الله، فإذا غابت ضل وسط تشويش التقليدات والأحاديث الملفقة الإنسانية، إذ كيف كان يتيسر لنوح أن يكون «كارزاً للبر» نحو مائة سنة لولا أن كلمة الله كانت أساس كرازته، وكيف صبر على احتمال سخرية وتهكم أولئك الكفرة؟ بل كيف ظل شاهداً عن الدينونة المقبلة مع أنه لم تبد ولا سحابة تشير إلى شيء من ذلك؟ ولولا أن كلمة الله كانت هي الأساس الذي وقف عليه لما

استطاع شيئاً من ذلك، «وروح المسيح» هو الذي قاده إلى ذلك الأساس الراسخ بعزم ثابت.

والآن أيها القارئ المسيحي العزيز ماذا لنا نحن لنستند عليه في سبيل خدمتنا للمسيح وسط هذا الجيل الشرير؟ لا شيء سوي كلمة الله، وبواسطة الروح القدس نفهم الكلمة ونقيس عليها حياتنا اليومية وهذا ما يؤهلنا ويعدنا «لكل عمل صالح» ليكون إنسان الله كاملاً من كل الوجوه (٢تي٣:١٦، ١٧) وفي هذا كفايتنا. ويا لها من راحة للقلب وتخلص من خداع الشيطان وتصورات الفكر البشري بواسطة كلمة الله العديمة الغش والفساد الباقية إلى الأبد. يا ليت قلوبنا تتعبد له من أجل هذا الكنز الغالي الثمين «لأن كل تصور أفكار قلب الإنسان إنما هو شرير كل يوم» ولكن كلمة الله وحدها كانت مركز راحة قلب نوح.

«فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت أمامي .. اصنع لنفسك فلكاً من خشب جفر» (٦:١٣، ١٤)

وفي هذه الجملة نجد خراب الإنسان وعلاج الله، فالإنسان قد وصل إلى نهاية شره فانكشفت حقيقة أمره، والخميرة متى تُركت خمّرت العجين كله. وهكذا كَمل مكيال الإثم «وكل بشر» قد فسد بما لم يبق معه شيء صالح بالمرة ولذلك فلم يبق لله سوى أن يمحوه كلية وفي الوقت نفسه يُخلِّص كل الذين بحسب المشورات الأزلية يوجدون منتسبين للإنسان «الثامن» الذي لم يوجد بار غيره بين البشر الموجودين حينئذ. وهذا يقودنا إلى تعليم الصليب بصورة جلية. فهنالك نجد قضاء الله على الطبيعة بكل شرها واعلان خلاص الله بالنعمة في كل ملئها إلى كافة الذين وصلوا إلى أعماق حالتهم الأدبية كما دانها الله على الصليب إذ «افتقدنا المشرق من العلاء» (لو١:٧٨) وأين ذلك؟ حيث كنا أي خطاة. فالله قد وصل إلينا في أعماق خرابنا. ونور ذلك المشرق من العلاء لم يدع موضعاً من مواضع صفتنا كخطاة إلا وافتقده. ومادام ذلك النور قد افتقدنا فلابد وأن يكون قد أعلن حقيقة ما نحن عليه. لأن النور من طبيعته أن يُظهر كل ما ليس نوراً، ولكنه في الوقت نفسه يُعطي «معرفة الخلاص بمغفرة خطاياهم» (لو١:٧٧). والصليب الذي به أعلن قضاء الله على «كل بشر» قد أعلن أيضاً خلاص الخطاة الأثمة الهالكين. فالخطية قد دينت تماماً ـ والخاطئ خلص تماماً ـ وهكذا أعلنت صفات الله وتمجّد بالتمام على الصليب.

وإذا رجع القارئ إلى رسالة بطرس الأولى فإنه يجد نوراً من جهة الموضوع المطروح أمامنا الآن. يقول «إن المسيح أيضاً تألم مرة واحدة من أجل الخطايا البار من أجل الأثمة لكي يقربنا إلى الله مماتاً في الجسد ولكن محيى في الروح. الذي فيه (أي الروح) أيضاً ذهب فكرز (بواسطة نوح) للأرواح التي في السجن (الآن). إذ عصت قديماً حين كانت أناة الله تنتظر مرة في أيام نوح إذ كان الفلك يُبنَى الذي فيه خلص قليلون أي ثماني أنفس بالماء. الذي مثاله يخلصنا نحن الآن أي المعمودية،

لا إزالة وسخ الجسد (كما بالماء)* بل سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة يسوع المسيح. الذي هو في يمين الله إذ قد مضى إلى السماء وملائكةٌ وسلاطين وقواتٌ مُخضَعَةٌ له» (١بط٣:١٨-٢٢).

وهذه العبارة مهمة جداً لأنها تشرح لنا قصة الفلك وعلاقتها بموت المسيح شرحاً جلياً. وكما كانت مياه ولجج دينونة الله تعج فوق الفلك هكذا في موت المسيح قد عجت على رأس ذاك البار الذي لم يكن فيه خطية، لأن الخليقة كلها كانت مغمورة بطوفان غضب الله العادل، ولسان حال روح المسيح يقول «كل تياراتك ولججك طمت عليّ» (مز٤٢:٧) وهنا حق ثمين لقلب المؤمن وضميره فجميع لجج الله وأمواجه قد عجّت على رأس شخص الرب يسوع عندما تعلّق على الصليب، ولذلك لم يبق منها شيء ليقع على رأس المؤمن. لأننا عند الصليب نرى بالحقيقة

«كل ينابيع الغمر العظيم قد انفجرت وانفتحت طاقات السماء» (١١:٧).

«غمرٌ ينادي غمراً عند صوت ميازيبك» (مز٤٢:٧) فالمسيح قد شرب الكأس واحتمل الغضب كله وقَبل على نفسه نيابياً جميع مسئوليات شعبه ووفّاها كلها. إن الإيمان بهذا يعطي للنفس راحة، لأنه إذا كان الرب يسوع قد وفّى كل ما كان علينا وأزال من أمامنا كل عائق وأبطل الخطية وتجرّع كأس الغضب والدينونة التي كنا نستحقها عن آخرها وأزاح كل سحابة كانت تغشى بصائرنا أفلا نتمتع نحن بسلام كامل؟ بدون شك. فالسلام هو من نصيبنا والغبطة والأمان لنا بمقدار ما يمكن لمحبة الله أن تهبه لنا على أساس عمل المسيح الكامل.

وهل كان نوح مهتماً بلجج غضب الله؟ أبداً. إذ كيف كان يمكن له الاهتمام وهو يعلم أن «جميع» لججه قد عجّت، بينما كان هو مرفوعاً فوقها بواسطة تلك المياه نفسها إلى جو السلام الذي لا يشوبه كدر. فالمياه التي دين بها «كل بشر» كان مرفوعاً بها إلى شاطئ السلام حيث لا تأتي دينونة، لأن الله بنفسه هو الذي أوصله إلى هناك. وكان يمكنه أن يقول بلسان رومية ٨ «إن كان الله معنا فمن علينا؟» لأن الرب نفسه هو الذي دعاه كما نقرأ في العدد الأول من الأصحاح السابع «أدخل أنت وجميع بيتك إلى الفلك» (٧:١)، وبعدما دخل إليه نقرأ أيضاً «وأغلق الرب عليه» (ع١٦).

ولا ريب أن جميع الذين كانوا داخل الفلك قد أصبحوا في دائرة الأمان والإطمئنان الكامل، لأن

* لا يخفى على القارئ الفَطن مقدار الحكمة البالغة التي يستعملها الروح القدس عند الكلام على فريضة العماد في العبارة المتقدمة. وكلنا نعلم ما وصلت إليه هذه الفريضة من سوء الاستعمال ووضع الشيء في غير محله وما نسب إليها من العمل الخاص بدم المسيح وحده إذ استبدلوه بالماء وحولوا نعمة الولادة الثانية بالروح القدس إلى مجرد المعمودية بالماء. أما الوحي فيحترس جداً من جهة هذا الموضوع ونحن يحق لنا أن نعجب بالأسلوب البديع الذي يحتاط به الروح القدس إذ يقول أن المعمودية ليست مجرد إزالة وسخ الجسد «بل سؤال ضمير صالح عن الله». لا شك أن العماد كفريضة مرتبة من الله بتعيين إلهي لها محل وأهمية عظمى ولكننا متى رأينا الناس يستبدلون الجوهر بالرمز. فنحن مكلفون أن نبين فساد عمل الشيطان بواسطة نور كلمة الله.

الرب أغلق الباب فلا يقدر أحد على الدخول أو الخروج بدونه، على أن الفلك كان له باب وطاقة أيضاً. أما الباب فإن الرب كان قد ختمه بيده القوية ولكن الطاقة ترك أمرها مع نوح حتى يستطيع أن يرفع بصره نحوها فيرى دينونة الله واقعة. ويتأكد من ذلك أنه لم تبق دينونة عليه. فالعائلة المُخلَّصة لم يسعها إلا أن توجه بصرها إلى فوق لأن الطاقة كانت فوق (ص٦:١٦) أما مياه الدينونة والموت والهلاك بسبب الطوفان فلم يبصروها لأن «خشب الجفر» أي خلاص الله كان فاصلاً بينهم وبين تلك الأمور. وما كان عليهم إلا أن يتطلعوا إلى فوق، إلى الجو الرائق، إلى مسكن الله الأبدي الذي دان العالم وخلّصهم.

ولا توجد جملة تعبر بوضوح عن سلامة المؤمن الكاملة في المسيح مثل عبارة «أغلق الرب عليه» لأنه من ذا يستطيع أن يفتح ما أغلقه الله؟ ولا واحد. وهكذا أصبحت عائلة نوح في أمان الله وحراسته. فلا قوة الملائكة ولا البشر ولا الأبالسة أجمعين تستطيع أن تفتح باب الفلك لتدخل إليه المياه. لأن اليد التي فتحت طاقات السماء وفجّرت ينابيع الغمر هي بذاتها اليد التي أغلقت على نوح باب الفلك. وهكذا نقرأ في رؤيا ٣:٧ عن المسيح «الذي له مفتاح داود الذي يفتح ولا أحد يغلق ويغلق ولا أحد يفتح» وهو الماسك في يده «مفاتيح الهاوية والموت» (رؤ١:١٨) فلا يستطيع أحد أن يدخل أبواب القبر أو يخرج منه إلا بأمره. لقد دُفع إليه كل سلطان في السماء وعلى الأرض، لقد جعله الله «رأساً فوق كل شيء للكنيسة» (مت٢٨:١٨؛ أف١:٢٢) والمؤمن موجود في دائرة الأمان فيه. لأنه من كان يستطيع أن يمس نوحاً؟ أو كيف كان يمكن للأمواج أن تنفذ داخل ذلك الفلك المطلي «من داخل ومن خارج بالقار»؟ وهكذا المؤمن الآن ترى من يستطيع أن يمسه إذا كان قد التجأ إلى الصليب؟ إن المسيح قد جرّد كل عدو وأشهره جهاراً ظافراً به. وموت المسيح قد أسكت كل صوت وألجم كل لسان، كما أن قيامته برهان رضى الله عن ذلك العمل الذي هو أساس بره في قبولنا وفي ثقتنا في الدنو منه.

وما دام فلك خلاصنا قد أُغلق بيد الله نفسه وصرنا في الأمان فلم يبق أمامنا سوى أن نتمتع بالكوة أو بعبارة أخرى نسير في غبطة وقداسة الشركة مع ذاك الذي أنقذنا من الغضب الآتي وأهلنا لشركة ميراثه وانتظار مجده.

إن الرسول بطرس يصف حال «أعمى قصير البصر قد نسى تطهير خطاياه السالفة» (٢بط١:٩) ولا شك أن الوجود في حال كهذا أمر محزن، وهو نتيجة التكاسل في الاجتهاد وعدم المواظبة على الشركة المقدسة مع من أدخلنا في المسيح وأغلق علينا إلى الأبد فيه.

والآن قبل أن نتقدم في تاريخ حياة نوح نتأمل قليلاً في حال الذين كان قد كرز لهم بالبر كل تلك السنين الطويلة. فإلى الآن كان كلامنا قاصراً على المُخلَّصين، وغرضنا أن نسوق الحديث الآن عن الهالكين. كان موضوع تأملنا الذين هم داخل الفلك فلننظر الآن إلى الذين هم خارجه. لا ريب

أن عيوناً كثيرة كانت تشخص نحو آنية الرحمة وهي تسبح فوق الماء ولكن واأسفاه «قد أُغلق الباب» ويوم الرحمة قد فات ووقت الشهادة قد مضى وانقضى من جهتهم. واليد التي أغلقت على نوح داخل الفلك قد أغلقت على أولئك خارجه. فليس في استطاعة هذا الخروج ولا في طاقة أولئك الدخول. فنوح وعائلته قد نجوا نجاة أكيدة والباقون هلكوا هلاكاً أبدياً لأنهم سخروا بطول أناة الله وهزأوا بشهادة عبده، وألهتهم الأمور الحاضرة، «كانوا يأكلون ويشربون ويزوجون ويتزوجون إلى اليوم الذي فيه دخل نوح الفلك وجاء الطوفان وأهلك الجميع» (لو١٧:٢٦ ، ٢٧).

هذه الأمور ليست محرمة في حد ذاتها، والعيب لم يكن في الأشياء التي مارسوها بل في من مارسوها. ويمكن للإنسان أن يؤدي أي عمل منها في خوف الله ولمجد اسمه القدوس، ولا حرج عليه إذا مارسها بالإيمان فقط. ولكن أولئك بكل أسف لم يمارسوها على هذه الصورة لأنهم رفضوا كلمة الله. فهو أخبرهم بالدينونة المقبلة وهم لم يؤمنوا ولا صدقوا الخبر، هو صرح بأنهم خطاة هالكون وهم لم يقتنعوا بذلك. ولكنه أيضاً أعلن لهم طريق النجاة وهم لم يبالوا، بل ساروا وراء أهوائهم وسلكوا في طرقهم بحسب أفكارهم بدون إعطاء الوقار لله. وعاشوا في الدنيا كأنهم فيها خالدون وقد امتلكوها إلى الأبد ونسوا أنه يوجد ميعاد ووقت للحساب، ولم يخطر على بالهم أمر المستقبل ورفضوا الله. وأصبح «كل تصور أفكار قلبهم إنما هو شرير كل يوم»، فما استطاعوا أن يصنعوا خيراً بل كانت مشغولية أفكارهم وأقوالهم وأعمالهم في أنفسهم، لذلك تمموا شهواتهم ونسوا الله.

والآن أيها القارئ تذكر أقوال ربنا يسوع المسيح التي نطق بها «وكما كان في أيام نوح كذلك يكون أيضاً في أيام ابن الإنسان» (لو١٧:٢٦) نعم إن البعض يريدون أن يقنعونا أنه قبل ظهور ابن الإنسان في سُحب السماء تكون الأرض قد تغطت بالبر من أقصائها إلى أقصائها، وكأنهم يعلموننا أن ننتظر ملكوت البر والسلام نتيجة للمساعي الحاضرة، ولكننا نسأل مثل هؤلاء كيف كان الحال في أيام نوح؟ هل غطى البر حينئذ وجه الأرض كما تغطي المياه البحر؟ وهل كان حق الله مالكاً هنا؟ وهل كانت الأرض ممتلئة من معرفة الرب؟ الجواب موجود في كلمة الله «وامتلأت الأرض ظلماً» «إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض» «ورأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت» «وكذلك يكون في أيام ابن الإنسان» هذا الأمر بسيط جداً إذ يوجد فرق كبير بين «العلم» و«البر» وإذا فسدت الأرض فلا يقال إنها امتلأت سلاماً. وفهم هذه المسألة لا يحتاج إلا إلى قلب خاضع لكلمة الله غير متعصب للآراء البشرية، وبكل سهولة يميز وصف الأيام التي تسبق «مجيء ابن الإنسان» فلا يخدعن القارئ نفسه بل يخضع خاشعاً أمام كتاب الوحي ويتأمل أولاً في حال العالم قبل الطوفان ثم يتذكر قول الرب «كما كان» «كذلك يكون» في نهاية هذا الجيل. هذا كله واضح وبسيط ولا يختلف فيه إثنان ففي تلك الأيام لم يكن شيء اسمه سلام أو بر وهكذا قبل مجيء المسيح.

لا ريب أن الإنسان سعى في تحسين شئون العالم الاجتماعية ليعيش فيه هادئ البال قرير العين، ولكنه لم يكن بذلك قريراً لعيني الله لائقاً به. وكذلك في الوقت الحاضر تجد الإنسان باذلاً أقصى جهده في تذليل المصاعب التي تعترضه في الطريق ليسهل وعورتها ويمهد معوجاتها، ولكن هذا شيء آخر غير «أعدوا طريق الرب قوموا في القفر سبيلاً لإلهنا» وخلاف «المعوج مستقيماً والعراقيب سهلاً» (إش ٤٠: ٣، ٤) والمسالك المستقيمة التي يجب أن نصنعها لكي لا يعتسف الأعرج أو لكي يقبل الناس إلى طريق الخلاص. نعم إن المدنية تنتشر وتمتد كل يوم ولكن المدنية شيء والبر شيء آخر، فالتحسين والتزويق في تقدم مستمر ولكن ذلك إعداد لطريق ضد المسيح لا طريق المسيح. إن الحكمة الإنسانية تسدل ستاراً على عيوب الإنسان ونقائصه ولكنها لا تستطيع أن تمحوها، فهي مثل نار تحت رماد وإن بقيت مستورة مدة لابد وأن ينكشف أمرها وتعمل عملها. وهذا الطلاء لا يدوم ومتى زال بان ما تحته من العيوب وظهر الداء الدفين. وهي أشبه بسدود يقيمها الإنسان لصد تيار تعاسة الإنسان حتى إذا وصل تيار الشفاء أزال تلك السدود، وكل مساعي الإنسان التي يبذلها لتخفيف ويلات بني آدم الطبيعية والأدبية والفكرية إنما تضيع أدراج الرياح لأن شهادة الله قد سبقت بالحكم أن «نهاية كل بشر قد أتت أمامي» فهي لم تأت أمام الإنسان بل أمام الله. وبالرغم من أصوات القوم المستهزئين القائلين «أين هو موعد مجيئه لأنه من حين رقد الآباء كل شيء باقٍ هكذا من بدء الخليقة» فإن الوقت يقرب وحينئذ يشاهد أولئك المستهزئون رداً على سؤالهم أنه «سيأتي كلص في الليل يوم الرب الذي فيه تزول السماوات بضجيج وتنحل العناصر محترقة وتحترق الأرض والمصنوعات التي فيها» (٢بط٣: ٤-١٠) هذا هو جواب للمستهزئين من أبناء هذا العالم العقليين، ولكنه ليس جواب رغائب وآمال أولاد الله الروحيين لأن هؤلاء والحمد لله لهم وعد آخر أي ملاقاة العريس في الهواء قبل أن يكمل مكيال الإثم وقبل أن تنسكب جامات غضب ودينونة الله، فكنيسة الله لا تتوقع احتراق العالم بل بزوغ «كوكب الصبح المنير».

على أنه مهما كان الوجه الذي ننظر منه إلى المستقبل ومهما تعددت الرغائب والأغراض سواء نظرنا إلى الكنيسة في مجدها أو العالم في احتراقه بالنار وسواء توقعنا العريس أو هجوم اللص في نصف الليل، سواء انتظرنا كوكب الصبح أو الشمس المحرقة سواء كان من جهة الانتقال أو الطوفان فيهمنا أن لا نغفل أهمية شهادة الله بالنعمة للخطاة في الوقت الحاضر «هوذا الآن وقت مقبول هوذا الآن يوم خلاص» (٢كو٦: ٢) «أي أن الله كان في المسيح مصالحاً العالم لنفسه غير حاسب لهم خطاياهم» (٢كو٥: ١٩) فالمصالحة تجرى الآن وبعد قليل الدينونة. الآن وقت النعمة وأما أخيراً فيوم النقمة. الآن مسامحة الخطايا بالصليب أما أخيراً فهلاك في جهنم إلى الأبد. هوذا هو يقدم الآن رسالة نعمة مجانية غنية مبشراً الخطاة بفداء كامل بدم المسيح الثمين معلناً صريحاً أن

كل شيء قد انتهى وأنه ينتظر بالرحمة «احسبوا أناة ربنا خلاصاً» (٢بط٣:١٥) «لا يتباطأ الرب عن وعده كما يحسب قوم التباطؤ لكنه يتأنى علينا وهو لا يشاء أن يهلك أناس بل أن يقبل الجميع إلى التوبة» (٢بط٣:٩) كل هذا يجعل الوقت الحاضر خطيراً، لأن النعمة تُقدَّم الآن مجاناً ولكن غضب الله معلن من السماء، ويا لخطورة الأمر بل يا لشدة خطورته!

ومن هنا يتضح لنا أهمية معرفة مقاصد الله المعلنة لنا في كلمته. ومتى سرنا في نور الوحي الإلهي فلا نكون كمن يتخبط في ظلمة الليل وهو لا يعلم أين يمشي ولا إلى أين المصير، بل نعرف مصيرنا ونعرف الطريق. ونفهم نتيجة المبادئ العاملة في العالم الآن ونحترس من أن ننساق إليها عالمين الوجهة التي نتجه إليها. فالناس يحلمون بعصر ذهبي وينتظرون وقتاً سعيداً ترتقي فيه الصنائع والفنون حاسبين أن الغد أفضل من اليوم، ولكن هذه كلها أضغاث أحلام وأماني باطلة وأوهام فارغة أما المؤمن فيرى الجو مكفهراً وملبداً بالغيوم والدينونة مقبلة ويوم الغضب قريب. حينئذ سوف يغلق الباب.

ومن هنا نرى حاجتنا إلى رفع صوت التحذير لكي نُبطل بشهادة الله ادعاء الإنسان. صحيح أننا عندما ننادي هكذا نُعّرض أنفسنا لتهمة آخاب ضد ميخا بأنه نبي الشر، ولكن ذلك لا يهمنا. لأننا نتنبأ بما تنبئ به كلمة الله وغرضنا من ذلك أن «نقنع الناس» فكلمة الله تنزع من تحت أقدامنا أساساً واهياً لكي تضع مكانه أساساً راسخاً لا يتزعزع، فهي تنزع «رجاء باطلاً» وتعطينا بدلاً عنه «رجاء لا يخزي» تأخذ منا «قصبة مرضوضة» وتقدم لنا «صخر الدهور» تردنا عن أن نحفر «آباراً آباراً مشققة لا تضبط ماء» لتوردنا «ينبوع ماء حي» هذه هي المحبة الصحيحة هذه هي محبة الله. فهو لا يقول «سلام سلام ولا سلام» ولا يخدعنا بكلام ملق بل يريد أن يجذب قلب الخاطئ ليستريح في فلك نجاة الله الأبدية متمتعاً بالشركة الحاضرة معه فرحاً في ذلك الرجاء المبارك أنه متى انقضت الدينونة وانتهى هذا الويل والشقاء حينئذ يتمتع معه في أزمنة رد كل شيء.

والآن لنعد إلى نوح ونتأمل في مركزه الجديد. فقد رأيناه يبني الفلك وشاهدناه مستريحاً في الفلك والآن نريد أن نتأمل فيه وهو خارج من الفلك آخذ مركزه في العالم الجديد*

«ثم ذكر الله نوحاً» (١:٨).

* وهنا أنبه القارئ أن يتأمل بالخشوع والصلاة في أمر له أهمية عند الذين يدرسون ما يعبر عنه «بتدبير الأزمنة» وذلك بالنظر إلى أخنوخ ونوح. فالأول كما شاهدنا نُقل قبل وقوع الدينونة والثاني مرّ في الدينونة، ويرى الباحثون أن أخنوخ رمز الكنيسة التي ستنقل قبل أن يتفاقم الشر البشرى وتحل الدينونة أما نوح فيمثل البقية الإسرائيلية التي ستجوز وسط غمار الآلام وتمحص بنار الدينونة قبل أن تتمتع ببركة الألف السنة بحسب عهد الله الأبدي ومن رأيي أن هذا التعبير ينطبق على الشخصين المذكورين ويوافق تعاليم الكتاب المقدس في العهدين القديم والجديد.

لأن الدينونة كانت قد انقضت، ذكر الله نوحاً وعائلته المُخَلَّصَة معه

«وأجاز الله ريحاً على الأرض فهدأت المياه وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء. فامتنع المطر من السماء» (٢:٨)

ثم أشرقت الشمس وأرسلت أشعتها على عالم قد تعمّد بمعمودية الدينونة. والدينونة هي «عمل الله الغريب» ولكنه لا يُسَر بالدينونة بل يتمجّد فيها. وهو تبارك اسمه يريد في كل حين أن ينتهي من اجراء الدينونة ليصنع رحمة لأنه يُسَر بعمل الرحمة.

«وحدث من بعد أربعين يوماً أن نوحاً فتح طاقة الفلك التي كان قد عملها وأرسل الغراب فخرج متردداً حتى نشفت المياه عن الأرض» (٦:٨، ٧)

إن الطائر النجس حين أعطيت له الحرية وجد لنفسه بدون شك جثة ميتة (جيفة) فوقف عندها، لذلك لم يرجع إلى الفلك. أما الحمامة فلم تسلك هكذا

«فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها. فرجعت إليه إلى الفلك .. وعاد فأرسل الحمامة من الفلك. فأتت إليه الحمامة عند المساء وإذا ورقة زيتون خضراء في فمها» (٩:٨-١١).

وفي هذا رمز جميل للذهن المتجدد الذي لا يجد في وسط الجدوبة والنشوفة التي تحيط به راحة سوي في المسيح وليس ذلك فقط بل يتمسك بعربون ميراثه، وفي ذلك برهان على أن الدينونة قد انقضت وأمامه أرض متجددة تتجلى ببهائها أمام عينيه. أما الإنسان الطبيعي فبعكس ذلك يستقر عند أي شيء ويستريح على أي حال، إذا وجد شيئاً نجساً يأكل منه ولا يبالي، أما «ورقة الزيتون الخضراء» فلا تلذ له. لأنه يجد أعوازه في دائرة الموت هذه، ومن ثم فلا يبالي بالعالم الجديد ولا بأمجاده. أما القلب الذي تهذب وتثقف بروح الله فلا يهدأ له بال ولا يتلذذ إلا بما يتلذذ به هو. راحته في فلك نجاته «إلى أزمنة رد كل شيء» وياليت هذا هو الحال معي ومعك أيها القارئ المحبوب. ياليت الرب يسوع يكون نصيب وملجأ قلوبنا حتى لا نبحث عن نصيب أو ملجأ لنا في عالم موضوع تحت دينونة الله. فالحمامة رجعت إلى نوح متوقعة أن تستريح معه في راحته وهكذا نحن يجب أن نلتجئ إلى المسيح إلى أن يأتي زمان تمجيده ورفعته في العصور القادمة لأنه «سيأتي الآتي ولا يبطئ» (عب ٣٧:١٠) ولكننا نحتاج إلى الصبر. يا ليت الله يقود قلوبنا إلى محبته وإلى صبر المسيح.

«وكلم الله نوحاً قائلاً. اخرج من الفلك» (ع١٥).

فالله الذي سبق في الماضي وقال لنوح «اصنع لنفسك فلكاً» وبعد ذلك «ادخل إلى الفلك» هو

الذي يقول الآن «اخرج من الفلك» فخرج نوح من الفلك «وبنى مذبحاً للرب» (ع ٢٠) وما أحلى الطاعة، فطاعة الإيمان وعبادة الإيمان متلازمتان. وقد بنى المذبح في المكان الذي كان أولاً مشهداً للموت والدينونة. وقد حمل الفلك نوحاً وعائلته آمنين فوق مياه الدينونة، ونقلهم من العالم القديم إلى العالم الجديد حيث أخذ نوح مركزه كساجد* وليلاحظ القارئ أنه بنى المذبح «للرب». أما التقليدي فأقل فكر كان يخطر على باله هو أن يعبد الفلك الذي كان واسطة خلاصه لأن القلب البشري ميّال من طبعه أن يستبدل الله بترتيب الله. نعم إن الفلك كان مرتباً من الله ولكن إيمان نوح تجاوز الفلك إلى إله الفلك لذلك لما خرج منه لم يلق بصره عليه ولا اتخذه معبوداً أو موضوع إكرام وسجود بل بنى مذبحاً للرب وله وحده سجد أما الفلك فلم نعد نسمع له ذكراً فيما بعد.

من هنا نتعلم درساً مع أنه بسيط لكنه لازم جداً في الوقت الحاضر. ذلك أن القلب متى حاد عن حقيقة من هو الله نفسه عندئذ لا حدود لانحداره، فقد يصل به ذلك إلى أضل عبادة أصنامية. وفي نظر الإيمان، لا قيمة للفرائض في إستحضار الله كقوة حياة للنفس، إلا إذا كان الإيمان ممسكاً ومتمتعاً بالمسيح حسب إعلانه هو لذاته. وبدون ذلك فلا قيمة لها مطلقاً، بل إن الفرائض إذا وضعت ولو بدرجة قليلة بين القلب وبين عظمة الله وعظمة عمله، عندئذ لا تصبح مطلقاً وصايا الله بل وسائل في يد الشيطان في جذب النفس، وإذا كان لها أقل تأثير على علاقة القلب بعمل المسيح الثمين وشخصه المجيد فلا تصبح فريضة إلهية بل خدعة شيطانية. أما في نظر التقليدي فالفرائض أهم شيء بينما يكون الله بعيداً عن الفكر، واسم الله عنده يتخذه آلة لرفع شأن الفريضة لينشغف بها القلب البشري ويكون لها سيطرة على الذهن.

وهكذا الحال مع بني إسرائيل حين عبدوا الحية النحاسية. فالواسطة التي كانت سبب بركة لهم لأنها كانت بأمر من الله أصبحت موضوع عبادتهم لأن قلوبهم ابتعدت عن الله الحقيقي. وقد اضطر حزقيا أن يحطمها قطعاً ويسحقها معتبراً أنها مجرد «قطعة من نحاس» فهي في حد

---

* من المفيد أن نقارن موضوع الطوفان بفريضة العماد المهمة فى ذاتها لأن الشخص المعتمد حقيقة أى الذى (كما يقول الرسول) «يطيع من القلب صورة التعليم التى تسلمها» هو الذى قد انتقل من العالم القديم إلى العالم الجديد بالإيمان. وتغطيسه فى الماء يشير إلى كون الإنسان العتيق قد دفن ولم يبق له اعتبار فى الوجود ولا محل له من جهة طبيعته أى أنه بالاختصار قد مات ،إذ الدفن يشير إلى أن ذلك الإنسان انتهى أمره من جهة طبيعته، وصفته، ومركزه ووجوده. والجسد بكل متعلقاته من خطايا وآثام ومسئولية قد دفن فى قبر المسيح فلا يعود يظهر أمام الله وخروج المؤمن من الماء يشير إلى حقيقة امتلاكه حياة جديدة هى حياة المسيح المُقام إذ لو لم يكن المسيح قد قام من الأموات لبقى المؤمن مدفوناً إشارة إلى حقيقة مركزه بحسب طبيعته. ولكن ما دام المسيح قد قام من الأموات بقوة حياة لا تزول ورفع خطايانا إلى الأبد فنحن أيضاً نقوم، وذلك ما نشير إليه بخروجنا من الماء لأننا بنعمة الله بموت المسيح قد امتلكنا حياة جديدة مقترنة ببر الله «دفنا معه بالمعمودية للموت حتى كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضاً فى جدة الحياة» (انظر رو٦، كو٢، ١بط٣:١٨-٢٢) من هذا تتضح أهمية فريضة العماد والمعانى الجميلة التى تتضمنها.

ذاتها كانت «نحشتان» أي حية نحاس، وأما حين أمر بها الله فقد كانت سبب بركة. والإيمان يعتبرها كما يدعوها الوحي، أما التقليد فيعرض عن الوحي المعلن فيه قصد الله ويتخذ منها إلهاً معبوداً (انظر ٢مل ١٨:٤).

والآن أيها القارئ ألا ترى معي درساً عميقاً في ذلك لأوقاتنا الحاضرة؟ أما أنا فأرى ذلك جلياً لأننا عائشون في عصر عمّت فيه التقليدات وممارسة فرائض، والجو الذي يحيط بالكنيسة الإسمية قد امتلأ منها بحيث كاد يخنق النفوس ويحرمها من المسيح وخلاصه الكامل. ليس المعنى أن التقليد يُنكر صريحاً شخص المسيح أو صليب المسيح لأنه لو كان الأمر كذلك لانفتحت أبصار الأكثرين، ولكن الشر أكبر والمصيبة أخطر فالفرائض إنما تضاف على المسيح وعمله فيصبح خلاص الخاطئ غير متعلق على المسيح وحده بل على المسيح والفرائض معاً، وهكذا يُحرَم من المسيح بالمرة إذ المسيح والفرائض لا يتفقان معاً ومزجهما معاً يؤول إلى التمسك بالفرائض وحدها دون المسيح. هذه قضية يجب اعتبارها والتأمل فيها من كل المتمسكين بديانة الفرائض «إن اختتنتم لا ينفعكم المسيح شيئاً» فإما المسيح وحده وإما لا مسيح أصلاً. أما إبليس فيحاول أن يقنع الناس أن تعظيم شأن الفرائض بهذه الصورة يرفع شأن المسيح نفسه، بينما هو مقتنع أن نتيجة ذلك تكون الإعراض عن المسيح واتخاذه من الفرائض معبودات. وخلاصة القول كما قلت سابقاً أن التقليدي يعتبر الفرائض كل شيء والكافر المتهكم لا يعتبر الفرائض بشيء أما رجل الإيمان فيضعها في محلها المرتب لها من الله.

على أني أرى نفسي قد أطلت البحث في هذا الموضوع أكثر مما قصدت. ولذلك فإني ألخص فحوي باقي الأصحاح التاسع في عبارات قصيرة. ففيه نعاين العهد الجديد الذي تسير بموجبه الخليقة الجديدة بعد الطوفان وعلامة ميثاق عهد الله «وبارك الله نوحاً وبنيه وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض» لاحظ أن عهد الله مع الإنسان عند دخوله الأرض الجديدة ليس أن يملأوا جزءاً من الأرض بل الأرض كلها، وكانت غايته أن يتفرق نسله على وجه البسيطة كلها ولا يتجمع في نقطة واحدة معتمداً على قوة وحدته، وسنرى في الأصحاح الحادي عشر كيف أن الإنسان أهمل هذا الأمر وخالفه.

ونلاحظ هنا أيضاً أن خوف الخلائق الأخرى من الإنسان أصبح واضحاً لأن خدمتها للإنسان صارت منذ ذلك الحين نتيجة الخوف وصار الإنسان ينتفع بالحيوان حياً ومقتولاً. ومما نشاهده أيضاً تخلص الخليقة من طوفان آخر بموجب عهد أبدي من قِبَل الله، فالدينونة لا تعود تأخذ هذا الشكل فيما بعد «العالم الكائن حينئذ فاض عليه الماء فهلك. وأما السماوات والأرض الكائنة الآن

فهي مخزونة بتلك الكلمة عينها محفوظة للنار إلى يوم الدين وهلاك الناس الفجار» (٢بط٣:٦، ٧) فالأرض قد تطهرت مرة بالماء وستطهر ثانية بالنار ولا ينجو سوى أولئك الذين التجأوا إلى ذاك الذي جاز غمار الموت ومر وسط نار دينونة الله.

«وقال الله هذه علامة الميثاق ... وضعت قوسي في السحاب .. أني أذكر ميثاقي» (٩:١٢-١٥).

فالخليقة كلها مطمئنة من جهة عدم حدوث طوفان ثان بناء على عهد الله الأبدي، وقوس السحاب علامة لذلك الميثاق. وما ألذ التأمل في وعد الله، إنه ينظر إلى القوس عندما يظهر في السحاب ويستريح بحيث أن المسألة لم تصبح متعلقة على الإنسان العاجز الضعيف الذاكرة بل على الله الذي قال «إني أذكر». وما أحلى معرفة ما يذكره الله وما لا يذكره فهو يذكر وعده هو. أما خطايا شعبه فلا يذكرها. والصليب الذي هو أساس الوعد هو أساس محو الخطايا. حقاً إن الإيمان بذلك يريح القلب ويسكّن الضمير المنزعج.

«فيكون متى أنشر سحاباً على الأرض وتظهر القوس في السحاب» (٩:١٤).

هنا رمز جميل وإشارة لطيفة. فأشعة الشمس متى انعكست على السحاب المزمع أن يوقع الدينونة تهدّئ القلب، إذ تُذكّره بعهد الله وخلاص الله وأنه ذاكر ميثاقه. فأشعة الشمس تزداد جمالاً بالسحاب الذي تنعكس عليه، والقوس الذي يبدو في السحاب يذكرنا بالجلجثة حيث نشاهد سحابة الدينونة الكثيفة فوق حَمَل الله المبارك ومن حولها «كانت ظلمة على الأرض» ولكن تبارك اسم الله فالمؤمن يرى أيضاً وسط تلك السحابة الكثيفة أجمل قوس إذ يعاين أشعة محبة الله الأبدية تخترق تلك الظلمة وتنعكس على ذلك السحاب فيسمع القول «قد أُكمِل» من خلال ذلك الظلام وفيه إتمام مقاصد الله الأزلية، ليس من جهة الخليقة فقط بل من جهة شعب إسرائيل وكنيسة الله أيضاً.

هذا وفي بقية هذا الفصل نقرأ عن مشهد لا يدع للإنسان باباً للكبرياء لأن سيد الخليقة قد عجز عن أن يحكم نفسه.

«وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً. وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه» (٩:٢٠، ٢١).

وياله من حال تعيس وُجد فيه نوح ذلك البار الوحيد وكارز البر. إذ من هو الإنسان وأسفاه! كيفما نظرنا إليه فلا نجد فيه سوي الفشل. ففي وسط الجنة ظهر عجزه؛ وفي الأرض الجديدة ظهر فشله، وفي أرض كنعان ظهر فشله؛ وفي الكنيسة ظهر فشله، وحتى في ملك الألف السنة سيظهر

فشله أيضاً. فهو عاجز عاجز، لا يصدر منه شيء صالح مطلقاً مهما كانت ظروفه مناسبة وامتيازاته عظيمة والمركز الذي يأخذه سامياً. لأن طابعه المميز دائماً هو الفشل والخطية.

على أننا يجب أن ننظر إلى نوح من وجهين : في شخصه، وبصفته رمزاً أيضاً. أما في ذاته فكله خطية وجهل، أما باعتباره رمزاً ففيه معان بديعة وجميلة، وقد شهد الوحي عنه قائلاً « ...كان نوح رجلاً باراً وكاملاً في أجياله. وسار نوح مع الله » (٦:٩) لأن نعمة الله سترت عيوبه وغفرت ذنوبه وألبسته ثوب البر. ومع أن نوحاً «تعرّى» ولكن الله لم يَر عريه لأنه لم ينظر إلى شخصه في ضعف طبيعته بل في بر الله الأبدي. ومن ذلك نفهم بُعد حام عن الله وعن أفكاره من نفس سلوكه. لأنه واضح أنه لم يعرف شيئاً عن تطويب من غُفرت آثامه وسُترت خطيته، أما سام ويافث فقد ظهر من سلوكهما بعكس ذلك، مثال معاملات الله للإنسان بسترهما عورته ـ ومن ثم فقد ورث هذان البركة أما حام فقد ورث اللعنة.

الأصحاح العاشر

في هذا الفصل ذكر مواليد بني نوح الثلاثة ولكننا نتكلم بنوع خصوصي عن نمرود مؤسس مملكة بابل المذكورة في مواضع عديدة من كتاب الوحي. واسم بابل معروف ومشهور وله اسم ونفوذ كبير وقد تكرر وروده عدة مرات في صفحات الكتاب المقدس ابتداء من الأصحاح العاشر في هذا السفر إلى الأصحاح الثامن عشر من سفر الرؤيا، وذكرها مقترن بالعداء للشعب المختار ليشهد لله هنا على الأرض، ولكننا لا نقصد أن نعتبر بابل المذكورة في العهد القديم وبابل المذكورة في سفر الرؤيا واحداً. كلا. لأني معتقد أن تلك مدينة وأما هذه فعبارة عن نظام، ولكن اسم بابل سواء كانت المدينة أو النظام قد اشتهر بالعداء لشعب الله، وحالما وطئت أقدام بني إسرائيل في أرض كنعان نقرأ عن «الرداء الشنعاري» (البابلي) الذي تدنسوا به فكان سبب بلاء وهزيمة واضطراب. وهذه أول حادثة ذكر فيها تأثير بابل السيء على شعب الله. وكل مطالع للكتاب يفهم المركز الذي أخذته بابل في تاريخ شعب إسرائيل.

على أننا لا نستطيع أن نورد هنا جميع الفصول المذكور فيها اسم بابل، ولكني أنبه القارئ إلى هذه القضية وهي أنه كلما أقام الله لنفسه جماعة لتكون شاهدة له هنا على الأرض أقام الشيطان له «بابلاً» لإفساد تلك الشهادة، وإذا دعا الله اسمه على مدينة في الأرض ظهرت في الحال بابل. حتى إذا قرن اسمه بجماعة أخذت بابل شكل نظام ديني فاسد معبر عنها في كلمة الله «بالزانية العظيمة» و «أم الزواني ورجاسات الأرض» .. الخ. وبالاختصار فإن (بابل) هي الواسطة التي يقلد الشيطان بها عمل الله - سواء كان في إسرائيل قديماً أو في الكنيسة الآن، لأنك كيفما قلبت صفحات العهد القديم تجد بابل وإسرائيل على طرفي نقيض بحيث إذا ارتقت أمة إسرائيل انحطت بابل وإذا ظهرت هذه اختفت تلك، فحين عجز إسرائيل عن الشهادة لله نقرأ عن ملك بابل أنه تشدد وانتصر ونهب آنية بيت الله التي كان واجباً أن تُحفظ في مدينة أورشليم، ونقلها إلى مدينة

بابل. إلا أن إشعياء في نبوته البليغة يقودنا إلى وقت يكون فيه الحال بعكس ذلك فيمثل لنا نجم إسرائيل في صعود ونجم بابل في أفول. «ويكون في يوم يريحك الرب من تعبك ومن انزعاجك، ومن العبودية القاسية التي استُعبدت بها، أنك تنطق بهذا الهجو على ملك بابل وتقول: كيف باد الظالم بادت المُغطرسة؟ قد كسَّر الرب عصا الأشرار قضيب المتسلطين. الضارب الشعوب بسخطٍ ضربةً بلا فتور المتسلط بغضب على الأمم باضطهاد بلا إمساك. استراحت اطمأنت كل الأرض. هتفوا ترنماً .. منذ اضطجعت لم يصعد علينا قاطع» (إش١٤:٣-٨).

هذا من جهة بابل في العهد القديم. أما عن بابل العهد الجديد فأرجو القارئ أن يطالع الأصحاحين السابع عشر والثامن عشر من سفر الرؤيا حيث يجد وصفها ونهاية أمرها، وذلك بالمقابلة مع العروس امرأة الخروف. ومثل الرحى ستُلقى أخيراً في البحر، ومتى تلاشت من الوجود حينئذ نقرأ عن عرس الخروف والمجد والبركات التي ترافقه.

على أني لا أستطيع التوسع الآن في هذا الموضوع اللذيذ وإنما أشرت إليه لمناسبة ذكر اسم نمرود فقط. ولكني واثق أن القارئ الذي يتعب نفسه ويصرف وقتاً في مراجعة الشواهد الكتابية التي تبحث في هذا الموضوع لا يضيع تعبه سدى بل يستفيد من الدرس فائدة عظمى.

والآن لنرجع إلى الأصحاح الذي نتأمل فيه.

«وكوش ولد نمرود الذي ابتدأ يكون جباراً في الأرض. الذي كان جبار صيد أمام الرب. لذلك يقال كنمرود جبار صيد أمام الرب. وكان ابتداء مملكته بابل وأرَك وأكَّد وكلنة في أرض شنعار» (١٠:٨-١٠)

وهنا وصف مؤسس مدينة بابل، فمؤسسها كان «جباراً في الأرض» - «جبار صيد أمام الرب». هكذا تأسست مملكة بابل. وهو وصف ينطبق على ما ورد عنها في الكتاب المقدس من أوله إلى آخره. فذكرها دائماً مقترن بالتأثير والنفوذ الأرضي ولكنها تستعمل هذا النفوذ لمعاكسة ما هو سماوي. ولا يمكن أن نسمع من السماء هتاف النصرة القائل «هللويا قد ملك الرب الإله القادر على كل شيء» (رؤ ١٩:٦) إلا متى بادت بابل من على وجه البسيطة، حينئذ يُبطَل صيد بابل سواء كان في اقتناص الحيوانات البرية أو النفوس بقصد إفسادها فيزول سلطانها ومجدها، كبريائها وعظمتها، عزها ونورها، بهاؤها ولمعانها، نفوذها وتأثيرها. وتكتسح الهلاك الأبدي فتغوص في دجى ليل أبدي وظلمة موحشة لا نهاية لها «حتى متى أيها السيد!» (رؤ٦:١٠).

الأصحاح الحادى عشر

هذا الفصل يلذ جداً للإنسان الروحي إذ يجد فيه ذكر حادثتين جديرتين بالاهتمام وهما «بناء بابل» و «دعوة إبراهيم» أو بعبارة أخرى سعي الإنسان لخلاص نفسه من جهة، ودعوة الله المقترنة بالإيمان من الجهة الأخرى. في الحالة الأولى يقصد الإنسان أن يُعمّر الأرض وأما في الثانية فيُطلَب منه أن يخرج منها ويركض نحو نصيبه ووطنه في السماء.

«وكانت الأرض كلها لساناً واحداً ولغة واحدة. وحدث في ارتحالهم شرقاً أنهم وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك ... وقالوا هلم نبني لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسماء ونصنع لأنفسنا اسماً لئلا نتبدد على وجه الأرض» (١١:١-٤).

إن القلب البشري يريد دائماً أن يكون له اسم ونصيب ومركز في الأرض. فهو لا يعرف شيئاً عن رجاء السماء أو مجد السماء أو إله السماء. وإذا ترك لنفسه فآماله في الأرض السفلى، يحاول أن يبني تحت السماء. ولا يمكن أن يرتفع القلب البشري فوق أباطيل العالم الحاضر إلا بواسطة دعوة من الله وإعلان منه وقوة منه، لأن الإنسان من ذاته يتباعد عن الله ويتباعد عن السماء ويتعلق بالأرض. وفي المشهد المعروض أمام بصرنا الآن لا نجد من الإنسان اعترافاً بوجود الله ولا تطلعاً إليه وانتظاراً له ولا أن يجمع الأدوات اللازمة ليعمل مسكناً للرب. إن ذكر الله بكل أسف لم يكن له محل أصلاً، لأن غرض الإنسان من بناء مدينة وبرج إنما كان ليصنع لنفسه اسماً ويُخلّد ذكره هو. وسواء نظرنا إلى الإنسان على سهول شنعار أو في أي بقعة أخرى فهو هو بعينه المُعتَد بذاته الممجِّد نفسه البعيد عن الله. طرقه كلها تُحزن ومبادئه جميعها تُخجل، لأنه يقصد منها رفع شأنه والحط من كرامة الله.

ومن أي وجه نظرنا إلى اتحاد جمعية بابل فيهمنا أن نتأمل في نتيجة سعي الإنسان بالبعد

عن الله. ففي تاريخ الجنس البشري كله نلاحظ أن الناس يميلون إلى إنشاء اتحادات وتشكيل هيئات، كأن الإنسان يحاول أن ينال مأربه ويقضي غرضه بهذه الواسطة ويسعى في تنفيذ غايته بهذه الطريقة. وسواء كانت غايته دينية أو أدبية أو سياسية لا يمكنه الوصول إليها إلا بواسطة عمل هيئات منظمة. هذه قضية يجب الالتفات إليها والتأمل في المبدأ الذي تسير عليه. وهنا نجد الوحي الإلهي يسجل لنا تاريخ أول اتحاد التأم على سهول شنعار، ويرسم لنا غرضه وسعيه ونتيجة ذلك. ونحن إذا نظرنا حولنا نجد العالم مملوء بهذه الاتحادات على تعدد مشاربها وأغراضها ونزعاتها ولكن من المفيد أن نفهم أن أول هيئة من هذا القبيل كانت في شنعار. وقد تأسست على الأغراض الذاتية وتعظيم اسم البشر. وكيفما قلبنا الظروف نجد نفس هذه العوامل هي أساس كل اتحاد من هذا القبيل حتى في هذا العصر عصر المدنية والنور. وعيب هذه الاتحادات في نظر الإيمان هو في غضها النظر عن الله. ومتى حاول الإنسان أن يمجد ذاته ويرفع شأنه يصرف النظر عن الله. فلا يجني سوى الارتباك والخراب العاجل، أما المسيحي فلا ينبغي له أن يعرف سوى جماعة واحدة وهي كنيسة الله الحي التي يجمعها الروح القدس الذي حل على الأرض ليشهد لمجد المسيح ونزل من السماء ليعتمد المؤمنون به إلى جسد واحد فيصيرون مسكناً لله بالروح. أما بابل فهي على خلاف ذلك تماماً وستصبح أخيراً كما نعلم نحن « مسكناً لشياطين » (رؤ ١٨: ٢).

«وقال الرب: هوذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض. فكفوا عن بنيان المدينة» (١١: ٦-٨).

وهذه هي نهاية كل اجتماع بشري. وكما كان في ذلك الحين هكذا سيكون أخيراً أيضاً « هيجوا (تجمعوا) أيها الشعوب وانكسروا، واصغي يا جميع أقاصي الأرض. احتزموا وانكسروا! احتزموا وانكسروا! تشاوروا مشورة فتبطل. تكلموا كلمة فلا تقوم. لأن الله معنا » (إش ٨: ٩، ١٠) ولكن شتّان بين هذا الجمع وجمع الله للناس، ففي الأصحاح الثاني من سفر الأعمال نرى تنازل ذلك الشخص المبارك بالنعمة إلى الموضع الذي أوصلت الخطية الإنسان إليه. فإن الروح القدس قد أعطى الرسل النعمة أن يبلغوا رسالتهم إلى كل فرد بلغته ولسان أمته، وهو برهان صريح على رغبة الله في تبليغ رسالة نعمته إلى قلب كل إنسان بكل الطرق. أما الناموس الذي أعطى من على جبل النار فلم يُنشر بهذه الصورة. فإنه لما قصد الله أن يخبر الإنسان بما يجب أن يكون عليه تكلم بلسان واحد وأما حين قصد أن يعلن ذاته تكلم بألسنة مختلفة. وكأن النعمة بذلك

تهدم الأسوار التي بناها الإنسان في كبريائه وجهالته لكي يستطيع كل واحد أن يسمع ويفهم بشائر الخلاص وأعمال الله العجيبة. وماذا كانت غاية الله من هذا كله؟ غايته جمع الناس على أساس إلهي وحول مركز إلهي وعلى مبادئ إلهية. وفي حقيقة الأمر كان قصد الله أن يُوحِّد لغة البشر وغرضهم ومركزهم ورجاءهم وحياتهم. يجمعهم بكيفية لا يمكن بعدها أن يتشتتوا أو يتفرقوا، ويصنع لهم اسماً ومركزاً يبقى إلى الأبد، ويبني لهم مدينة وبرجاً، ليس فقط واصلاً إلى السماء بل أساسه في السماء، وذلك بيد الله القوية. كان قصده أن يجمعهم حول شخص المسيح المجيد المُقام من الأموات المرتفع إلى ذُري المجد، ويوحدهم في غرض واحد هو تعظيم شأن المسيح وعبادته.

وإذا رجع القارئ إلى الأصحاح الرابع من سفر الرؤيا وجد في آخره «كل الأمم والقبائل والشعوب والألسنة» واقفين أمام الخروف، وبلسان واحد مقدمين له التسبيح. وهكذا نجد الثلاثة الأسفار الإلهية متفقة معاً. ففي الأصحاح الحادي عشر من سفر التكوين نرى بلبلة الألسنة عنوان دينونة الله، وفي الأصحاح الثاني من سفر الأعمال نجد تعدد الألسنة عنوان نعمة الله، وفي الأصحاح السابع من سفر الرؤيا نشاهد اجتماع هذه الألسنة حول الخروف في المجد. فخير لنا إذاً أن نأخذ مركزنا في وسط جماعة الله من أن نوجد في وسط جماعات البشر، لأن الأولى نهايتها المجد أم الثانية فنهايتها التبلبل. الأولى تسير بقوة الروح القدس أما الثانية فبواسطة إنسان ساقط عديم القوة. الأولى غرضها مجد المسيح، أما الثانية فغرضها رفع شأن الإنسان بأية صورة كانت.

وأخيراً فإني أقول لكل من يريد أن يعرف وصف الجماعات البشرية وغرضها ونهايتها أن يطالع الأعداد الأولى من الأصحاح الحادي عشر من سفر التكوين، ومن جهة أخرى كل من يريد أن يعرف فضل وكمال وقوة جماعة الله الثابتة. عليه أن يتأمل في ذلك الجمع السماوي المقدس الحي المُعبَّر عنه في العهد الجديد تارة بكنيسة الله الحي وتارة بجسد المسيح أو عروس الخروف.

يا ليت الرب يهبنا أن نتأمل في هذه المسائل وندركها بقوة الإيمان لأن نفوسنا لا تنتفع من التأمل إلا إذا كان بهذه الصورة. والحقائق الإلهية مهما كانت مهمة والمعرفة الكتابية مهما كانت لازمة والدرس في كلمة الله مهما كان ثميناً قد لا يحصد منه القلب سوي النشوفة والبرودة. ونحن نحتاج أن نتمتع بالمسيح في الكلمة ونتغذى به بالإيمان، وفي ذلك لذة ومسحة وقوة وفاعلية نحتاج إليها في أيامنا الحاضرة التي أصبح كل شيء فيها صورياً، لأنه ما فائدة تعليم صحيح بدون مسيح حي معروف بكل قوته وجاذبيته الشخصية. لا ريب أن التعليم الصحيح له أهمية عظمى،

وكل خادم أمين للمسيح يشعر بأنه مُطالب ومُلزم بأن يتمسك «بصورة التعليم الصحيح» غير أن المسيح الحي هو جوهر التعليم الصحيح وخلاصته وزبدته وفحواه وقوته وحياته وروحه ومادته ومخاخه ومفاصله. يا ليتنا بالروح القدس نزداد في التمتع بالمسيح ونشبع بجماله وكماله وهكذا ننفطم عن روح بابل ومبادئها.

أما بقية الأصحاح الحادي عشر فنتأمل فيها إن شاء الله مع الأصحاح الذي بعد.

الأصحاح الثاني عشر

إن الجزء الأكبر من سفر التكوين مشغول بتاريخ سبعة أشخاص وهم هابيل وأخنوخ ونوح وإبراهيم واسحاق ويعقوب ويوسف. ولا شك أن حياة كل واحد منهم مقترن بها حق ما. ففي تاريخ هابيل مثلاً حقيقة إتيان الإنسان إلى الله بواسطة الكفارة - وهي حقيقة يدركها الإيمان وحده. وفي قصة أخنوخ نرى نصيب ورجاء العائلة السماوية. أما في تاريخ نوح فنعاين نصيب العائلة الأرضية. فأخنوخ نُقل إلى السماء قبل وقوع الدينونة أما نوح فقد جاز في وسط الدينونة ومنها دخل إلى الأرض بعد ردها. وهكذا نجد في كل قصة وجهاً من أوجه الحق باعتبار أوجه الإيمان المختلفة. ويمكن للقارئ أن يتتبع هذا الموضوع بكيفية أوفى إذا قارنه بالأصحاح الحادي عشر من رسالة العبرانيين، ولا شك عندي أنه يستفيد من بحثه إذا كلّف نفسه مشقة البحث، أما نحن فنتقدم الآن إلى موضوعنا وهو دعوة إبراهيم.

إننا إذا قارنا تكوين ١:١٢، ٣١:١١ مع أعمال ٢:٧-٤ نتعلم منها حقيقة عملية ذات قيمة لنفوسنا

«وقال الرب لإبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك» (١:١٢)

هذه هي الدعوة التي وصلت إلى سمع إبراهيم - وهي دعوة صريحة وقد صاغها الرب في قالب يؤثر على قلب إبراهيم وضميره. «ظهر إله المجد لأبينا إبراهيم وهو في ما بين النهرين قبلما سكن في حاران وقال له اخرج من أرضك ومن عشيرتك وهلم إلى الأرض التي أريك. فخرج حينئذ من أرض الكلدانيين وسكن في حاران. ومن هناك نقله بعدما مات أبوه إلى هذه الأرض التي أنتم الآن ساكنون فيها» (أع ٢:٧-٤) وفي أصحاح ٣١:١١ نقرأ عن تأثير هذه الدعوة وفعلها «وأخذ تارح أبرام ابنه ولوطاً ابن هاران ابن ابنه وساراي كنته امرأة أبرام ابنه. فخرجوا معاً من أور الكلدانيين .. وأقاموا هناك... ومات تارح في حاران» (٣١:١١).

وبمقارنة هذه الفصول الكتابية مع بعضها نجد أن صلة القرابة الطبيعية حالت دون خضوع

إبراهيم الكامل لدعوة الله. لأن الدعوة كانت أن يذهب إلى كنعان، أما هو فسكن في حاران. ولكن لما انحل رباط الصلة الجسدية بموت أبيه أطاع بدون إمهال وأخذ يسير متجهاً نحو المكان الذي دعي إليه من إله المجد. ولنا من ذلك فوائد روحية. ذلك أن تأثير العلاقات الإنسانية الطبيعية أحياناً تعيق التحقق الكامل والقوة العملية لدعوة الله في نفوسنا فنتقاعد عن الوصول إلى المركز الذي دعينا إليه ونرضى بأقل من دعوتنا الإلهية. ونحن محتاجون إلى بساطة الإيمان الصحيح لكي نبلغ إلى قياس فكر الله ونقبل ما أعلنه لنا ونخصصه لأنفسنا.

وفي أفسس ١٥:١ ـ٢٢ نرى كيف أن الرسول بولس في صلاته لأجل القديسين كان يشعر بواسطة الروح القدس بمقدار الصعوبة التي كانت تعترض الكنيسة في فهم ما هو رجاء دعوتها وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين. وواضح أننا إذا فشلنا في إدراك دعوتنا تماماً فسيصاحب ذلك فشل في سلوكنا بحسب ما يحق لتلك الدعوة. إذ يجب أن أعرف أولاً إلى أين أنا مدعو أن أذهب قبل أن أبدأ المسير. ولو كان إبراهيم مدركاً تماماً لحقيقة دعوة الله أنها كانت إلى كنعان التي فيها ميراثه لما تأخر لحظة في حاران. وهكذا الحال معنا. أي أن الروح القدس يقودنا إلى إدراك حقيقة دعوتنا السماوية، فلو فهمنا أن وطننا ونصيبنا ورجاءنا وميراثنا جميعها هي فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله لما كنا نتقاعد في الطريق أو نطلب لنا اسماً ونصيباً هنا ونكنز لنا كنوزاً على الأرض، لأن الأمرين على طرفي نقيض. إن الدعوة السماوية ليست مجرد تعليم فارغ أو نظرية بلا أساس أو ظن بلا يقين ولا قوة، بل هي حقيقة إلهية، وإلا فلا يكون لها اعتبار أو قيمة ما. لأنه هل كانت دعوة إبراهيم خيالاً ومجرد نظرية تصورها في مخيلته فأخذ يتكلم أو يدافع عنها بلسانه بينما هو ساكن في حاران؟ كلا، بل كانت حقيقة راهنة واقعة، حقاً إلهياً عملياً له تأثير وفاعلية. فالدعوة كانت إلى كنعان وما كان قصد الله أنه يتخلف ويسكن في حاران. هكذا كان أمر الله مع إبراهيم وهكذا حاله معنا الآن. وإذا أردنا أن نفوز برضى الله ونتمتع بحضوره معنا فيجب أن نسعى بالإيمان للعمل حسب الدعوة الإلهية، أي أننا نسعى للوصول عملياً واختبارياً وأدبياً إلى النقطة التي دعانا إليها الله، وهذه النقطة هي شركتنا مع ابنه، نشترك معه في رفضه وآلامه هنا، كما نشترك معه في قبوله ومجده هناك.

وكما أن الموت وحده هو الذي حل الرباط الطبيعي الذي كان يربط إبراهيم بحاران هكذا الحال معنا. فالموت وحده هو الذي يقطع علاقتنا مع العالم الحاضر. أي يجب أن نتحقق عملياً أننا متنا مع المسيح رأسنا وبديلنا وأن علاقتنا الطبيعية مع العالم قد انتهت. فالصليب لنا نحن يشبه البحر الأحمر لأمة إسرائيل، أي أنه يفصل بيننا وبين أرض الموت والدينونة، ومتى

تحققنا ذلك حينئذ نسير كما يحق للدعوة المقدسة التي دعينا إليها، «دعوة الله العليا في المسيح يسوع» (في٣:١٤).

وهنا أريد أن أتوسع قليلاً في موضوع الصليب من وجهيه الأساسيين الجوهريين أي باعتباره أساس عبادتنا وخدمتنا، سلامنا وشهادتنا ـ علاقتنا مع العالم وعلاقتنا مع الله.

فحين آتي إلى صليب ربنا يسوع المسيح كخاطئ شاعر بخطيتي أرى هناك أساس سلامي مع الله إلى الأبد إذ أرى خطيتي قد انتهت (أي أصل الخطية)، وخطاياي قد حُملت والله نفسه لي بكل يقين، لي كخاطئ مقتنع بشر حالي؛ وهكذا أجد الله صديقاً لي عند الصليب إذ هناك أعلن ذاته باراً ومُبرراً لأشر الخطاة. أما في الخليقة فلا يمكن لي أن أشاهد شيئاً من ذلك ولا في معاملات الله للإنسان، وغاية ما أعاينه فيها، قوة الله وجلاله وحكمته ولكن ماذا كنت أصنع لو قامت هذه الصفات ضدي كخاطئ؟ أما كانت تدينني في حد ذاتها؟ فالقوة والجلال والحكمة لا ترفع الخطية، وإذا أراد الله قبولي كخاطئ فلا يكون باراً مع هذه الصفات وحدها.

ولكن الصليب يغير هذه الأوجه جميعها فهناك أجد الله قد حل مشكلة الخطية بكيفية مجّد فيها ذاته بالتمام، إذ أرى جميع صفاته الإلهية متلائمة ومتفقة، هناك أرى المحبة البالغة التي تجذب القلب وتريحه، وتحوله عن كل غرض آخر بمقدار ما تتحقق النفس تلك المحبة. أرى الحكمة الإلهية التي تُفحم الأبالسة وتدهش الملائكة. أرى القوة الكاملة التي تُلجِّم كل معترض ولا تقوى عليها قوة. أرى القداسة الحقيقية التي تنفر من الخطية وتستشنعها بمقدار كراهة الله لها. أرى النعمة المجانية التي تقود الخاطئ إلى مقادس الله بل إلى صدره. وهل يمكن أن أجد اتفاق هذه الصفات جميعها سوي عند الصليب؟ كلا. وكيفما وجهت بصرك فلن تجد اتفاق هاتين العبارتين إلا هناك «المجد لله في الأعالي» «وعلى الأرض السلام».

وما أعظم قيمة هذا الصليب حقاً من هذا الوجه، أي بصفته أساساً لسلام الخاطئ، أساساً لعبادته، أساساً لعلاقته مع الله الذي أعلن ذاته بالصليب إعلاناً مجيداً مباركاً. بل ما أعظم قيمته لدى الله الذي استطاع بسببه أن يعلن كمالاته ومعاملاته بالنعمة للخاطئ. حقاً أن قيمته عند الله لا تقدر أو كما قال أحد الكتاب «إن كل ما نطق به الله أو صنعه منذ البدء يدل على أن هذه المسألة كانت شغل قلبه الشاغل. ولا عجب فإن ابنه العزيز الحبيب الوحيد كان مزمعاً أن يعلق بين السماء والأرض، ويكون موضوع الخزي والعار والألم من الناس والأبالسة. لأنه أحب أن يفعل مشيئة أبيه ويفتدي أبناء نعمته. وستكون هذه المسألة موضوع وبرهان محبته إلى أبد الآبدين».

والآن لنتأمل في الصليب بصفته أساس تدريبنا وشهادتنا وسيرنا هنا، ولا حاجة إلى أن أقول

أن الصليب من هذا الوجه كامل أيضاً. فالصليب الذي يربطني بالله هو نفسه الذي يفصلني عن العالم. وكما أنه واضح أن الميت لا علاقة له مع العالم هكذا المؤمن إذ مات في المسيح انتهت علاقته مع العالم، وإذ قام مع المسيح اقترن بالله بقوة حياة جديدة أو طبيعة جديدة. وإذ اتحد بالمسيح اتحاداً بلا فكاك فبالضرورة يشترك أيضاً معه في قبوله لدى الله ورفضه من العالم وهذان الأمران متلازمان. بواسطة الأمر الأول يصبح ساجداً لله، وطنه السماء، وبواسطة الأمر الثاني يصير شاهداً على الأرض غريباً فيها. الأول يدخل به إلى ما داخل الحجاب والثاني يخرج به إلى خارج المحلة وكلاهما كامل، لأنه إذا كان الصليب قد فصل بيني وبين خطاياي فقد فصل أيضاً بيني وبين العالم. في الحالة الأولى صار لي سلام مع الله وفي الحالة الثانية صارت عداوة بيني وبين العالم، وهذه العداوة أدبية، وإن كنت من وجه آخر أصبح في وسطه الشاهد المتواضع الصبور، لنعمة الله الغنية الأبدية التي لا حد لها كما بانت بالصليب.

ويجب على القارئ أن يفهم ويميز جلياً الفرق بين الوجهين السابق شرحهما فلا يحق له أن يدّعي أنه متمتع بأحد الوجهين بينما هو يرفض التمسك بالوجه الآخر. وإذا كانت أذنه مفتوحة لسماع صوت المسيح داخل الحجاب فيجب أن تكون مفتوحة لسماع صوته خارج المحلة، وإذا اشترك في فوائد الكفارة التي صنعت بواسطة الصليب فينبغي له أيضاً أن يشترك في الرفض الذي يستلزمه الصليب نفسه. فالأمر الأول يخص جانب الله في الصليب والثاني يخص جانب الإنسان فيه، وامتيازنا الجميل ليس في كوننا قد انتهينا من مسألة الخطايا فقط بل من العالم أيضاً. هذا كله متضمن في تعليم الصليب. وما أحسن قول الرسول بولس في هذا الشأن «حاشا لي أن أفتخر إلا بصليب ربنا يسوع المسيح الذي به قد صُلب العالم لي وأنا للعالم» (غل٦:١٤) فالرسول اعتبر العالم كشيء قد سُمّر على خشبة الصليب، والعالم الذي صَلب المسيح قد صَلب أيضاً كل تابعيه. إذاً فعلى الصليب قد صُلب المؤمن وقد صُلب العالم أيضاً ومتى كان هذا الحق مفهوماً جيداً فإن فكرة إندماج الإثنين معاً تصبح بعيدة الاحتمال. أيها القارئ الحبيب أرجوك أن تتأمل معي بروح الصلاة والخشوع والأمانة في هذه الأمور. وياليت الروح القدس يهبنا أن نتمتع بقوة وفاعلية كلا الوجهين السابقين لصليب المسيح.

والآن لنرجع إلى موضوع تأملنا.

إن الوحي لا يخبرنا كم من الزمن لبث إبراهيم ساكناً في حاران إلا أن الله على كل حال من رحمته قد تأنى على عبده إلى أن تحرر من صلة القرابة الطبيعية فأخلص الطاعة لأمره. ولكن الله لم يوفق بين الأمر وظروف إبراهيم الطبيعية، لأن هذا لا يفيد. ومحبة الله لعبده أعلى من أن

تحرمه لذة وبركة الطاعة الكاملة، لذلك لم يعلن الله لإبراهيم إعلانات جديدة مدة تغربه في حاران. ويجب أن نفهم معنى ذلك أي أنه ينتظر منا دائماً أن نسلك بحسب النور الذي يكون قد بلغنا ومتى فعلنا ذلك يقدم لنا نوراً جديداً، لأن المبدأ الإلهي هو «من له سيُعطى ويُزاد» (مت ١٣: ١٢) ولكن يجب أن نتذكر أن الله لا يجرنا في طريق التبعية القلبية له جراً. لأن ذلك لا يليق بكمال معاملات الله الأدبية ويحط من قدرها. فهو لا يجرنا جراً بل يجتذبنا اجتذاباً نحو الطريق الذي فيه نتبارك بشخصه المبارك. وإذا كنا لا نرى الفائدة الحقيقية التي تنتج لنا من تكسير كل القيود الطبيعية لكي نتمم دعوة الله لنا فإن الخسارة تصيبنا نحن. وإذا أخذنا نفكر في الصعوبات التي تعترضنا في الطريق والخسائر المادية التي نتكبدها، عوضاً عن التقدم في سبيل الطاعة باشتياق عالمين محبة ذاك الذي وصلت دعوته إلى آذاننا فلا يمكن لقلوبنا أن تتمتع ببركات الطاعة.

وإذا سلكنا في طريق الطاعة الحقيقية ففي كل خطوة نجد بركة لنفوسنا. لأن الطاعة هي ثمر الإيمان. والإيمان يأتي بنا إلى علاقة وشركة حية مع الله نفسه. وإذا نظرنا إلى الطاعة من هذا الوجه نستطيع أن نميز بسهولة الفرق بينها وبين أعمال الناموس. فإن هذه تكلف الإنسان بخدمة الله وحفظ الناموس بينما تكون أثقال خطاياه على رأسه لذلك تبقى النفس في عذاب. وعوضاً عن الركض في سبيل الطاعة لا يمكنها أن تخطو خطوة واحدة في ذلك الطريق. أما الطاعة الحقيقية فهي بعكس ذلك لأنها تصدر من طبيعة جديدة معطاة بالنعمة. والله من جوده يقود هذه الطبيعة الجديدة بمبادئ إلهية. والطبيعة الإلهية متى سارت بموجب مبادئ إلهية لا يمكن أن يقال عنها إنها هي وأعمال الناموس سواء، لأن أعمال الناموس تقوم بمحاولة الطبيعة العتيقة إتمام مطاليب الله. ومحاولة إصلاح طبيعة الإنسان الساقط بناموس الله العادل المقدس عبث وبلا فائدة بالمرة. إذ كيف يمكن للطبيعة العتيقة الساقطة أن تستنشق هواء جو نقي كهذا؟ مستحيل. إذاً يجب أن يكون الجو والطبيعة من الله على السواء.

على أن الله لا يعطي فقط طبيعة إلهية ويقود تلك الطبيعة بمبادئ سماوية، بل أيضاً يضع أمام تلك النفس رجاءً وانتظاراً يوافقها. هكذا كان الحال مع إبراهيم فقد ظهر له «إله المجد» ولماذا؟ لكي يضع أمامه رجاء يجتذب قلبه «الأرض التي أُريك»، لا عن اضطرار بل باختيار. وأرض الله كانت في نظر الطبيعة الجديدة أي في نظر الإيمان أفضل بكثير من أور أو حاران. ولو أنه لم يكن قد رأى الأرض بعد ولكن بالإيمان وثق أنها ما دامت أرض الله فامتلاكها أولى، وليس ذلك فقط بل يهون التخلي عن كل شيء سواها في سبيل الحصول عليها. لذلك نقرأ أنه «بالإيمان إبراهيم لما دعي أطاع أن يخرج إلى المكان الذي كان عتيداً أن يأخذه ميراثاً فخرج وهو لا يعلم إلى أين يأتي» بمعنى أنه

بالإيمان سلك لا بالعيان فإن لم يكن قد رأى بعينيه فقد آمن بقلبه فأصبح الإيمان دافعاً لنفسه على المسير. والأساس الذي يبني عليه الإيمان أمتن من الأدلة المحسوسة، لأنه يبني على كلمة الله. فقد تخدعنا حواسنا أما كلمة الله فلا تخدعنا البتة.

على أن هذه الحقائق جميعها من جهة الطبيعة الجديدة الإلهية أو المبادئ التي تقودها أو الرجاء الذي يحييها ـ وبالاختصار كل تعليم إلهي وارد في هذا الشأن ـ يناقضه مبدأ أعمال الناموس. فمعلم الناموس يكلفنا أن نتخلى عن الأرض أولاً لننال السماء، ولكن قل لي كيف يمكن للطبيعة الساقطة أن تتخلى عن متعلقاتها؟ وكيف تميل إلى ما لا ترى فيه لذة؟ لأن السماء لا تلذ لطبيعتنا ولا تستريح فيها أصلاً. فلا هي ولا من فيها ولا ما فيها يجتذب عواطف الطبيعة القديمة. ولو أمكن وصول الطبيعة الأولى إلى هناك لكان في ذلك نفس شقائها. إذاً فهذه الطبيعة لا تستطيع أن تترك الأرض، ولا رغبة لها في السماء. صحيح أنها تريد أن تنجو من الجحيم وعذاباته وظلمته وشقائه ولكن الرغبة في النجاة من الجحيم ورغبة الوصول إلى السماء أمران صادران من ينبوعين مختلفين. الأول قد تجده في الطبيعة العتيقة، وأما الثاني فلن تجده إلا في الجديدة. بحيث إذا لم تكن «بحيرة نار» أو «دود لا يموت» في جهنم لَمَا نفرت منها الطبيعة. وهكذا قُل عن كل رغائب ومشتهيات الطبيعة القديمة. فمعلم الناموس ينهاك عن الخطية قبل أن تنال البر مع أن طبيعتك تكره البر وتمقته وليس في وسعها ترك الخطية. صحيح أنها تريد أن يكون لها دين ولكن غرضها من التدين هو التخلص من نار جهنم. فهي لا تريد الدين لأنه يُدخل النفس إلى التمتع بمحضر الله وبطرقه.

أما «إنجيل مجد الله المبارك» فيختلف عن تعليم الناموس من كل الوجوه. إذ فيه يُعلن الله ذاته متنازلاً بالنعمة الكاملة لرفع الخطية ومحوها تماماً بذبيحة الصليب على أساس بر الله الأبدي، لأن المسيح قد تألم بسببها إذ صار خطية لأجلنا. على أننا لسنا نرى الله يرفع الخطية فقط بل يعطي حياة جديدة هي حياة قيامة ابنه المُمجّد والمرتفع إلى ذروة المجد. وهذه هي الحياة التي ينالها كل مؤمن حقيقي بواسطة اتحاده بحسب مشورات الله الأزلية بمن سُمّر على الصليب مرة، ولكنه الآن جالس في يمين العظمة في الأعالي. وهو يقود هذه الطبيعة الجديدة بنعمته كما قلنا بواسطة كلمته وعمل روحه القدوس، إنه ينهضها بآمال يقينية ثابتة، فترى من بعيد «رجاء مجد» و «مدينة لها أساسات» و «وطناً أفضل أي سماوياً» و «منازل كثيرة» في بيت الآب و «قيثارات من ذهب» و «ثياباً بيضاً» و «ملكوتاً لا يتزعزع» و «وجوداً معه إلى الأبد» وارتباط أبدي به في مجده ونوره حيث لا يدخل حزن ولا توجد ظلمة بل تمتع أبدي بمياه الراحة والمراعي الخضر ـ مياه ومراعي محبته الفدائية. وشتّان بين هذا الترغيب وإرهاب الناموس. فهو لا يكلفني بأن أتبع

أنظمة دينية أو ترتيبات بشرية لإصلاح ما فسد من طبيعتي لكي أسعى نحو سماء لا حاجة بي إليها وأترك أرضاً فيها كل آمالي، بل بالنعمة وعلى أساس ذبيحة المسيح الكاملة يهبني طبيعة جديدة بها أتلذذ بالسماء التي تلذ لتلك الطبيعة، ولكنه لا يعطيني السماء فقط بل أيضاً يعطيني نفسه وفيه نبع كل فرح ولذة سماوية.

هذا هو طريق الله الأفضل. هذا هو طريقه مع إبراهيم. بل هذا ما عمله مع شاول الطرسوسي. وعلى هذا المثال يقودنا نحن الآن، فإله المجد قد أعلن لإبراهيم وطناً أفضل من أور ومن حاران، وأظهر لشاول الطرسوسي مجداً كان لمعانه كفيلاً بأن يجعله يغلق عينيه عن كل لمعان ومجد أرضي حتى حسب كل مجد أرضي «نفاية» لكي يربح ذلك الشخص المبارك الذي ظهر له وأدركه وبلغ صوته إلى أعماق نفسه. فالمسيح الذي رآه كان مسيحاً سماوياً ممجداً. ورغماً عن ضعف الآنية الخزفية التي وصلها ذلك الكنز فقد بقى كل حياته لا يعرف سوى ذلك المسيح المجيد ومجده السماوي.

«واجتاز أبرام في الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض» (١٢:٦).

لا شك أن وجود الكنعانيين في الأرض كان امتحاناً لقلب إبراهيم لكي يظهر ثبات إيمانه ورجائه ويعرف ما في قلبه. فقد بارح أور وحاران وأتى إلى الأرض التي تكلم معه عنها «إله المجد» وهناك وجد الكنعانيين، ولكنه أيضاً وجد الرب معه هناك «وظهر الرب لأبرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض» (ع ٧). وما أنسب هذا القول بعد ذكر الكنعانيين «وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض» فخوفاً من أن تنشغل أفكار إبراهيم بالكنعانيين الذين امتلكوا الأرض، ظهر الرب له كمن هو مزمع أن يعطي تلك الأرض لإبراهيم ولنسله إلى الأبد، وهكذا تحولت مشغولية إبراهيم من الكنعانيين إلى الرب. وفي هذا تعليم لنا لأن وجود الكنعانيين في الأرض يشير إلى سلطة الشيطان، وعوضاً عن مشغوليتنا بقوة إبليس التي تمنعنا عن التمتع بالميراث نحن مدعوون أن ندرك قوة المسيح التي تحفظنا لذلك الميراث «فإن مصارعتنا ليست مع دم ولحم بل... مع أجناد الشر الروحية في السماويات» (أف٦:١٢)، إذاً فالدائرة التي دعينا إليها إنما هي دائرة حرب ومصارعة، فهل ذلك يخيفنا؟ كلا، لأن المسيح هناك وهو هناك كالمسيح المنتصر وبه «يعظم انتصارنا» (رو٨:٣٧) وبدلاً من روح الخوف يصير لنا روح السجود، إذ نقرأ عن إبراهيم :

«فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقي بيت إيل ونصب خيمته» (١٢:٧، ٨).

إن الخيمة والمذبح يدلان على صفتين امتاز بهما إبراهيم. فالخيمة تدلنا على أنه كان غريباً في الأرض ونزيلاً عليها، والمذبح يثبت أنه كان ساجداً لله. فمن الجهة الأولى قد اعترف أن لا شيء له

هنا على الأرض ومن الجهة الأخرى له كل شيء في الله، لأن إبراهيم لم يكن قد امتلك وطأة قدم من هذه الأرض بل كان الله نصيبه، وكفى به نصيباً.

على أن الإيمان لابد له من امتحان، فلا نتوهم أن رجل الإيمان بمجرد ما تقلع سفينته عن الشاطئ يجد كل شيء هادئاً والسفر سهلاً، حاشا بل لابد من مواجهة أمواج تلاطمه وعواصف تهدد سلامته، ولكن كل شيء يرتبه الله بحسب رحمته ونعمته لكي يقود المؤمن إلى التعمق في اختبار معرفة الله وتوكل القلب عليه. ولو كان الجو يبقى صافياً والبحر هادئاً لمّا كان المؤمن يعرف الله الذي معه أمرنا لأننا نحن كلنا نعلم وأسفاه خداع القلب الذي يحب استبدال سلام الله بهدوء الأحوال. لأنه عندما تكون أمورنا كلها منتظمة وممتلكاتنا محفوظة وأشغالنا ناجحة وبنونا في صحة وأتباعنا يحترموننا والبيت مرتب والصحة جيدة بالاختصار كل شيء كما نريد فما أيسر أن ننخدع ونستند على هدوء الأمور التي تحيط بنا فنفقد ذلك السلام الذي نناله من الوجود في حضرة المسيح. والرب يعرف ذلك ولهذا يتداخل بنفسه ويبتدئ أن يحرك عشنا لكي نبيت في حمى الله عوضاً عن عش الظروف.

وبخلاف ذلك فإننا في بعض الأحيان نحكم بصحة الطريق إذا خلت من التجارب والعكس بالعكس. ولكن هذا خطأ عظيم فطريق الطاعة قد تكون محفوفة بالتجارب للحم والدم، وهكذا كان الأمر مع إبراهيم فلم يكن فقط أمامه الكنعانيون في الأرض التي دعاه إليها الله، بل كان هناك «جوع في الأرض» فهل كان له أن يستنتج أنه لم يكن في الطريق الحقيقية؟ كلا لأن ذلك كان يُعد منه حكماً في الأمور بحسب العيان الأمر الذي لا يعمله الإيمان. نعم كان في تلك الظروف امتحان لقلب إبراهيم وبحسب الطبيعة كانت لغزاً غامضاً لا يمكن حله ولكن أمام الإيمان، كان كل شيء بسيطاً وسهلاً. خذ مثلاً بولس لما دعي إلى مكدونية فإننا نقرأ عنه تقريباً أن أول ما صادفه في فيلبي هو السجن، ولو كان قلب بولس ليس في شركة مع الله لكان يحسب أن إرساليته ليست من الله، ولكن بولس لم يشك في صحة الطريق التي سلكها لأنه كان يسبّح ويغني في وسط الظروف واثقاً أن كل شيء كان مرتباً حسب ما ينبغي أن يكون وهكذا كان الأمر، لأنه كان في سجن فيلبي أحد أواني رحمة الله الذي لم يكن ممكناً له «أتكلم إنسانياً» أن يسمع خبر الإنجيل إلا بدخول كارز الإنجيل إلى السجن الذي كان هو فيه، وهكذا أصبح إبليس رغماً عنه واسطة بلوغ البشارة إلى أذني أحد مختاري الله.

وعلى هذا المنوال كان يجب على إبراهيم أن ينظر إلى المسألة من جهة الجوع، لأنه كان قد بلغ المكان الذي قصد الله أن يضعه فيه، وواضح أنه لم يصله إرشاد من الله ليبرح ذلك المكان. نعم إنه

حدث جوع في الأرض وصحيح أن مصر كانت قريبة منه

وكان فيها سد أعوازه، ولكن أمر الله لخادمه كان صريحاً. والجوع في كنعان أفضل (إن كان يجب) من التمتع بخيرات مصر. وخير لنا أن نتألم في طريق طاعة الله منوال الراحة على يد إبليس، والفقر مع المسيح أعظم من الغنى بدونه «وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال» (ع ١٦). والقلب البشري يتخذ هذه الأمور براهين على صحة الطريق التي سلكها وعذراً له في نزوله إلى مصر، ولكن بالأسف هناك لم يكن له مذبح ولا شركة مع الله لأن مصر لم تكن موضع حضور الله ولذلك فالخسارة التي خسرها كانت أكثر من الفائدة التي اكتسبها. وهكذا الحال معنا فلا شيء يعوّض عن فقدان شركتنا مع الله. والتخلص من الضيق الوقتي وتكويم الثروة الطائلة لا يوازيان غبارة في الميزان بالمقابلة مع الخسارة التي تلحق بنا إذا حِدنا ولو شعرة واحدة عن طريق الطاعة لله. هذه حقيقة نصادق عليها جميعاً ولكن كم منا لكي يتخلصوا من الضيق أو يهربوا من الامتحان الذي يلازم طريق الله قد زلفت أقدامهم وانسحبت في تيار هذا العالم الحاضر الشرير فوقعت نفوسهم في هزال وضعف، في سقم وثقل روحي. نعم ربما راجت بضاعتهم وملأوا مخازنهم ونالوا الحظوة من العالم ومدحهم فراعنته، وصار لهم اسم ومركز بين الناس، ولكن هل هذه الامتيازات تعادل لذة التمتع بالله وحرية شركة القلب والضمير الصالح غير الملوم في شيء وروح السجود والشكر وشهادة الحق وخدمة الله؟ وأأسفاه على الإنسان الذي يفتكر هكذا! ولكن كم من أناس باعوا تلك البركات الثمينة بقليل من الراحة أو قليل من النقود أو قليل من حطام الدنيا.

أيها القارئ المؤمن لنحترس من الخروج عن طريق الطاعة القلبية البسيطة التي وإن تكن ضيقة فهي مأمونة ولو أنها في بعض الأحيان مؤلمة ولكنها لذيذة. وعلينا أن نحرص ونكون غيورين على «الإيمان والضمير الصالح» اللذين لا يعادلهما شيء. وإذا صادفتنا تجربة فلا نركض نحو مصر بل ننتظر الله فتصبح التجربة لا سبب عثرة بل تزكية طاعتنا. ومتى عرضت لنا تجربة الانسياق مع العالم فعلينا أن نذكر «الذي بذل نفسه لأجل خطايانا لينقذنا من العالم الحاضر الشرير حسب إرادة الله وأبينا» (غل ١: ٤) وإذا كان هذا مقدار حبه من نحونا وهذا هو اعتباره لحقيقة أمر هذا العالم الحاضر الشرير حتى بذل نفسه لكي ينقذنا منه فهل ننكره نحن بانغماسنا ثانية في العالم الذي أنقذنا منه بصليبه إلى الأبد؟ لا سمح الله القدير على كل شيء وليحفظنا الرب في قبضة يمينه وتحت ظل جناحيه إلى أن نرى يسوع كما هو إذ نكون مثله ومعه إلى الأبد.

الأصحاح الثالث عشر

في فاتحة هذا الفصل موضوع يلذ لقلوبنا جداً، أعني به وصف رد النفس رداً إلهياً. فإن المؤمن الذي انحدرت حالته الروحية وفقد شركته مع الله وعندما يشعر ضميره بما آل إليه أمره، يصير في خطر شديد في أن يفشل في إدراك نعمة الله الكاملة فلا يفهم حقيقة رد النفس بمعناها الصحيح. على أننا نعلم أن الله يصنع كل شيء كما يليق بذاته وسواء كان ذلك في الخليقة أو في الفداء أو في الهداية أو في رد النفس أو في الاعتناء بأولاده لا يمكنه إلا أن يعمل كما يليق به، ولا يليق به إلا الكمال في كل أمر. وهذا شيء يسرنا لأننا نحن من طبيعتنا نحاول أن نضع حداً لقدوس إسرائيل، وأكثر شيء نحن معرضون أن نقيد عمل نعمته فيه هو رد النفس. في الفصل الموضوع أمامنا نرى أن الله لم يُصعِد إبراهيم من مصر فقط بل أرجعه...

«إلى المكان الذي كانت خيمته فيه في البداءة... إلى مكان المذبح الذي عمله هناك أولاً ودعا هناك أبرام باسم الرب» (١٣:٣، ٤).

وفي الواقع لا يمكن أن يكتفي الله من جهة المؤمن الذي أنزلق وتاه إلا برده تماماً إلى مركزه الأول وأما نحن ففي بر قلوبنا الذاتي كنا نتصور أنه يكفي أن يأخذ الشخص التائه مركزاً أقل من المركز الذي كان يشغله قبل ضلاله، نعم لو كانت المسألة متوقفة على استحقاقه الشخصي أو على صفاته هو لكان يجب أن يكون كذلك ولكن بما أن المسألة مسألة نعمة ليس إلا فقياس رد النفس لا يمكن أن يكون إلا قياس الكمال الإلهي وهذا هو القياس الذي نفهمه من قوله «إن رجعت يا إسرائيل يقول الرب إن رجعت(ارجع) إليّ» (إر ٤:١) وهكذا يرد الله النفس ولا يليق به أن يرد النفس إلا على هذه الصورة، فإما أنه لا يرد النفس بالمرة وإما أن يردها بكيفية تليق به وتمجد غنى نعمته وهكذا نقرأ عن الأبرص عند قبوله، إنه يؤتى به «إلى باب خيمة الاجتماع»، والابن الضال لما رجع إلى

أبيه جلس على المائدة معه، وبطرس لما ردت نفسه استطاع أن يقف وسط جماعة إسرائيل ويقول لهم « أنتم أنكرتم القدوس البار » وهو نفس الخطأ الذي وقع فيه بأشنع صورة. فهذه الأمثلة جميعها وكثير غيرها مما يمكن الاستشهاد به نرى فيها كمال رد النفس الإلهي، فهو في كل حين يرد النفس إلى شخصه في ملء قوة النعمة وملء ثقة الإيمان «إن رجعت .. رجعت (ارجع) إلى » « فصعد أبرام .. إلى المكان الذي كانت خيمته فيه في البداءة ».

أما من جهة النتائج الأدبية لرد النفس الإلهي فلنا منها فوائد عملية لأنه إن كانت خصائص رد النفس تجيب على كل شكايات ناموسية، فإن نتائج رد النفس تكفي لإسكات كل مبادئ التساهل. لأن النفس الراجعة إلى الله تمتلئ بالشعور العميق بخطورة الشر الذي تخلصت منه. ويتضح ذلك من الروح الخاشعة المختونة والممتلئة من القداسة والصلاة. فنحن لا تُرد نفوسنا لكي نستخف بالخطية فنعود إلى ارتكابها مرة ثانية، ولكن الرب إذ يرد النفس يقول «اذهبي ولا تخطئي أيضاً » (يو٨:١١). وكلما ازددت يقيناً من نعمة الله في رد نفسي يزداد أيضاً يقيني في قداسة تلك النعمة أيضاً. وهذا المبدأ تقرره كلمة الله في كل صفحات الوحي لا سيما في الجملتين المعروفتين الواردة إحداهما في مزمور ٢٣:٣ بقوله « يرد نفسي يهديني إلى سبل البر من أجل اسمه » والثانية في ١ يوحنا ١:٩ بقوله «إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم» فالسبيل الصحيح الذي يجب أن تسلك فيه النفس الراجعة إلى الله إنما هو سبيل البر، أو بعبارة أخرى ينبغي إذا ذقنا نعمة الله أن نسلك في البر، أما الذي تكلم عن النعمة بينما يسير في الإثم فهو كما يقول الرسول يحول « نعمة إلهنا إلى الدعارة » (يه٤) لأنه إذا كانت هذه النعمة «تملك... بالبر للحياة الأبدية » (رو٥:٢١) فيجب أن تظهر بالبر في تلك الحياة، إذ النعمة التي تغفر لنا خطايانا تطهرنا أيضاً من كل إثم. هذان الأمران مقترنان بعضهما ببعض، وإذا تمسكنا بهما على السواء فلنا جواب مقنع لقلب مبادئ الناموسية والتساهل في القلب البشري.

على أنه كان أمام قلب إبراهيم تجربة أخرى أشد من الجوع، سببها مرافقته لواحد لم يكن سائر بقوة إيمانه الشخصي ولا شاعراً بمسئوليته الشخصية، إذ يتضح أن لوطاً كان مدفوعاً من الأول بتأثير إبراهيم وقدوته أكثر من إيمانه الشخصي بالله. وهذا أمر كثير الحدوث. وإذا راجعنا تاريخ شعب الله يمكن أن نشاهد بسهولة أنه عند وجود نهضة بواسطة عمل روح الله فإن بعض الأشخاص ينضمون مع الآخرين بدون أن يكونوا شركاء القوة التي أنتجت تلك النهضة. وأمثال هؤلاء إنما يسيرون إلى أجل قصير، وفي أثناء وجودهم مع الجماعة يكونون ثقلاً وعالة أو لهم دور إيجابي في تعطيل الشهادة. وهكذا كان الحال مع إبراهيم فإن الرب دعاه أن يترك عشيرته أما هو

فأخذ أقاربه معه. فكان تارح سبب عطل له إلى أن أخذه الرب بالموت. أما لوط فتبعه أيضاً إلى أن تغلبت عليه شهوات سائر الأشياء (مر ٤: ١٩) ففارقه.

وهذا ما نلاحظه أيضاً في حركة إسرائيل العظيمة عند خروجهم من مصر لأن «لفيفاً» رافقهم وكان سبب تدنيس وضعف وحزن، لأننا نقرأ في سفر العدد أصحاح ١١ «واللفيف الذي في وسطهم اشتهى شهوة. فعاد بنو إسرائيل أيضاً وبكوا وقالوا من يطعمنا لحماً» وهكذا كان الحال مع الكنيسة في الأيام الأولى. وليس حينئذ فقط بل في كل وقت حصلت فيه نهضة إلى وقتنا الحاضر نجد كثيرين انضموا بسبب مؤثرات مختلفة، وإذ لم تكن إلهية اتضح بطلانها، والأشخاص الذين تأثروا بها رجعوا وسقطوا، لأنه لا يوجد ثبات إلا لما هو من الله فقط، فيجب أن أتحقق من الارتباط الذي بيني وبين الله الحي. يجب أن أعرف نفسي كمدعو من الله إلى المركز الذي أشغله، وإلا فلا ثبات لي ولابد أن ينكشف أمري يوماً ما. ولا فائدة من اقتفاء آثار خطوات البشر لمجرد كونها آثارهم ليس إلا. ولكن الله من لطفه يرتب لكل واحد طريقاً يسلك فيها ودائرة يشغلها ومسئولية يؤديها، ونحن مكلفون أن نعرف دعوتنا ومسئوليتنا لكي نستطيع بنعمته أن نخدم النفوس كل حين، وتكون خدماتنا لمجده وبنيان القديسين. أما قياس كفاءتنا الشخصية فلا يهم ما دام الله هو الذي قسم لنا. فقد يكون لنا «خمسة أمناء» أو «مَناً واحد» ولكننا إذا استخدمنا المَنا الواحد في خوف الرب وعيوننا شاخصة نحوه فإننا نثق أن نسمع من فمه الطاهر تلك العبارة الحلوة «نعماً» كما لو كان لنا «خمسة أمناء» وفي هذا تعزيتنا. فبولس وبطرس ويعقوب ويوحنا كان لكل واحد منهم قياس خاص به وخدمة تختلف عن خدمة سواه وهكذا نحن أيضاً بحيث لا موضع لتداخل الواحد في خدمة الآخر. مثل النجار الذي يقتني المنشار والفارة والقدوم والأزميل، ولكل قطعه عنده عمل خاص. ولا يوجد شيء أكثر ضرراً من التقليد. وإذا نظرنا إلى ترتيب الخليقة الطبيعي فلا نجد للتقليد أثراً. فكل شيء في موضعه الخاص ودائرته الخاصة له عمل خاص وإذا كان هذا هو ترتيب الأمور الأرضية فكم بالحري الروحية. إن حقل العمل متسع، وفي كل بيت توجد أوان متعددة الشكل مختلفة السعة ولكن رب البيت يحتاج إليها كلها.

فلننظر إذن أيها القارئ الحبيب هل نحن سائرون بعمل الله أو تحت تأثيرات بشرية؟ هل إيماننا متوقف على حكمة الناس أو بقوة الله؟ وهل نحن نمارس أمورنا لأن غيرنا يمارسها أو لأن الرب دعانا لممارستها؟ وهل نحن نمارس أمورنا لأن غيرنا يمارسها أو لأن الرب دعانا لممارستها؟ وهل نحن مستندون في أعمالنا على قدوة وتأثير إخوتنا أو على إيماننا الشخصي بالله؟ هذه الأسئلة مهمة. صحيح أن لنا امتيازاً سعيداً أن نتمتع بشركة إخوتنا إلا أننا إذا اعتمدنا عليهم

فلابد وأن تنكسر سفينتهم بنا. وكذلك إذا تجاوزنا حد طاقتنا، فإن خدمتنا تتشوه وتصير بتكلف وغير طبيعية. إنك إذا نظرت لأي واحد في عمله تقدر أن تحكم إن كان يشتغل حسب قياس قدرته أم لا. وكل إدعاء وتكلف وتقليد لا يطاق أصلا. لذلك إذا لم يمكن أن نكون رجالاً من الكبار فلنكن من الأمناء. وإذا لم يكن عملنا مشهوراً فليكن متقناً. والإنسان الذي يندفع في غمر البحر وهو لم يتعلم السباحة يغرق. والسفينة التي لم تتأهل لمقاومة الماء إذا أقلعت تهشمت أو غرقت وهكذا لوط مع أنه خرج من «أور الكلدانيين» ولكنه سقط في سهول سدوم، لأن دعوة الله لم تبلغ قلبه، ولا ميراثه جذب بصره. هذا الأمر خطير ويجب التأمل فيه جيداً. ولكن مبارك اسم الله فإنه يوجد طريق لكل واحد من خدام الله، ونور طلعة الله يضيء ذلك السبيل لكي يسلك فيه الإنسان متمتعاً برضى الله. وفي رضى الله كفاية القلب الذي يعرف الله. صحيح إننا لا نستطيع أن نستميل قلوب إخوتنا أو نحصل على مصادقتهم دائماً فقد لا يفهمون غرضنا ويسيئون الظن بنا ولكن لا حيلة لنا في ذلك، واليوم سيبين كل شيء (١كو٣:١٣) والقلب المقتنع يصبر إلى ذلك اليوم حينما «يكون المدح لكل واحد من الله» (١كو٤:٥).

على أنه يحسن بنا أن نبحث بالتدقيق في الأسباب التي دعت لوطاً أن يحيد عن طريق الشهادة لله جهاراً. يوجد في تاريخ حياة كل إنسان نقطة متى وصل إليها تنكشف معها حقيقة أمره والأساس الذي يبني عليه فينجلي الغرض الذي يملك زمام قلبه والبواعث التي تعمل فيه. هكذا كان الحال مع لوط، ولو أنه لم يمت في حاران إلا أنه سقط في سدوم، وكان سبب سقوطه حسب الظاهر الخصام الذي وقع بين رعاته ورعاة إبراهيم، ولكن الحقيقة أن الإنسان الذي لا يكون سائراً بعين بسيطة وعواطف صالحة يجد في طريقه حجراً يصطدم به. وإذا لم يعثر به اليوم فلابد أن يعثر به غداً. وإذا لم يجده في هذا المكان فلابد وأن يجده في مكان آخر. ومن وجهة يمكن لنا أن نقول إنه مهما كانت أسباب سقوط الإنسان فإن السبب الحقيقي إذا تأملت إليه جيداً تجده داخل الإنسان في أعماق رغائب وشهوات قلبه، وما هو سوى العالم مهما كان شكله والصورة التي يتمثل بها. لأن الخصام الذي حدث بين الرعاة كان يمكن الفصل فيه بكل سهولة بدون خسارة روحية لا على لوط ولا على إبراهيم ـ ولكن هذا الخصام صار فرصة لإبراهيم أظهر فيها جمال قوة الإيمان وسمو الآداب التي ينشيءها الإيمان الراسخ في من يمتلكه. أما لوط فأظهر أن قلبه كان في العالم. ولكن الخصام نفسه لم يوجد محبة العالم في لوط ولا الإيمان في إبراهيم بل أظهر حقيقة الشخصين.

وهكذا الحال دائماً. فقد تحدث في كنيسة الله انقسامات وانشقاقات فيتعثر بسببها كثيرون

ويرجعون إلى العالم ثم يحاولون أن يضعوا اللوم على الانقسام أو الخصام نفسه، مع أن الحقيقة أن تلك الظروف إنما أظهرت حقيقة حال النفس وميل القلب. فالعالم كان في القلب من الأول وكان لابد أن يظهر الداء في قلوبنا. ليس المعنى أن الانشقاق أو الانقسام أمر لا يؤسف عليه لأن ذلك لا يختلف فيه إثنان. وتنازع الإخوة فيما بينهم أمام «الكنعانيين والفرزيين» أمر مخجل ومحزن ويجب أن يكون لسان حالنا دائماً «لا تكن مخاصمة بيني وبينك... لأننا نحن أخوان» (ع٨) ولكن لماذا لم يختر إبراهيم أرض سدوم؟ ولماذا لم يكن الخصام سبباً لانسياق إبراهيم وراء العالم؟ لماذا لم يتعثر بسبب تلك المخاصمة؟ ذلك لأنه نظر إلى القضية بالعين الإلهية. لا ريب أنه كان له القلب الذي كان يمكن أن ينجذب وراء «الأرض السقي» كما كان للوط ولكنه لم يترك لقلبه الخيار، بل أعطى للوط الحق أن يختار لنفسه أولاً وترك لله أن يختار له. وهذه هي الحكمة النازلة من فوق، هذا هو عمل الإيمان. فالله هو الذي يبين الميراث له وهو الذي يرتب كل شيء حسب استحسانه، والمؤمن دائماً يقنع بالنصيب الذي يقسمه له الله ويقول «حبال وقعت لي في النعماء فالميراث حسن عندي» (مز١٦:٦) فلا يهمه أين تقع «الحبال» لأنه بالإيمان يثق أنها دائماً تقع «في النعماء» لأن الله هو الذي يضعها له.

وهكذا يستطيع رجل الإيمان أن يسمح لرجل العيان أن يختار لنفسه أولاً فيقول له

«إن ذهبت شمالاً فانا يمينا وإن يميناً فانا شمالاً» (ع ٩)

وهنا إنكار الذات الصحيح والترفع الأدبي بمعناه الجميل. وطوبى لمن يتبع هذا المثال، لأنه مهما إرتفع مقياس الإنسان الطبيعي ومد بصره، ومهما كان الميراث الذي يضع يده عليه فهو لا يستطيع الوصول إلى ميراث المؤمن، لأنه يختار نصيبه في دائرة أخرى خلاف دائرة الإيمان. والمؤمن يكنز كنوزه حيث لا تستطيع يد الطبيعة أن تصل إليه ولا تحلم في النوم به وإذا حاولت الدنو منه فلا تقدر على ذلك وإذا قدرت فلا تريد الوصول إليه. إذن فنصيب المؤمن مأمون ومضمون، لذلك لا يخاف من إعطاء حرية الاختيار للإنسان الطبيعي.

وماذا اختار لوط لما فوض له إبراهيم أمر الاختيار لنفسه أولاً؟ اختار سدوم وهو المكان الذي كان الله مزمعاً أن يرسل نار غضبه إليه. ولماذا ذلك يا ترى؟ لماذا وقع اختياره على تلك الدائرة؟ ذلك لأنه حكم بالظواهر ولم يمد بصره إلى المستقبل. فهو لم يتأمل في شر أهل سدوم الذين كانوا «خطاة لدى الرب جداً» (ع ١٣) ولا ذكر نهايتهم ودينونة الله التي كانت مزمعة أن تقع عليهم «بنار وكبريت من السماء». قد يقول البعض إن لوطاً لم يكن يعرف شيئاً من ذلك، فنقول ربما ولا إبراهيم أيضاً، ولكن الله كان يعلم، ولو كان لوط ترك لله أمر الاختيار ما كان ليختار له نصيباً

في دائرة كان هو مزمعاً أن يهلكها. ولكن لوطاً لم يفعل ذلك، بل حكم لنفسه، فأعجبته سدوم وإن كانت لم تعجب الله، لأن عينيه وقعتا على «سقي» فانجذبتا له «ولوط .. نقل خيامه إلى سدوم» (ع ١٢)، هذا هو اختيار الإنسان الطبيعي! «ديماس قد تركني إذ أحب العالم الحاضر» (٢تي٤: ١٠) ولهذا السبب عينه ترك لوط إبراهيم، ترك موضع الشهادة وسكن في مكان الدينونة.

«وقال الرب لأبرام بعد اعتزال لوط عنه ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً. لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد» (١٣: ١٤، ١٥).

فالخصام والانفصال لم يخسر بواسطتهما إبراهيم شيئاً من امتيازاته الروحية بل بالحري صار فرصة لإبراز ما يضمره الله له من الخير وكان سبب تقوية نفسه في حياة الإيمان، وفضلاً عن ذلك فقد تخلّص من رفقة واحد اتضح إنه كام ثقلاً عليه. وهكذا تحوّل الخصام إلى خير إبراهيم ونال من ورائه بركة. ويجب أن نفهم دائماً أن حقيقة كل واحد لابد أن تنكشف يوماً ما، وفي هذا تعزيتنا وإن كانت هذه الحقيقة مُرّة على نفوس البعض. لأن الذي يركض بدون دعوة لابد من أن ينثني راجعاً ولسبب من الأسباب يعود إلى المكان الذي خرج منه، أما المدعوون من الله، المتكلون عليه، فهم محفوظون بنعمته وسبيلهم «كنور مشرق يتزايد وينير إلى النهار الكامل» (أم٤: ١٨) إن التأمل في هذا يقودنا إلى الاتضاع والسهر والصلاة، «من يظن أنه قائم فلينظر أن لا يسقط» (١كو١٠: ١٢). لأنه يوجد «كثيرون أولون يكونون آخرين وآخرون أولين» (مر ١٠: ٣١) «والذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص» (مت٢٤: ١٣) هذا القول مهما كان تطبيقه فمغزاه الأدبي صحيح دائماً، إذ كم من السفن قد أبحرت من الميناء بالعظمة والجلال وسط هتاف وتصفيق الجماهير العديدة وهي ضامنة سلامة الوصول، ولكن بكل أسف بمجرد أن صادفها موج أو ريح أو صخرة تقطعت إرباً وغرقت وغاصت في وسط البحر ولم يعد لها أثر. معلوم أن كلامنا هنا هو عن الخدمة والشهادة لا عن خلاصنا وقبولنا المسيح إلى الأبد. لأن هذه المسألة الأخيرة والحمد لله، غير خاصة بنا بل بالذي قال «وأنا أعطيها حياة أبدية ولن تهلك إلى الأبد ولا يخطفها أحد من يدي» (يو١٠: ٢٨) ولكننا نعلم من الجهة الأخرى أن كثيرين من المسيحيين شرعوا في خدمة أو شهادة ظانين أنهم قد دعوا لممارستها من الله وبعد قليل فشلوا. وغيرهم وضعوا مبادئ خاصة لم تكن مطابقة لتعليم الروح القدس بدون أن يتأملوا في نتائجها أمام عرش النعمة، وكانت النتيجة بدون شك أنهم هم أنفسهم لم يستطيعوا أن يثبتوا على هذه المبادئ. هذا كله مما يؤسف له ويجب اجتنابه، لأنه يضعف ثقة مختاري الله ويسبب الافتراء من أعداء الحق. فكل واحد عليه أن يتحقق دعوته وإرساليته من السيد نفسه رأساً، وكل الذين يدعوهم المسيح لخدمة خاصة يرشحهم بالقوة ويحفظهم في الطريق لأنه من تجند

قط على نفقة نفسه؟ أما إذا شرعنا في عمل لم نُدعَ إليه فلا نحصد الخزي فقط بل نتعلم أيضاً جهلنا وضعفنا.

ولكن لا يؤخذ من هذا أن كل واحد له حق أن يضع لنفسه مبادئ خاصة أو يجعل نفسه مثال الخدمة أو الشهادة، كلا، فهذا منتهى الغباوة والجهل عينه والحماقة الخرقاء. فالمعلم من اختصاصه أن يشرح كلمة الله، والخادم عليه أن يتمم أوامر سيده. ولكن مع علمنا بهذا يجب أن نفهم أننا محتاجون أن نحسب النفقة قبل أن نشرع في بناء برج أو نخرج للحرب، ولو انتبهنا لهذا جيداً لقل الفشل وقل التشويش بيننا. فإبراهيم مثلاً كان قد دُعيَ من الله أن يخرج من أور إلى كنعان لذلك أرشده الله في الطريق، ولما تخلّف في حاران تأنى عليه الله، وعندما نزل إلى مصر أرجعه منها إلى مكانه الأول، فكان الله قائده أينما توجه، وفي وقت الخصام حامى عنه. لقد شهد داود قائلاً «ما أعظم جودك الذي ذخرته لخائفيك وفعلته للمتكلين عليك تجاه بني البشر» (مز ١٩:٣١) لم يخسر إبراهيم شيئاً بالخصام، فقد كان له مذبح وخيمة قبل المخاصمة ولم يزل المذبح والخيمة بعد الخصام

«فنقل أبرام خيامه وأتى وأقام عند بلوطات ممرا التي في حبرون. وبنى هناك مذبحاً للرب» (ع ١٨).

وإن كان لوط قد اختار سدوم لكن إبراهيم اكتفى بالله فسدوم لم يكن فيها مذبح. وبالحقيقة كل الذين يسيرون في طريق لوط لا يبالون بأمر المذبح، والذي يهمهم ليس عبادة الله بل محبة العالم. وحتى إذا حصلوا على مرغوبهم فماذا يجنون؟ بل ما هي نتيجة أتعابهم؟ «فأعطاهم سؤلهم وأرسل هزالاً في أنفسهم» (مز ١٥:١٠٦).

الأصحاح الرابع عشر

في هذا الفصل تاريخ عصيان خمسة ملوك كانوا مستعبدين تحت سيادة كدر لعومر ثم تمردوا عليه، والحرب التي توّلدت من وراء ذلك العصيان. على أن الروح القدس لا ينشغل بتاريخ الملوك والجيوش إلا إذا كانت لهم علاقة مع شعب الله. وفي هذه المسألة لا يوجد لإبراهيم أقل دخل بالثورة ولا بنتائجها. لأن «الخيمة والمذبح» لا يبعثان على الخصومة ولا شأن لصاحبهما في الحرب.

ولكن مع أن إبراهيم لم يكن له يد في الحرب التي وقعت بين «أربعة ملوك مع خمسة» إلا أن لوط كان له دخل فيها. لأن مركزه يدعوه أن يشتبك فيها وما دمنا قادرين بالنعمة عن أن نسير في طريق الإيمان البسيط فنحن خارج دائرة ظروف العالم، أما إذا حدنا عن مركزنا السامي المقدس كمن سيرتهم في السماوات، وطلبنا لنا إسماً أو مركزاً أو نصيباً هنا في الأرض، فلابد وأن نحصد نتائج الاشتراك في أزمات العالم وتقلباته. إن لوطاً إختار لنفسه أن يسكن في سدوم ولذلك اشتبك في قتال سدوم، ولابد من ذلك دائماً وما أصعب وأمرّ على الابن الحقيقي لله من اختلاطه مع أولاد هذا العالم. إنه إذا سلك هذا السبيل لا يحصد سوي الخسارة لنفسه والاضرار بالشهادة التي وُكلت إليه. إذ ما هي شهادة لوط في سدوم؟ لا شك أنها كانت ضعيفة جداً، لو صح أنه كانت له شهادة أصلاً. وحقيقة الأمر أن نفس سكناه في سدوم كانت ضربة قاضية على شهادته. لأنه لو كان تكلم كلمة ضد سدوم وطريق سدوم لكانت كلمته تدينه لأنه لماذا سكن فيها؟ وفي الحقيقة واضح أن لوطاً لما سكن في مدن الدائرة ونقل خيامه إلى سدوم لم يكن قصده أن يعيش شاهداً هناك. ويظهر أن الباعث على اختيار سدوم كانت أغراض شخصية وعائلية ملكت زمام قلبه. ومع أنه كما يقول الرسول بطرس كان «يعذّب يوماً فيوماً نفسه البارة بالأفعال الأثيمة» (٢بط٢:٨) إلا أنه لم تكن له القوة على مقاومتها، هذا بفرض وجود الميل عنده لمقاومة تلك الأفعال الأثيمة.

ويهمنا أن نفهم أنه لا يمكن أن يملك على قلبنا غرضان في وقت واحد، عملياً، . مثال ذلك لا

يمكن أن أضع أمام بصري أهدافي العالمية وصالح إنجيل المسيح معاً. فإذا قصدت زيارة بلد للتجارة فواضح أن غرضي هو التجارة لا نشر الإنجيل. يجوز أن أضع في فكري أن أباشر شغلي وأكرز بالإنجيل أيضاً، ولكن مع ذلك يبقى الشاغل لي أحد الأمرين ليس إلا. ليس المعنى أن خادم المسيح لا يستطيع أن يكرز بالإنجيل وفي الوقت نفسه يباشر أشغاله، فهذا ممكن ولكن يجب أن يكون الإنجيل غرض القلب وليس الشغل. فبولس كرز بالإنجيل وصنع خياماً ولكن مشغوليته كانت في الإنجيل لا في الخيام. وإذا كان الشغل غرضي فالكرازة بالإنجيل تصبح عقيمة صورية بلا فائدة، والأفضل أن أتخلى عنها. إن القلب خدّاع ويمكن أن نرى ذلك بسهولة. فإذا التفتنا له نراه يُحسّن ويُزوِّق في الأمور، وعندما تعمى بصائرنا بالأغراض الذاتية أو الميل غير المروض نُخدَع. وكم مرة سمعنا أشخاصاً يدافعون عن إستمرارهم في مركز معين وهم متأكدون من خطأه بحجة أن دائرة الانتفاع بمعارفهم تتسع بهذه الصورة. أما جوابنا لحجج كهذه فهو جواب صموئيل النبي «هوذا الاستماع أفضل من الذبيحة، والإصغاء أفضل من شحم الكباش» (١صم١٥:٢٢)، إذ أي الرجلين استطاع أن يؤدي شهادة أفضل؟ لوط أم إبراهيم؟ ألا يثبت لنا صريحاً من تاريخ هذين الشخصين بدون جدال أن أفضل واسطة للخدمة في العالم هي الأمانة، بالانفصال عنه والشهادة ضده؟

ولكن يجب أن نتذكر أن الانفصال الحقيقي عن العالم إنما هو نتيجة الشركة مع الله ليس إلا. فقد أنفصل عن العالم مثل الراهب في ديره أو صومعته وتبقى مشغوليتي في ذاتي، ولكن الانفصال إلى الله شيء آخر. فذاك عقيم ولا ينشط أما هذا ففيه قوة ونشاط. ذاك يضع ثقتنا في أنفسنا أما هذا فيضرم فينا محبة عمل الخير للآخرين. ذاك مركزه الذات ومصالحها أما هذا فمركزه الله ومجده وهكذا نجد في قصة إبراهيم أن أمر انفصاله كان واسطة خير وخدمة للوط الذي ساق نفسه للتعب بطرقه العالمية

«فلما سمع أبرام أن أخاه سُبي، جرَّ غلمانه المتمرنين، ولدان بيته، ثلاث مئة وثمانية عشر، وتبعهم إلى دان... واسترجع كل الأملاك واسترجع لوطاً أخاه أيضاً وأملاكه والنساء أيضاً والشعب» (١٤:١٤-١٦).

فلوط، على كل حال، كان أخا إبراهيم والمحبة الأخوية لابد وأن تعمل «الأخ للشدة يولد» وكثيراً ما يحدث أن أوقات الشدة والخصومة تلين القلب بالانعطاف والحنو، حتى ولو كان ذلك الشخص قد انفصلنا عنه. ومن الغريب أننا نقرأ في عدد ١٢ أنهم «أخذوا لوطاً ابن أخي أبرام» ولكن في عدد ١٤ نقرأ عن لسان إبراهيم «أن أخاه سُبي» حقاً إن الضيق يولّد الرفق، وهذا هو عمل الله. إن الإيمان الصحيح، وإن كان يوجِد اعتمادنا على الله، ولكنه لا يجعلنا غير مبالين بإخوتنا. والمؤمن لا يستدفئ بالأصواف بينما يرى أخاه ينتفض من البرد. بل الإيمان الصحيح له ثلاث ميزات «يطهّر القلب» «ويعمل بالمحبة» «ويغلب العالم» وهذه الثلاث ظهرت في إبراهيم هنا. فقلبه تَطهّر

من دنس سدوم، ومحبته ظهرت من نحو أخيه لوط، وأخيراً انتصر على الملوك أجمعين. هذه هي أثمار الإيمان الثمينة، وهذا هو المبدأ المسيحي السماوي.

على أن رجل الإيمان لا يخلو من هجمات العدو. وكثيراً ما يصادف بعد نصرته مباشرة تجربة جديدة. وهكذا كان الأمر مع إبراهيم

«فخرج ملك سدوم لاستقباله، بعد رجوعه من كسرة كدر لعومر والملوك الذين معه» (١٤:١٧).

وهي حركة دبرها العدو بمكر وخداع. وملك سدوم يشير إلى وجه آخر من أوجه قوة العدو يختلف عن الصورة التي مثلها «كدر لعومر والملوك الذين معه» إن «ملك سدوم» يمثل لنا صوت الحية وهمسها، أما «كدر لعومر والذين معه» فيمثلون لنا زمجرة الأسد. ولكن سواء همس الشيطان كالحية أو زمجر كالأسد فنعمة الرب تكفي عبده، وعونه يأتي إليه في حينه.

«وملكي صادق، ملك شاليم أخرج خبزاً وخمراً. وكان كاهناً لله العلي. وباركه وقال: مبارك أبرام من الله العلي مالك السماوات والأرض، ومبارك الله العلي الذي أسلم أعداءك في يدك» (ع ١٨-٢٠).

وهنا يجب أن نلاحظ أول كل شيء النقطة الخاصة التي عندها دخل ملكي صادق إلى المشهد. وثانياً نتأمل في خدمته من وجهيها. فملكي صادق لم يقابل إبراهيم وهو يطارد كدر لعومر بل حين واجه ملك سدوم ومن هنا نتعلم درساً مفيداً لنا وهو أن الرب يعطي قوة أكبر متى كانت الحرب التي أمامنا أشد.

أما من جهة ملكي صادق فإن «الخمر والخبز» كان فيهما تغذية نفس إبراهيم بعد حربه مع كدر لعومر كما كانت البركة في تهيئة قلبه لمواجهة ملك سدوم. لقد رجع إبراهيم منتصراً وكانت أمامه حرب أخرى، لذلك احتاج إلى غذاء لروحه وتقوية لقلبه.

ويلذ لنا التأمل في الأسلوب الذي يعلن به ملكي صادق الله لأفكار إبراهيم. إنه يدعوه «الله العلي مالك السماوات والأرض». وليس ذلك فقط بل يقول له إنه مبارك من ذلك الإله نفسه. ولا شك أنه كان يهيئه بتلك الأقوال لمقابلة ملك سدوم - لأن الشخص المبارك من الله لا يحتاج إلى شيء من العدو. وإذا كان «مالك السماوات والأرض» شاغلاً فكره فخيرات سدوم لا تؤثر على فكره. وهكذا تم ما كان ينتظر لأنه حين عرض ملك سدوم على إبراهيم ذلك الاقتراح بقوله

«أعطني النفوس، وأما الأملاك فخذها لنفسك» (١٤:٢١).

فكان جواب إبرهيم

«رفعت يدي إلى الرب الإله العلي مالك السماوات والأرض، لآخذن لا خيطاً ولا شراك نعل ولا من كل ما هو لك، فلا تقول: أنا أغنيت أبرام» (١٤: ٢٢).

فإبراهيم رفض الغنى عن يد ملك سدوم، لأنه كيف يستطيع أن يُخلّص لوطاً من قبضة العالم ويقع هو في الشرك نفسه؟ إن الطريق الحقيقي الوحيد لإنقاذ الغير إنما يقوم في ابتعادي أنا عن تلك الحفرة لأني إذا كنت أنا نفسي في النار فيستحيل عليَّ أن أخلص أحداً من النار فطريق الانفصال هي طريق القوة والسلام والبركة.

إن العالم بصوره المختلفة هو الواسطة التي يستخدمها إبليس لإضعاف الأيدي وتثبيط همم خدام المسيح، ولكن مبارك الله إذ حين يكون القلب صادقاً. فهو تبارك اسمه ينشط ويقوي ويشدد في الحين «لأن عيني الرب تجولان في كل الأرض ليتشدد مع الذين قلوبهم كاملة نحوه» (٢أخ ١٦: ٩) هذا الحق مُعزٍّ لقلوبنا الضعيفة الخائرة المسكينة، فالمسيح هو قوتنا وترسنا. «ظللت رأسي في يوم القتال» (مز ١٤٠: ٧)، «الذي يُعلّم يدي القتال وأصابعي الحرب» (مز ١٤٤: ١) وأخيراً سيسحق الشيطان تحت أقدامنا سريعاً (رو١٦: ٢٠) كل هذا مما يشجع نفوسنا ويعزي القلب الراغب في أن يسير في طريقه ضد «العالم والجسد وإبليس».

ياليت الرب يربط قلوبنا به في وسط غرور هذا العالم المحيط بنا.

الأصحاح الخامس عشر

«بعد هذه الأمور صار كلام الرب إلى أبرام في الرؤيا قائلاً: لا تخف يا أبرام أنا تُرسٌ لك. أجرك كثير جداً» (١٥:١).

إن الرب لابد أن يعوض لعبده عما يخسره عندما يرفض قبول ما يعرضه عليه العالم. والاحتماء بترس الرب أفضل بكثير من الالتجاء إلى رعاية ملك سدوم، وانتظار الأجر الكثير جداً أفضل من خيرات سدوم. والمركز الذي ناله إبراهيم في بداية هذا الفصل يشير إلى المركز الذي تدخل إليه كل نفس نتيجة الإيمان بالمسيح. فالرب كان «ترساً له» لكي يستند عليه. والرب كان «أجره» لكي ينتظره وهكذا الحال مع المؤمن الآن، راحته الحاضرة وسلامه الحاضر وأمنه الحاضر، جميعها في الرب لا سواه وغير ممكن لسهام العدو أن تخترق الترس الذي يحمي أضعف مؤمن في المسيح.

ومن جهة المستقبل فكله في يد المسيح. فهو نصيب صالح ورجاء مبارك. نصيب لا ينزع ورجاء لا يخزي، أساسهما مشورات الله وكفارة المسيح الكاملة ونحن نتمتع بهما الآن بعمل الروح القدس الساكن فينا. وما دام الأمر كذلك فواضح أن المؤمن الذي يركض وراء العالم وينغمس في الشهوات العالمية الجسدية لا يمكنه أن يتمتع «بالترس» ولا «بالأجر» لأننا إذا أحزنا الروح القدس فلا يمتعنا بنصيبنا أو رجائنا. لذلك في الفصل الواردة فيه رواية إبراهيم هذه أنه لما رجع من كسرة الملوك ورفض هدية ملك سدوم ظهر له الرب في مقام «ترس له وأجره الكثير جداً» وعلينا نحن أن نتأمل في معنى ذلك لأن لنا فيه مغزى مفيداً وحقائق عملية. ولكننا نتقدم إلى شرح بقية الفصل وفيه نجد أيضاً مسألتين مهمتين وهما «التبني والميراث».

«فقال أبرام: أيها السيد الرب، ماذا تعطيني وأنا ماضٍ عقيماً، ومالك بيتي هو أليعازر الدمشقي؟ وقال أبرام أيضاً: إنك لم تعطني نسلاً، وهوذا ابن بيتي وارث لي» (١٥:٢، ٣).

وقد طلب إبراهيم ابناً لأنه علم بناء على وعد الله أن «نسله» سيرث الأرض (ص ١٣:١٥) وهكذا

نجد أن البنوة والميراث متلازمان بحسب أفكار الله «الذي يخرج من أحشائك هو يرثك» إذاً التبني أساس كل امتياز وهو أيضاً نتيجة مشورات الله ومقاصده الأزلية «شاء فولدنا» كما يقول الرسول يعقوب ولكنه مبني على مبدأ القيامة، ولا يتأتي خلاف ذلك. فجسم إبراهيم كان «ميتاً» والتبني كان مؤسساً على قوة القيامة. كذلك الطبيعة ميتة ولا يمكن أن تلد أو تحبل بشيء لله، فقد تجلى أمام بصر أبينا إبراهيم الميراث على اتساعه وبهائه ولكن أين الوارث؟ فجسد إبراهيم كان مُماتاً وكذلك مستودع سارة امرأته. ولكن الرب هو إله القيامة، لذلك لا يعسر عليه أن يعمل بالجسد المُمات. ولو كانت الطبيعة لم تمُتْ لكان الله أماتها أولاً قبل أن يُعلن فيها ذاته. وأنسب موضع لإعلان قدرة الله الحي هو حين تموت الطبيعة عن كل افتخار ذاتي وادعاء بشري بتنفيذ حكم الموت عليها. لذلك صار كلام الله لإبراهيم

«انظر إلى السماء وعد النجوم إن استطعت أن تعدها. وقال له: هكذا يكون نسلك» (١٥:٥).

ومتى كان إله القيامة هو العامل فلا حد لبركات الله لأن الذي يحيي الميت يستطيع كل شيء.

«فآمن بالرب فحسبه له براً» (١٥:٦).

وحسبان البر لإبراهيم هنا مؤسس على إيمانه بالرب أن يقيم الأموات. وعلى هذا المنوال يعلن الله نفسه في عالم مَلَك فيه الموت، ومتى آمنت النفس بالله على هذه الصورة فإيمانها في نظر الله يُحسب لها براً. وهذا بالضرورة يغض النظر عن الإنسان كله لأنه ماذا يستطيع أن يعمل الإنسان في وسط دائرة موت؟ هل يقدر على إقامة الأموات؟ هل يستطيع فتح أبواب الهاوية؟ هل في وسعه التخلص من قبضة الموت حتى يسلك بقوة وحرية حياة لا يسود عليها الموت؟ كلا بدون شك. وما دام ليس في طاقته عمل شيء من ذلك فهو لا يستطيع أن يصنع براً ولا الدخول في نسبة البنين لأن «الله ليس إله أموات بل إله أحياء» (مت٢٢:٣٢) وما دام الإنسان تحت سلطان الموت والخطية فلا يعرف معنى البنوة ولا حالة البر، إذن التبني إنما يهبه الله وحده الذي يحسب للإنسان البر، وهذان الأمران مقترنان بالإيمان بالله كمن أقام المسيح من الأموات.

وعلى هذا المنوال يتناول الرسول البحث في أمر إيمان إبراهيم حيث يقول في رومية ٤ إنه «لم يكتب لأجله وحده أنه حُسب له، بل من أجلنا نحن أيضاً، الذين سيُحسب لنا، الذين نؤمن بمن أقام يسوع ربنا من الأموات» (رو٤:٢٣، ٢٤) فإله القيامة مُعبّر عنه هنا أنه غرض إيماننا. وإيماننا به هو الأساس الوحيد لبرنا. ولو كان إبراهيم تطلع إلى قبة السماء ورأى النجوم التي لا حصْر لها ثم عاد وتطلع إلى جسده «وهو قد صار مماتاً» فكيف كان يمكن له أن يتصور نسلاً مثل نجوم

السماء في الكثرة؟ ذلك غير ممكن. ولكنه لم يعتبر جسده بل اعتبر قوة القيامة التي لله. وما دامت تلك القوة لها استطاعة على إنشاء نسل فنجوم السماء مع كثرتها ورمل البحر الذي على الشاطئ تصبح رموزاً ضعيفة إذ لا توجد أشياء أرضية تمثل بالتمام نتيجة القوة التي تقدر على الإقامة من الأموات.

وهكذا الحال مع الخاطئ عندما يسمع بشارة الإنجيل فإنه لو تأمل في نور محضر الله الذي لا يُدنى منه ثم تأمل في ظلام أعماق طبيعته الشريرة لكان يصرخ قائلاً كيف يتسنى لي الوصول إلى هناك؟ كيف أتأهل للسكنى في ذلك النور؟ ولكن أين الجواب على أسئلة كهذه؟ هل في الإنسان؟ لا، بل تبارك اسم الله أن جواب تلك الأسئلة هو في ذلك الشخص المبارك الذي أتى من عند الآب إلى الصليب ثم إلى القبر ومن القبر إلى العرش، وهكذا شغل بنفسه كل ما هو بين هذين الطرفين، إذ لا يوجد أعلى من حضن الله (مسكن الابن منذ الأزل) ولا أدنى من الصليب أو القبر ولكن يا للعجب العُجاب فإني أجد المسيح في كليهما. ففي حضن الآب أجده هناك وكذلك أجده في القبر أيضاً. وقد دخل الموت لكي يدفن خطايا شعبه وآثامهم في التراب «والمسيح في القبر» يقضي على كل ما هو من الإنسان إذ يقضي على الخطية وهي آخر ما تصل إليه قوة الشيطان. فقبر يسوع نهاية كل أمر. ولكن القيامة تقودنا إلى ما وراء هذه النهاية، وتضعنا على أساس ثابت يستند عليه مجد الله وبركة الإنسان إلى الأبد. وحينما يستقر نظر الإيمان على المسيح المُقام من الأموات فهناك يجد جواباً سديداً لكل معضلة، سواء كان من جهة الخطية أو الدينونة أو الموت أو القبر. لأن الذي جاز في هذه جميعها قد قام من الأموات وجلس عن يمين العظمة في السماوات، وليس ذلك فقط بل إن ذلك الشخص الممجد والمُقام من الأموات يشهد في المؤمن بأنه ابن، وأنه قام مع المسيح كما نقرأ في كولوسي ٢: ١٣ «وإذ كنتم أمواتاً في الخطايا وغلف جسدكم، أحياكم معه، مسامحاً لكم بجميع الخطايا».

وبما أن البنوة مؤسسة على القيامة فهي مقترنة بالتبرير الكامل - البر الكامل - العتق الكامل من كل ما كان ضداً لنا، لأن الله لا يستطيع أن يأتي بنا إلى محضره وعلينا خطية، ولا يمكنه أن يحتمل على أولاده نقطة واحدة أو أثراً للخطية، كما أن الآب لم يمكنه أن يُجلِس ابنه الضال على مائدته بثيابه الرثة التي كانت عليه وهو في تلك الكورة البعيدة. نعم إنه كان يمكنه استقباله بثيابه هذه وكان يمكنه أن يقع على عنقه ويقبله وهو لابس تلك الثياب، وكان يليق بنعمته أن يصنع هكذا وما أجمل ذلك المنظر، ولكنه لم يكن ليستطيع أن يسمح له بالجلوس على مائدته وهو بتلك الثياب البالية، لأن النعمة التي جعلت الآب يركض لمقابلة ابنه الضال إنما تملك بالبر الذي

أتى بذلك الابن إلى الأب. ولو كان الأب توقع من ابنه أن يلبس ثياباً فاخرة من عنده قبل أن يقبله لما عد ذلك من النعمة، كما أنه لو كان الأب قبل ابنه وأوجده في بيته بتلك الخرق لما عد ذلك براً. فالنعمة والبر سطعا ببهائهما وجمالهما عندما خرج الأب للقاء ابنه ووقع على عنقه وقبّله ومع ذلك لم يسمح له بالجلوس على مائدته إلا بعد ما ألبسه الحلة وزينه بما يوافق مركزه السعيد السامي الذي أوصله إليه. فالله في المسيح قد تنازل إلى أدنى ظروف الإنسان، حتى يستطيع بتنازله أن يرفع الإنسان إلى أعلى درجات البركة بالشركة معه. من هنا نرى أن بنوتنا بما يتبعها من مقام وامتياز لا دخل لنا فيها بالمرة، وعلاقتنا بها مثل علاقة جسد إبراهيم الممات ومستودع سارة الميت بنسل مثل نجوم السماء في الكثرة وكالرمل الذي على شاطئ البحر. فالكل من الله. إذ الله الآب قدوضع المشروع والله الابن قد وضع الأساس والله الروح القدس يقيم الآن البناء، وعلى هذا البناء مكتوب بحروف بارزة : بالنعمة، بالإيمان، بدون أعمال الناموس ولكن في الفصل المطروح أمامنا يوجد موضوع آخر خلاف البنوة أعني به الميراث. فإذ تقرر أمر البنوة والبر تقريراً إلهياً بدون شرط قال الرب لإبراهيم

«أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها» (ع ٧).

يأتي موضوع الميراث، المهمة والطريق التي يجب على الوارثين المختارين أن يسلكوها قبل الوصول إلى الميراث الموعود به. «فإن كنا أولاداً فإننا ورثة أيضاً ورثة الله ووارثون مع المسيح. إن كنا نتألم معه لكي نتمجد أيضاً معه» (رو٨:١٧) إذاً الطريق إلى الملكوت طريق ألم وضيق واضطهاد، ولكن شكراً لله فإننا نستطيع بالإيمان أن نقول «إن آلام الزمان الحاضر لا تقاس بالمجد العتيد أن يستعلن فينا» (رو٨:١٨) وبخلاف ذلك فنحن نعلم أيضاً «إن خفة ضيقتنا الوقتية تنشيء لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبدياً» وأخيراً فإننا «نفتخر في الضيقات عالمين أ تمالضد ق ينشيء صبر والصبر تزكية والتزكية رجاء» (رو٥:٤). وفي الواقع إنه شرف كبير وامتياز حقيقي واقعي أن نشرب من الكأس التي شرب منها سيدنا ونصطبغ بالصبغة التي اصطبغ هو بها، فنسافر معه في الطريق التي تؤدي إلى الميراث المجيد، لأن الوارث وشركاءه في الميراث إنما يَبلغُون ميراثهم بطريق الآلام.

ولكن لا يغيب عن بالنا أن الآلام التي يشترك فيها الوارثون مع المسيح ليس فيها ألم القصاص، فهي ليست آلاماً من يد العدل الإلهي بسبب الخطية، لأن ذلك قد احتمله الذي كان على الصليب عندما وقعت عليه تلك الضربة. «فإن المسيح أيضاً تألم مرة واحدة من أجل الخطايا» (١بط٣:١٨)

وتلك المرة الواحدة كانت على الخشبة ليس إلا، فهو لم يتألم من أجل الخطايا قبل ذلك الوقت بالمرة، وغير ممكن أن يتألم من أجل الخطايا مرة ثانية. «قد أُظهر مرة عند انقضاء الدهور (نهاية كل بشر) ليُبطل الخطية بذبيحة نفسه» (عب٩:٢٦) قد تألم المسيح مرة واحدة.

ويمكننا أن نتأمل في آلام المسيح من وجهين، أولاً كمسحوق من الرب، وثانياً كمرفوض من الناس. ففي الأول كان فريداً وفي الثاني لنا الشرف أن نشترك معه. وقولنا إنه في النوع الأول من الآلام كان وحده، لأنه من كان يستطيع أن يقف موقفه؟ فهو قد حمل غضب الله وحده وجاز وادي الموت فأبطل هناك مسألة الخطية إلى الأبد. هذه قضية لا شأن لنا فيها ولو أننا مديونون لها من جهة كل خير لنا. فالمسيح قد حارب وانتصر وحده ولكنه قسم الغنيمة معنا. ففي جب الهلاك وطين الحمأة كان منفرداً، ولكنه لما ثبت قدميه على صخرة القيامة ثبت أقدامنا معه. على الصليب صرخ وحده، أما «الترنيمة الجديدة» فهو يسبح بها معنا (مز ٤٠:٢، ٣).

والمسألة التي أمامنا الآن هي هل نرفض الاشتراك في الآلام من يد البشر مع الذي تألم من يد الله أيضاً لأجلنا؟ أما كون الأمر متعلقاً بنا فواضح من ذكره كلمة «إن» مقترنة بهذا الموضوع حينما يتكلم الروح عنه «إن كنا نتألم معه» «إن كنا نصبر فسنملك» أما البنوة فلا يوجد فيها شرط ونحن لا نصل إلى مقام البنين بواسطة الآلام بل بقوة الروح القدس المؤسسة على عمل المسيح الذي أكمله بناء على مشورات الله ومقاصده الأزلية. وهذا لا يمكن التأثير عليه. فانتسابنا إلى عائلة الله لا يكون عن طريق الآلام. والرسول لا يقول لكي تحسبوا أهلاً للدخول ضمن عائلة الله التي من أجلها تقاسون آلاماً. لأنهم كانوا من أهل بيت الله مسافرين إلى الملكوت وطريقهم إلى ذلك الملكوت محفوف بالآلام، وليس ذلك فقط بل إنه بمقدار تألمهم من أجل الملكوت يكون مجدهم مع الملك هناك. وعلى قدر تمجيدهم معه هناك يتألمون معه هنا على الأرض، وكلما ازددنا اشتراكاً معه في الآلام ازددنا اشتراكاً معه في المجد. إذ يوجد فرق بين بيت الآب وملكوت الابن ففي البيت كلنا واحد، أما في الملكوت فمقامات مختلفة كما يجتمع الأولاد كلهم حول مائدة واحدة ولكن تمتعهم بأبيهم وحريتهم معه يتوقفان على مداركهم وامتيازاتهم الخاصة. فقد يجلس واحد على ركبتيَّ متمتعاً بي كأبيه ومع ذلك فهو لا يفهم كلمة مما أتفوه به بينما غيره يدرك غرضي تماماً، ويتلذذ بحديثي. ومع ذلك فمن جهة علاقتي الأبوية به لا يزيد شيئاً عن ابني الذي على ركبتي. أما متى وجدت حاجة إلى تأدية خدمة أو شهادة فهذه مسألة أخرى ولا يمكن أن يتساوى الابنان فيها. هذا مثل بسيط لإيضاح الفرق بين بيت الآب ومقامنا فيه، وملكوت الابن ومركزنا فيه.

ولكن لا يغرب عن ذاكرتنا أن تألُمنا مع المسيح ليس هو نير عبودية بل امتياز. فهو ليس

قانوناً صارماً بل هبة مقترنة بالنعمة. لا خدمة استعباد بل تعبُّد اختياري «لأنه قد وُهب لكم لأجل المسيح لا أن تؤمنوا به فقط، بل أيضاً أن تتألموا لأجله» (في١:٢٩) ولا شك أبداً أن التألُّم لأجل المسيح مبني على تعلُّق القلب بالمحبة به. وكلما زادت محبتي للمسيح كلما تقارب سيري معه، وكلما اقتربت منه في السير كلما ازددت تشبهاً به، وكلما تشبهت به بأوفر أمانة زادت آلامي لأجله، ومن هنا نرى أن الأساس الأول هو محبة المسيح، ومعلوم أننا «نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً» (ايو٤:١٩) وفي هذا يجب أن نحترس كما في كل شيء آخر من الروح الناموسية. ولا يظن أحد يحمل نير الناموس على عنقه أنه متألم من أجل المسيح بل بالحري نخاف أن يكون مثل هذا لا يعرف المسيح ولا يعرف غبطة البنوة ولا تثبت بالنعمة ، وهو لا يزال طالباً أن يُحسب من أهل البيت بأعمال الناموس وليس أنه قاصد الوصول إلى الملكوت بطريق الآلام.

ثم من الجهة الأخرى لنحترس من أن نستعفي من شرب كأس سيدنا والاصطباغ بصبغته، فلا نعترف بالتمتع بفوائد الصليب ثم نأبى الرفض الذي يستلزمه ذلك الصليب. وعلينا أن نتأكد أن طريق الملكوت ليست حسب استحسان أهل العالم ولا هي مُكلَّلة بالنجاح أو متوَّجة بالفلاح. والمسيحي الناجح في العالم يخشى من كونه غير مرافق المسيح في طريقه. «إن كان أحد يخدمني فليتبعني وحيث أكون أنا هناك أيضاً يكون خادمي أيضاً» (يو١٢:٢٦). وماذا كانت نهاية طريق المسيح في الأرض؟ هل الرفعة والشرف الأرضي؟ حاشا. إذن ماذا؟ إنه قد وصل إلى الصليب بين اثنين من المجرمين، ولكن ربما يقول قائل «إن يد الله كانت في ذلك» نعم ولكن يد الإنسان أيضاً كانت فيه، ولهذا السبب فلابد من توقع الإهانة إذا قصدنا السير مع المسيح. إن اتبِّاعي للمسيح من جهة يصل بي في النهاية إلى السماء إلا أنه أيضاً يستدعي رفضي من العالم، وإذا قلت إني متأكد من الأمر الأول بينما أنا أجهل الحقيقة الثانية فذلك يدل على التناقض، لأنه لو كان المسيح هنا على الأرض الآن فأين كان يسلك وإلى أين يسير؟ وإلى ماذا يميل؟ وهل كنا نرافقه في طريقه؟ علينا أن نسأل أنفسنا هذه الأسئلة في نور الكلمة التي هي كسيف حاد، ولدى عيني القدير، وياليت الروح القدس يجعلنا أُمناء من نحو سيدنا الغائب عنا الذي صلَبه العالم ورفضه. إن الإنسان الذي يسلك بالروح يمتلئ بالمسيح ومتى امتلأ بالمسيح فلا تصبح مشغوليته بالآلام بل بالمسيح الذي يتألم لأجله، ومتى كانت العين شاخصة نحو المسيح فالآلام لا تقاس بالمجد العتيد ولا بالفرح الحاضر.

إن موضوع الإرث قد قادني إلى التوسع أكثر مما قصدت ولكني غير آسف لأن الوقت لم يذهب سُدى والمسألة ذات أهمية عظمى. والآن لنتأمل باختصار في رؤيا إبراهيم الواردة في الجملة الأخيرة من هذا الفصل.

«ولما صارت الشمس إلى المغيب، وقع على أبرام سبات، وإذا رُعبة مظلمة عظيمة واقعة عليه. فقال لأبرام: اعلم يقيناً أن نسلك سيكون غريباً في أرض ليست لهم، ويستعبدون لهم. فيذلونهم أربع مئة سنة ثم الأمة التي يُستعبدون لها أنا أدينها. وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة... ثم غابت الشمس فصارت العتمة، وإذا تنور دخان ومصباح نار يجوز بين تلك القطع» (١٥:١٢-١٧).

في هذه العبارة مُلخص تاريخ إسرائيل كله. ويشير إلى ذلك «التنور والمصباح» فالتنور رمز إلى زمن الآلام والمذلة والامتحان مثل مدة عبوديتهم في مصر وخضوعهم لملوك كنعان والأسر البابلي وتفرقهم في الوقت الحاضر. هذه كلها تشبه تنور الدخان (راجع تثنية ٤:٢٠؛ ١مل٨:٥١؛ إش ٤٨:١٠). وأما مصباح النار فيشير إلى الحوادث التي فيها افتقد الرب شعب إسرائيل بالنعمة مثل خروجهم من مصر على يد موسى وإنقاذهم من تحت يد ملوك كنعان على يد القضاة ورجوعهم من سبي بابل بواسطة قرار كورش ونجاتهم الأخيرة عند ظهور المسيح في مجده. وهكذا نجد هنا أن طريق الوصول إلى الميراث بواسطة التنور. وكلما كان دخان التنور أشد ظلاماً كلما كان مصباح خلاص الله أشد لمعاناً.

على أن هذا المبدأ لا يصدُق فقط على شعب الله كجماعة بل على المؤمنين أفراداً. فكل الذين نالوا مركزاً سامياً كخدام للرب إنما أخذوا المصباح بعدما جازوا في التنور أولاً. لأن إبراهيم وقعت عليه «رُعبة مظلمة عظيمة» ويعقوب احتمل مشقات واحد وعشرين سنة في بيت لابان. ويوسف كان تنور آلامه سجن مصر. وموسى صرف أربعين سنة في البرية. وهكذا مع كل خدام الله، إذ يجب أن يُمتحنوا أولاً حتى إذا وجدوا أمناء يوضعون في الخدمة. والمبدأ الإلهي للذين يخدمون الرب متضمن في قول الرسول بولس «غير حديث الإيمان لئلا يتصلف فيسقط في دينونة إبليس» (١تي ٣:٦).

إن كونك ابناً لله شيء وكونك خادماً للمسيح شيء آخر. فقد يكون لي ابن وأنا أعزه جداً ولكني إذا كلفته بإصلاح بستاني يفسده، ولماذا؟ ألكونه ليس ابناً عزيزاً عندي؟ كلا، بل لأنه ليس خادماً مدرباً. وهذا الفرق جوهري. فالنسبة غير الوظيفة. وجميع أولاد الملكة (يشير إلى الملكة ڤيكتوريا) لا يصلحون الآن إلى وظيفة رئيس وزراء لها. على أننا لا نقصد القول أن أولاد الله جميعهم غير مكلفين بتأدية خدمة أو احتمال آلام أو تعلم درس جديد بل هم مدعوون لذلك، ولكننا نقول إن الخدمة الجهارية مقترن بها التدريب السري. والخادم الذي يشتهر أكثر أمام الناس يحتاج إلى التذلل أكثر وإلى الروح المنسحق والحكم على الذات وحمل إماتة الرب في الجسد وقمع الذات والإرادة وخفض الجناح وهدوء الصوت، وهذه جميعها نتيجة تأديب الله وتدريبه السري. وكل

الذين يحاولون الظهور وأخذ مركز عال بدون أن توجد فيهم الصفات السابقة فلابد من سقوطهم أو افتضاحهم يوماً ما عاجلاً أو آجلاً.

أيها الرب يسوع احفظ خدامك الضعفاء قريبين منك ليكونوا في حمى شخصك المبارك وفي قبضة يمينك.

الأصحاح السادس عشر

في هذا الفصل نجد الشك قد ألقى ظله مرة أخرى في ذهن إبراهيم فعاد إلى الخروج، إلى حين، عن خطة الثقة البسيطة الهنيئة في الله

«فقالت ساراي لأبرام: هوذا الرب قد أمسكني عن الولادة» (٢:١٦).

وهذا القول يدل على القلق الذي ينشأ عادة من عدم الإيمان وكان يجب على إبراهيم أن يفهم ذلك وينتظر من الرب بصبر أن يتمم له وعده الصالح، ولكن القلب الطبيعي المسكين يفضل أي شيء ما عدا الصبر. فيعتمد على الوسائط مهما كان نوعها ويفضلها على الانتظار. إن الإيمان بالوعد عند النطق به في البداءة شيء وانتظار إتمامه بسكوت شيء آخر. هذا الفرق يتضح جلياً إذا تأملنا في حركات طفل صغير. فحين تعده بشيء لا يشك في أقوالك بالكلية ولكن حين يطول الوقت على إتمام ذلك الوعد فلا حد لقلقه وعدم صبره. ولكن ألا يستطيع أعظم حكيم أو فيلسوف أن يرى في مرآة أخلاق الطفل صورة صحيحة لطبعه هو؟ نعم بكل تأكيد. فإبراهيم أظهر في الأصحاح الخامس عشر إيماناً ولكنه لم يظهر في الأصحاح السادس عشر صبراً ومن هذا يتضح لنا جمال تعبير الرسول وقوة العبارة الواردة في عبرانيين ٦ « متمثلين بالذين بالإيمان والأناة يرثون المواعيد » فالله يعطي الوعد والإيمان يقبله والرجاء يتوقعه والصبر ينتظره بسكوت.

يوجد شيء في التجارة اسمه «القيمة الحالية» لوثيقة أو كمبيالة أو سند بحيث أن المدين الذي يطلب تأجيل الدَفع مُكلف أن يعوض عن انتظار الدائن له بمبلغ من المال، وكذلك في أمور الإيمان يوجد شيء اسمه «القيمة الحالية» لموعد الله. وكل قلب يُقدِّر تلك القيمة بحسب قياس إدراكه لله اختبارياً، أي بمقدار ما ينمو في معرفة الله تزيد لديه قيمة وعد الله. وفضلاً عن ذلك فإن النفس الصابرة تجد كل غناها وتعويضها ومكافأتها في إنتظار الرب وهو يتمم ما وعد به.

وأما ساراي فكانت خُلاصة أقوالها لإبراهيم «أن الرب قد قصرت ذراعه وربما جاريتي المصرية تنفع» وفي عدم الإيمان يترجى القلب كل شيء ما عدا الله. وإذا تأملنا في الوسائط التي نتخذها أحياناً لتنفيذ رغائبنا عندما نفقد الشعور بقرب الله منا نستغرب من حقارتها. ولأننا لم نثق في الله ولا اكتفينا به، حينئذ نفقد ذلك الهدوء الذي يشهد عن صحة إيماننا، ومثل بقية الناس نبتدئ نستخدم وسائط كثيرة نظنها كافية لكي تصل بنا إلى غرضنا وندعوها وسائط مستحسنة لا بأس من استعمالها.

إن الخروج عن خطة الاعتماد الكلي على الله أمر مُر وعواقبه وخيمة، وما كان أحسن لسارة لو قالت «إن الطبيعة قد قصُرت ولكن يد الله لا تقصر» وما أعظم الفرق، فإن هذا هو الاعتبار الصحيح. فالطبيعة في الحقيقة هي التي عجزت، ولما عجزت الطبيعة من وجه، أرادت سارة أن تتمها من وجه آخر لأنها لم تتعلم عدم الثقة في الطبيعة من جميع وجوهها. ففي نظر الله وفي نظر الإيمان أيضاً الطبيعة في هاجر ليست أفضل من الطبيعة في سارة. لأن الطبيعة أمام الله واحدة سواء كانت في الشباب أو في الشيخوخة وهكذا لدى الإيمان، ولكن آه منا فإننا لا نختبر قوة هذا الحق إلا حينما تكون أبصارنا متجهة لله وحده، أما عندما يتحول النظر عن ذلك الإله المجيد فما أقرب تمسكنا بأضعف وسائط عدم الإيمان. ونحن لا نتحاشى المصادر البشرية إلا عندما نكون مستندين على الإله الأمين الحي الحكيم وحده، ليس المعنى أننا نستهين بالوسائط لا في حد ذاتها بل لأجل الذي يستخدمها، تبارك اسمه. أما عدم الإيمان فيعتبر الواسطة وحدها ويحكم بالنجاح إذا كانت الواسطة تظهر في نظره كافية عوضاً عن اعتبار كفاية ذاك الذي يستخدمها بنعمته. ومثل شاول عندما نظر إلى داود ثم إلى الفلسطيني وقال «لا تستطيع أن تذهب إلى هذا الفلسطيني لتحاربه لأنك غلام وهو رجل حرب منذ صباه» (١صم١٧:٣٣). مع أن المسألة التي كانت في قلب داود لم تكن فيما إذا كان هو يستطيع أم لا، بل هو الرب يستطيع.

إن طريق الإيمان بسيط جداً وضيق جداً. فهو لا يعظم الواسطة من جهة ولا يحتقرها من الجهة الأخرى بل يضعها في محلها بقدر ما يتضح أنها مرتبة من الله بدون أن يتجاوز هذا الحد. ويوجد فرق بين كون الله يستخدم البشر لإفادتي وبين استخدامي لهم بصرف النظر عن الله، وإن كان الأكثرون لا يلتفتون لهذا الفرق فقد استخدم الله الغربان لإعالة إيليا ولكن إيليا لم يستعملها بصرف النظر عن الله. ومادام القلب واثقاً حقيقة في الله فلا يهتم كثيراً بالواسطة التي يستخدمها بل ينتظره واثقاً أنه بأية واسطة لابد وأن يبارك ويسدد الأعواز.

أما في الحالة المعروضة أمامنا في هذا الفصل فواضح أن هاجر لم تكن هي الواسطة التي قصدها الله لإتمام وعده لإبراهيم. فقد وعده بابن بدون شك ولكنه لم يقل له أن هذا الابن سيُعطَى

له من هاجر. لذلك وقع إبراهيم وسارة في أحزان كثيرة لأنهما اعتمدا على هاجر «ولما رأت أنها حبلت صغرت مولاتها في عينيها» (ع ٤) وهذا هو مبتدأ الأحزان التي نشأت عن الركض وراء الوسائط الطبيعية، فإن سارة الموقرة أصبحت مُهانة من جارية مصرية ووجدت نفسها في ضعف وذل، وفي الحقيقة لا يوجد عز صحيح أو قوة صحيحة إلا متى شعر الإنسان بالضعف في ذاته واعتمد على الله، ولا يوجد شخص رافع رأسه بين الناس ومستقل عن البشر استقلالاً صحيحاً إلا الرجل السائر بالإيمان الذي يترجى الله وحده، وحينما يشعر المؤمن بأنه محتاج للطبيعة أو للناس يفقد مهابته ويصغر في عيون الناس ويشعر هو بذلك، وليس بالأمر الهين أن يحيد المؤمن ولو شعرة واحدة عن طريق الإيمان، إذ يخسر خسارة كبرى. لا شك أن الذين يسيرون بالإيمان تصادفهم تجارب وصعوبات ولكنه يوجد شيء واحد مؤكد ومضمون وهو أن الأفراح والتعزيات التي ينالونها تزيد عن كل ما يصادفونه من التجارب، أما إذا تحولوا عن تلك الخطة فلا يصادفهم سوي التعب والمرارة. «فقالت ساراي لأبرام: ظلمي عليك» (ع٥). هكذا نحن دائماً نوقع اللوم على الآخرين مع أن الخطأ منا. فسارة إنما حصدت ثمر ما زرعته ومع ذلك تقول لأبرام «ظلمي عليك» فقال أبرام لساراي «هوذا جاريتك في يدك افعلي بها ما يحسن في عينيك. فأذلتها ساراي فهربت من وجهها» (ع٦). ولكن هذا لا يفيد ولا يمكن التخلص من «الجارية» بالإذلال. وعندما نقع في خطأ ونبتدئ أن نحصد ما زرعنا فلا يمكن لنا التخلص بالرعونة والقسوة. كثيراً ما نعمل عمل سارة ولكننا نزيد الطين بلة. أما الواجب فهو أننا حين نقع في خطأ نتذلل ونعترف بخطايانا وننتظر من الرب الخلاص. ولكن سارة لم تُظهِر شيئاً من هذا كله، بل بالعكس تتصرف كأنها لم ترتكب خطأ وعوضاً عن أن تتوقع بسكوت خلاص الله حاولت أن تتخلص بالطريقة التي تناسبها. ومتى حاولنا إصلاح خطأنا قبل أن نعترف به فإنما نزيد المسألة إشكالاً. وهكذا نجد هاجر قد رجعت وولدت ابنها الذي كان سبب تعب لابن الموعد ولإبراهيم وعائلته كما سنرى فيما بعد.

على أنه يحسن بنا أن ننظر إلى هذا الحق من وجهين : أولاً من وجه عملي وثانياً من وجه تعليمي. أما الوجه الأول العملي فنتعلم منه أننا إذا ارتكبنا خطأ بسبب ضعف إيمان قلوبنا فليس في استطاعتنا إصلاح الخطأ في لحظة، وطرقنا نحن لا تفيد في ذلك. فالأمور يجب أن تأخذ مجراها «الذي يزرعه الإنسان إياه يحصد أيضاً. لأن من يزرع للجسد فمن الجسد يحصد فساداً. ومن يزرع للروح فمن الروح يحصد حياة أبدية» (غل٦:٧) وهذا المبدأ يبقى ثابتاً غير متغير كما يشهد بذلك الوحي في حوادث كثيرة وتؤيده اختباراتنا الشخصية. إن النعمة تغفر الخطية وترد النفس ولكن ما زُرع لابد من حصاده. وهكذا كان على إبراهيم وسارة أن يحتملا ثقل الجارية

وولدها بضع سنين ثم يتخلصا منها بيد الله. ويا لها من بركة لنفوسنا حين نسلم أمورنا في يد الله. ولو كان إبراهيم وسارة فعلا ذلك لما وقعا في مرارة وجود الجارية وولدها معهما كل تلك المدة. ولكن بما أنهما اعتمدا على الطبيعة فلم يكن بدٌّ من توقع النتيجة. ونحن وأسفاه أحياناً نكون مثل «ثور غير مروض» مع أنه كان يجب أن نقتدي بمن قال «هدأت وسكّت نفسي كفطيم نحو أمه» (مز١٣١:٢) والثور غير المروض ضد الفطيم على خط مستقيم. فالأول يشبه الإنسان الذي يحاول التخلص من نير الظروف التي حوله فيزيده النير آلاماً كلما حاول التخلص منه، أما الثاني فيشبه ذلك الإنسان الوديع المتواضع الخاضع لكل أمر الذي وجد راحته في ذلك الخضوع.

أما من الوجه التعليمي الذي لنا في هذا الفصل فيمكن لنا أن نعتبر هاجر وولدها رمزين لعهد الأعمال وجميع المستعبدين له (انظر غل ٤:٢٢-٢٥) وفي هذه العبارة الهامة نجد «الجسد» مذكوراً بالمقابلة مع «الموعد» ومنها نتعلم ليس فقط فكر الله من جهة ما هو «الجسد» بل نتيجة محاولة إبراهيم أن يحصل على النسل الموعود به بواسطة هاجر بدلاً عن الاستناد على «وعد الله» وهنا نجد العهدين مشبهين بهاجر وسارة وما أعظم الفرق بينهما. فالأولى تؤدي إلى العبودية لأن المسألة تعلقت على الإنسان وما يجب عليه أو ما لا يجب عليه أن يعمله «الذي يعملها يحيا بها» وهنا مسئولية الإنسان وكفاءته. هذا هو عهد هاجر، أما عهد سارة فيعلن الله كإله الموعد. والوعد لا يتعلق بالإنسان بل بإرادة الله وقصده وقدرته على إتمام وعده لأن الله متى وعد فلا محل لكلمة «إذا» ولا موضع للشرط فوعده بدون شروط لأنه يقصد إتمامه، لذلك يستند الإيمان عليه بحرية قلب كاملة ولا حاجة لمساعي الإنسان حتى يتم وعد الله. أما إبراهيم وسارة فلم يدركا ذلك تماماً، بل سعيا بطبيعتهما إلى بلوغ الغرض الذي كان لابد من بلوغه بوعد الله فقط وهذه هي غلطة عدم الإيمان. والقلق من شأنه أن يضع غشاوة أمام النفس فلا تعود ترى بهاء مجد الله «ولم يصنع هناك قوات كثيرة لعدم إيمانهم» (مت١٣:٥٨) أما الإيمان فامتيازه الجميل أن يخلي المسرح لله ليعمل عمله ويعلن ذاته، ومتى أعلن ذاته فما على الإنسان إلا السجود والخشوع.

إن الخطأ الذي وقع فيه الغلاطيون كان في محاولتهم إضافة شيء على ما عمله المسيح لأجلهم على الصليب. لأن الإنجيل الذي كُرز لهم به وقبلوه كان مجرد إعلان نعمة الله المجانية المطلقة بدون شرط وبلا قيد. لقد رسم «يسوع المسيح بينهم مصلوباً» ولم يكن ذلك مجرد وعد من الله بل وعد قد أكمله بكيفية مجيدة. إن المسيح المصلوب فيه كفاية كل مطلب سواء كان من جهة عدل الله أو احتياج الإنسان. إلا أن المعلمين الكذبة قلبوا أو بالحري حاولوا أن يقلبوا هذه الحقائق بقولهم «إن لم تختتنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا» (أع١٥:١) ولكن الرسول أبَان لهم أن نتيجة ذلك في الحقيقة

هي مثل القول «المسيح إذاً مات بلا سبب» (غل٢:٢١) لأنه إما أن يكون المسيح مخلصاً كاملاً أو لا يكون مخلصاً البتة. ومتى قال واحد لا يمكنك أن تخلُص إلا إذا عملت كذا وكذا فقد حوَّل إنجيل المسيح، لأني في المسيحية أرى الله متنازلاً إليَّ حيث أنا وكما أنا أي كخاطئ هالك عديم النفع وأما هو فعنده مغفرة جميع خطاياي وخلاصي من الهلاك الأبدي بواسطة عمله الذي أجراه بالصليب.

إذاً الذي يقول لي «يجب أن تكون كذا وكذا لكي تخلُص» هو سالب مني سلامي ومن الصليب أمجاده. لأنه إذا توقف أمر خلاصي على أي شيء فيّ أو مني فأنا أهلك ولا محالة. ولكن والحمد لله ليس كذلك إذ مبدأ الإنجيل الجوهري أن الله هو الكل والإنسان لا شيء. والخلاص ليس مزيجاً من الله والإنسان بل الكل من الله. وسلام الإنجيل لا يتعلق بعضه على عمل المسيح وبعضه على عمل الإنسان وإنما يتعلق على عمل المسيح وحده ليس إلا لأنه كامل - وهو كامل إلى الأبد - ويكمل جميع الذين يؤمنون به بذلك الكمال نفسه.

إن الناموس وُضع لامتحان الإنسان وإظهار حقيقة أمره وخرابه الكامل، فهو يضعه تحت اللعنة. وليس ذلك فقط بل يكتب عليه اللعنة ما دام تحته - أي ما دام حياً. لأن الناموس «يسود على الإنسان ما دام حياً» أما إذا مات فبالطبع تبطل سيادته على ذلك الإنسان ولكنه يبقى نافذ المفعول فيلعن كل إنسان حي تحت سطوته.

على أن الإنجيل يفرض الإنسان بعكس ذلك ميتاً وهالكاً وعديم النفع ثم يعلن الله كما هو - مخلص الهالكين - محيي الأموات - غفور للمؤمنين - فهو لا يعلنه كمن يطلب من الإنسان شيئاً (لأنه ماذا يُنتظر من إنسان مات مفلساً؟) بل كمن يقدم نعمة الفداء مجاناً بلا قيد. والفرق عظيم جداً. ولا غرابة أن نرى الرسول بولس متكلماً بلهجة شديدة في رسالته إلى أهل غلاطية كقوله مثلاً «إني أتعجب» أو «من رَقَاكم» أو «أخاف عليكم» و «يا ليت الذين يقلقونكم يُقطعون أيضاً» فبمثل هذه اللهجة ينطق الروح القدس الذي يعرف قيمة المسيح الكامل والخلاص الكامل، ويعرف أيضاً قيمتها للإنسان الهالك. وإنك لن تجد في صفحات الوحي جميعه لهجة شديدة كهذه في أية رسالة أخرى ولا إلى الكورنثوسيين أنفسهم الذين وقعوا في أشنع الخطايا وأسوأ الأمور. لأن كل خطأ وكل تشويش يمكن إصلاحه بواسطة إعلان نعمة الله. أما الغلاطيون فكانوا مثل إبراهيم في هذا الفصل قد ابتعدوا عن الله ووضعوا ثقتهم في الجسد. وأي دواء يفيد في هذا الداء يا ترى؟ بل كيف يمكنك أن تصلح خطأ هو عبارة عن ابتعاد عن القوة التي بها وحدها يُصلح الخطأ أو الضلال؟ إن السقوط من النعمة يعد رجوعاً إلى الناموس، والناموس لا يجلب سوى اللعنة. ليت الرب يثبِّت قلوبنا في نعمته الغنية دائماً.

الأصحاح السابع عشر

هنا نقرأ عن العلاج الإلهي لفشل إبراهيم

«ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لأبرام وقال له: أنا الله القدير. سر أمامي وكن كاملاً*» (١٧:١).

* أريد أن أبدي هنا ملاحظة على قوله «كاملاً» فإن إبراهيم لما دُعي أن يكون كاملاً لم يكن الغرض أن يكون كاملاً في ذاته لأن ذلك غير ممكن وهو لم يصل إلى هذا القياس مطلقاً. إنما المعنى أن يكون كامل الغرض الموضوع أمام قلبه بحيث تنحصر كل رغائبه وآماله في «الإله القدير» وهذا الكمال المقصود هنا.
وإذا رجعنا إلى العهد الجديد نجد لفظة «كامل» واردة على الأقل بأربع معان مختلفة: ففي متى٥:٤٨ مثلاً نقرأ «كونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السماوات هو كامل»، ومن سياق الحديث نتعلم أن الكمال المقصود هنا هو من جهة مبدأ التصرف لأننا نقرأ في عدد ٤٤ قوله «أحبوا أعداءكم .. لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات. فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين»، ومن هذا نرى أن الكمال المقصود في متى٥:٤٨ هو معاملة الجميع على مبدأ النعمة حتى للذين أساءوا إلينا وظلمونا، إذاً فالمسيحي الذي يسلك بالناموس ويصر على حقوقه لا يقال عنه إنه كامل كما أن أباه الذي في السماء كامل، لأن أباه يعامل الكل بالنعمة أما هو فيعاملهم بالعدل. على أن غرضنا من هذا ليس هو تحليل أو تحريم أمر سلوكنا بطريقة ناموسية في تعاملنا مع أهل العالم إنما قصدنا بهذه الملاحظة أن المسيحي الذي يتصرف بهذه الصورة لا يشابه أباه الذي يعامل العالم على غير هذا المبدأ، وهو غير جالس على كرسي الدينونة بل على عرش النعمة - كرسي الرحمة - لذلك يمطر بركاته على أناس لو عاملهم بمقتضى الناموس لأهلكهم في جهنم. إذاً فالمسيحي الذي يجر الناس إلى ساحة القضاء ليس «كاملاً كما أن أباه الذي في السماوات كامل» (أما من جهة القضايا التي بيننا وبين إخوتنا ففي نص الوحي الوارد في ١كورنثوس ٦ تعليم واضح بكلام صريح فليراجعه القارئ في محله). ومن المثل الوارد في آخر الأصحاح الثامن عشر من إنجيل متى نتعلم أن الإنسان الذي يطالب بحقوقه إنما يجهل حقيقة النعمة ونتائجها لأن ذلك العبد الذي يطالب العبد رفيقه بما كان له عليه من الدين لم يكن غير عادل بل كان غير رحوم فلم يشابه سيده الذي كان قد سامحه بعشرة آلاف وزنة بل أمسك بخناقه من أجل مائة دينار فقط. وماذا كانت النتيجة؟ أنه أسلم إلى المعذبين، فأضاع لذة الشعور بالنعمة وحصد مرارة ما زرعه إذ طلب إثبات حقوقه مع أنه موجود في دائرة نعمة، ولاحظ هنا أنه دُعي «عبد شرير» ليس لأنه كان مديوناً بعشرة آلاف وزنة بل لأنه طالب «بمائة دينار»، لأن نعمة سيده استطاعت أن تتجاوز عن ذلك المبلغ الطائل ولكنها لم تستطع أن تتجاوز عن حال العبد مع رفيقه. وفي هذا المثل مغزى بليغ وصوت عال لأذن المؤمن الذي يقصد باب الحاكم. إلا أنه وإن كان قد قيل في نهاية المثل «هكذا أبي السماوي يفعل بكم إن لم تتركوا من قلوبكم كل واحد لأخيه زلاته» ولكن المبدأ الذي ينطبق على المؤمن إجمالاً هو أن الإنسان الذي يعامل الناس بالعدل يفقد لذة النعمة.
وفي عبرانيين ٩ نجد معنى آخر للفظة «كامل» تدل عليه القرينة. وهو «الكمال من جهة الضمير» ويجب أن نفهم ذلك ونستوعبه جلياً. فالخادمون تحت عهد الناموس لم يكن لهم ضمير كامل وسبب ذلك واضح وهو أن الذبيحة التي كانوا يقدمونها لم تكن كاملة. ودم الثيران والتيوس إنما كان يطهر إلى وقت، لا إلى الأبد لذلك لم يكن ممكناً أن يكمل الضمير. أما الآن فأضعف مؤمن بالمسيح له الحق أن يتمتع بالضمير الكامل. ولماذا؟ ألكونه أفضل من الخادمين تحت عهد الناموس؟ لا، بل

وهي جملة مشحونة بالفوائد. ومنها يتضح أن إبراهيم لم يكن سائراً أمام الله القدير في سماعه لكلام سارة في موضوع هاجر. والإيمان وحده هو الذي يمكِّن الإنسان من السير في جميع ظروفه أمام الله القدير. أما الشك فيركن إلى الظروف ويعتمد على شيء من الذات أو على أسباب واهية فيحرم النفس من لذة الفرح والسلام ويفقدها تلك الثقة وذلك الهدوء، الأمور التي يمتاز بها كل من يستند على ذراعي ذاك الذي في استطاعته كل شيء. ونحن جميعاً نحتاج إلى درس هذا الموضوع لأن الله لا تتحققه كما يجب ولا كما هو في الحقيقة إلا النفس السائرة في طريق الإيمان البسيط والثقة الكاملة.

«سر أمامي». هنا سر القوة بمعناها الصحيح. ومتى سرت أمام الله فلا يكون أمام قلبي غرض آخر سوي الله نفسه. أما إذا كان انتظاري في البشر أو في الأشياء الموجودة في العالم فلا أكون سائراً أمام الله بل أمام الناس وأشياء العالم. ويهمنا جداً أن نتحقق من الغرض الذي يملك زمام قلوبنا، إلى أي شيء أنا ناظر؟ على أي شيء أنا مستند؟ هل الله وحده موضوع انتظاري وثقتي، أم البشر والأمور المنظورة عاملة فيَّ. ألا يوجد للخليقة بأسرها محل عندي؟ إنه غير ممكن أن أسير مرفوعاً فوق ظروف العالم الحاضر سوي بالإيمان. لأن الإيمان يجعل الله يملأ المشهد فلا يبقى محل للخليقة، لأنه إذا ملأ الله دائرة وجودي فلا مكان لغيره «إنما لله انتظري يا نفسي لأن من قبله رجائي إنما صخرتي وخلاصي وملجأي فلا أتزعزع» (مز٦٢: ٥، ٦) ويجب أن أفحص نفسي بهذا القول لأن الطبيعة من ذاتها لا تقول هذا القول. قد يمكن في بعض الظروف (وقت الشدة واليأس) أن تنتظر الله ولكن ليس «الله وحده».

وهذا ما ينبغي أن نتأمل فيه جيداً. وسواء كان في أمر خلاصنا أو في حياتنا اليومية لا يريد الله أن يعطي مجده لآخر بل من البداية إلى النهاية يجب أن يبقى وحده. ليس بالكلام بل بالعمل والحق لأن الاعتماد على الشفتين في الاستناد على الله لا يفيد شيئاً إذا كان القلب متوكلاً على غيره، ولابد أن الله يكشف حقيقة الأمر فيمتحن القلب ويمحص الإيمان بنار التجربة «سر أمامي وكن كاملاً» ولا نستطيع أن نعرف حقيقة ذواتنا إلا بالامتحان لكي تتمكن النفس بنعمة الله أن

من أجل قربانه الأفضل. ومادام قربانه كاملاً إلى الأبد فضميره كامل إلى الأبد. وهما شيئان متلازمان بالضرورة. والمؤمن الذي ليس له ضمير كامل إنما يهين قربان المسيح وكأنه يقول إن ذبيحة المسيح مفعولها وقتي لا أبدي. وما معنى ذلك سوي الحط من كرامة الذبيحة نفسها إلى درجة مساواتها بذبائح العهد الموسوي. ويجب أن نميز هنا الفرق بين كمال الضمير والكمال في الجسد. وكما أن رفض الحقيقة الأولى إهانة لشخص المسيح كذلك القول بالأمر الثانى تعظيم للذات، فالطفل في المسيح يجب أن يكون له الضمير الكامل ولكن الرسول بولس نفسه لم يستطع الادعاء بالكمال في الجسد ولا أمكن له الوصول إلى ذلك. وكلمة الله لا تذكر مطلقاً أن الجسد يمكن أن يتكمل بل تقول إنه قد صُلب وشتان بين القولين. إذن المسيحى فيه الخطية ولكن ليس عليه خطية. ولماذا؟ لأن المسيح الذي لم يكن فيه خطية قد وضعت عليه الخطية مرة حين سُمِّر على الصليب. وأخيراً نقرأ عن معنيين آخرين في فيلبى ٣ إذ يقول الرسول أولاً «ليس إنى قد نلت أو صرت كاملاً» ثم يتقدم بعد ذلك إلى قوله «فليفتكر هذا جميع الكاملين منا» ففى الحالة الأولى يشير بالكمال إلى مشابهة المسيح في صورة المجد والكمال الأبدي وفى الحالة الثانية يقصد جعل المسيح غرض قلوبنا وموضوع تأملنا الوحيد.

تتخلص من كل سند بشري أو انتظار للمخلوق. حينئذ يتداخل الله في أمر خلاصي ومتى تداخل الله فالكل خير لأنه لابد أن يُجري كل شيء ويُتمم كل أمر للذين يتوكلون عليه التوكل البسيط، ومتى كانت حكمة الله البالغة وقدرته الإلهية ومحبته الفائقة عاملة لأجل الإنسان فما على النفس إلا أن تستريح في صدره الحنون، ومادام لا يعسر على «الله القدير» شيء سواء كان كبيراً أو صغيراً فلا حق لنا أن نهتم بشيء. هذا الحق خطير ويضمن لكل المؤمنين به ذلك المركز المبارك الذي نجد إبراهيم يشغله في هذا الفصل. لأنه لما قال الله لإبراهيم ما معناه «سلم لي أمورك وأنا أجري أكثر مما تنتظر أو يخطر لك على بال سواء كان من جهة النسل أو الميراث أو أي شيء وأنا ضامن لك ذلك بموجب عهد الله القدير» حينئذ «سقط أبرام على وجهه» (ع ٣) وياله من موقف مبارك حقاً، والموقف الوحيد الذي يليق بكل خاطئ عاجز، لا حيلة له، ولا قدرة، أمام الإله الحي خالق السماوات والأرض ومالك كل شيء «الله القدير».

«وتكلم الله معه» (ع٣) إن الله يتنازل ويكلم الإنسان بالنعمة متى وضع نفسه في التراب. وموقف إبراهيم هنا مثال التواضع والتذلل أمام الله القدير لأنه شعر بضعفه وحقارته. وليلاحظ القارئ أن هذا هو سر إعلان الله ذاته لنا، لأنه يستطيع أن يعلن نفسه في نور وبهاء مجد طلعته متى تواضع المخلوق أمام خالقه، لأن مجده لا يعطيه لآخر أبداً وإنما يظهر ذاته للإنسان الخاشع الذي يريد أن يسجد له في نور ذلك الإعلان، والإنسان الذي لا يأخذ مركزه كخاطئ لا يستطيع الله أن يعلن له صفاته الإلهية.

وشتّان بين موقف إبراهيم في هذا الفصل وموقفه في الفصل السابق فهناك كانت الطبيعة أمامه أما هنا فالله القدير أمامه. هناك كان يُرَى عاملاً أما هنا فنراه ساجداً. هناك كان يعمل برأيه ورأي سارة امرأته أما هنا فيُسلّم كل أموره حاضرها ومستقبلها بين يدي الإله القدير لكي يعمل معه وبه ولأجله ولهذا استطاع الله أن يقول له «أجعل» «أقيم» «أعطي» «أبارك» أو بعبارة أوضح أصبح الله الكل في الكل، وهذه هي الراحة الصحيحة للقلب التعبان الذي تعلّم حقيقة حاله.

بعد ذلك نقرأ عن عهد الختان أي أنه ينبغي على كل عضو من أعضاء عائلة الإيمان أن يحمل في جسمه سمة ذلك العهد بلا استثناء

«وليد البيت، والمبتاع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك. يُختن ختاناً وليد بيتك والمبتاع بفضتك، فيكون عهدي في لحمكم عهداً أبدياً أما الذكر الأغلف الذي لا يُختن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها. إنه قد نكث عهدي» (١٧: ١٢-١٤).

ونتعلم من رومية ٤ أن الختان كان «ختاناً لبر الإيمان» «فآمن إبراهيم بالله فحسب له براً» وإذ حسبه الله له براً لذلك «ختمه».

أما الختم الموضوع على المؤمن الآن فليس مجرد علامة خارجية في الجسد بل «روح الله القدوس

الذي به ختمتم ليوم الفداء » (أف٤: ٣٠) وهذا الختم مؤسس على اتحاد المؤمن بالمسيح ومشابهته له في الموت وفي القيامة شبهاً كاملاً كما ورد في كولوسي « وأنتم مملوءون فيه الذي هو رأس كل رئاسة وسلطان. وبه أيضاً ختنتم ختاناً غير مصنوع بيد بخلع جسم خطايا البشرية بختان المسيح مدفونين معه في المعمودية التي فيها أقمتم أيضاً معه بإيمان عمل الله الذي أقامه من الأموات. وإذ كنتم أمواتاً في الخطايا وغلف جسدكم، أحياكم معه مسامحاً لكم بجميع الخطايا » (كو٢: ١٣) هذه العبارة البليغة تكشف لنا حقيقة قضية الختان المجيدة وتدل على ما كانت تشير إليه. فكل مؤمن هو « من الختان » روحياً لأنه قد اقترن بذاك الذي بواسطة صليبه قد أبطل كل ما كان ضداً لنا وحائلاً دون تبريرنا الكامل. لأن المسيح عند الصليب لم يُبق خطية واحدة على ضمير شعبه ولا شيئاً في طبيعته إلا وقد قبل دينونته هناك. ومع المسيح أصبح المؤمنون به محسوبين أنهم قد ماتوا ودفنوا في القبر ثم أقيموا معه، وفيه صاروا مقبولين القبول التام - خطاياهم وآثامهم وتعدياتهم وعداوتهم وغلفهم قد مُحيت جميعاً بالصليب. لقد كتب حكم الموت على الجسد؛ أما المؤمن فقد صارت له حياة جديدة لاقترانه مع رأسه المجيد المُقام من الأموات.

وفي العبارة التي اقتبسناها آنفاً يعلمنا الرسول أن الكنيسة قد أُقيمت مع المسيح وأنها قد تسامحت بجميع خطاياها مسامحة كاملة بمقدار كمال عمل الله في إقامة المسيح من الأموات ونحن نعلم أن المسيح قد أقيم من الأموات « بمجد الآب » و « قوة الله » أو كما يقول الرسول في أفسس ١: ١٩ « حسب عمل شدة قوته » وفي هذا التعبير بيان عظمة ومجد الفداء ومتانة الأساس الذي قد بُني عليه.

ويالها من راحة كاملة للقلب والضمير معاً. بل يا لها من نجاة للنفس المثقلة، لأن خطايانا جميعها قد دُفنت في قبر المسيح ولم يبق منها ولا واحدة مهما كانت صغيرة. هذا ما عمله الله لأجلنا بحيث أن كل ما يمكن لعين الله أن تراه فينا من الإثم قد وُضع على رأس المسيح حين كان معلقاً على الصليب. وهناك قد وضع الله عليه إثمنا عوضاً عن أن يديننا نحن بسببه إلى الأبد في جهنم. وهذه هي نتيجة مشورة محبته الفدائية الأزلية، وما أحسن وما أجمل ذلك، ثم إنه ختمنا لا بعلامة ظاهرة في الجسد بل بالروح القدس وهو الختم المختوم به كل أعضاء عائلة الإيمان. لأنه بسبب عظم قيمة وكفاية دم المسيح، صار الروح القدس يسكن في كل الذين يعتمدون على هذا الدم.

والآن ماذا بقي على الذين أدركوا هذه الحقائق سوى أن يكونوا « راسخين غير متزعزعين مكثرين في عمل الرب كل حين » (١كو١٥: ٥٨). ياليت هذا يكون شأننا أيها الرب يسوع بواسطة نعمة روحك القدوس.

الأصحاح الثامن عشر

هذا الفصل يبين لنا بكل وضوح نتيجة السير بالطاعة والأمانة للرب «ها أنا واقف على الباب وأقرع. إن سمع أحد صوتي وفتح الباب، أدخل إليه وأتعشى معه وهو معي» (رؤ٣:٢٠) وفي يوحنا ١٤:٢٣ نقرأ أيضاً «أجاب يسوع وقال له إن أحبني أحد يحفظ كلامي، ويحبه أبي، وإليه نأتي، وعنده نصنع منزلاً» وبمقارنة هاتين العبارتين مع ما ورد في هذا الفصل المطروح أمامنا نتعلم أن النفس الطائعة تتمتع بلذة شركة لا يعرفها المؤمن العالمي بالمرة.

هذه المسألة لا دخل لها بالمرة في أمر الغفران والتبرير. فكل المؤمنين قد لبسوا ثوب البر على السواء وجميعهم قد وقفوا على أساس واحد لتبريرهم أمام الله. لأن الحياة الواحدة الصادرة من الرأس الذي في السماء تجرى في جميع أعضائه الذين على الأرض. هذه الحقائق كلها واضحة وبسيطة، والتعاليم الواردة في كلمة الله بشأنها ثابتة لا تقبل النقض وقد أوضحناها المرة بعد المرة على صفحات هذا الشرح فيما مضى، ويجب أن نفهم أن التبرير شيء وثمره شيء آخر. فكوني ابناً غير كوني ابناً طائعاً. ولكننا نعلم أن الآب يحب الابن المطيع ويستودعه أسرار مقاصده وأفكاره. ولكن ألا يصدق هذا القول على الآب السماوي أيضاً؟ بدون شك وفي يوحنا ١٤:٢٣ فصل الخطاب. كما أننا نتعلم منه أن الذي يقول إنه يحب المسيح ولا يحفظ كلامه هو مُراء «إن أحبني أحد يحفظ كلامي» إذن إن كنا لا نحفظ كلام المسيح فذلك برهان صريح على أننا غير سالكين في محبة اسمه. لأن محبة المسيح تتأيد بعمل ما يأمر به لا بمجرد القول «يارب يارب» والذي قال «أذهب يا سيد» ولم يمض، لأنه لم ينو إتمام القول من قلبه، لم يفد قوله شيئاً.

أما إبراهيم ولو أنه قصّر في بعض الأمور إلا أننا نرى في حياته إجمالاً صفات الطاعة البسيطة والإخلاص في سيره مع الله ومعاشرته له. وفي هذا الفصل اللذيذ المطروح أمامنا الآن نراه متمتعاً بثلاثة امتيازات مهمة أعني بها تقديم ما يُشبع الرب، والتمتع بشركة قوية مع الرب،

والشفاعة في الآخرين لدى الرب. وهي امتيازات جميلة ونتيجة لازمة للسير المقدس بالطاعة والأمانة.

إن في الطاعة طعاماً للرب لأنها ثمر نعمته في قلوبنا. وفي ذلك الإنسان الوحيد الذي عاش كاملاً نرى كيف تركزت مسرة ولذة الله، حتى شُهد له مرة بعد مرة بصوت من السماء قائلاً «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت» (مت٣:١٧) ذلك لأن حياته كانت وليمة فاخرة للسماء وسيرته رائحة طيبة لدى عرش الله. فمن المذود إلى الصليب كان يعمل رضى الله ومسرته بدون انقطاع وبلا تكلف، فهو الشخص الكامل وحده، وفيه وحده وجد الروح القدس حياة الكمال هنا على الأرض. ولو أننا نقرأ من حين إلى آخر على صفحات الوحي عن بعض الأشخاص عاشوا أوقات فيها وجد الله طعاماً حسب فكر قلبه، كما في الفصل الموضوع أمامنا الآن، حيث نجد الرب يتناول طعامه في خيمة ذلك الإنسان الغريب نزيل ممرا ـ ويتناول بشهية ورغبة من يد سخية (ع١-٨).

ثم إننا نقرأ بعد ذلك عن تمتع إبراهيم بالشركة السامية مع الرب إذ عرض عليه مصالحه الخصوصية أولاً (ع٩-١٥) ثم مستقبل سدوم ثانياً (ع١٦-٢١). وقد ثبّت الرب لإبراهيم حينئذ الوعد الوطيد بأن سارة هي التي ستلد له الابن. ولكن سارة ضحكت عند سماعها هذا الوعد الصريح كما ضحك إبراهيم من قبلها كما شاهدناه في الفصل السابق.

والكتاب المقدس يتكلم عن نوعين من الضحك. ضحك يملأ به الرب أفواهنا عندما يُعلن ذاته بطريقة عجيبة لإنقاذنا من ضيق شديد نكون واقعين فيه «عندما رد الرب سبي صهيون، صرنا مثل الحالمين. حينئذ امتلأت أفواهنا ضحكاً، وألسنتنا ترنماً. حينئذ قالوا بين الأمم: إن الرب قد عظّم العمل مع هؤلاء. عظّم الرب العمل معنا، وصرنا فرحين» (مز١٢٦:١-٣).

النوع الثاني ضحك تمتلئ به أفواهنا عندما نرتاب في صدق مواعيد الله لأن قلوبنا أضيق من أن تسع عظمتها لأنها تفوق تصورات أفكارنا البشرية المحدودة.

أما النوع الأول من الضحك فلا نخاف من المجاهرة به ولا نخجل منه كما أن أبناء صهيون لا يخجلون من القول «حينئذ امتلأت أفواهنا ضحكاً» لأنه متى أوجد الرب سبباً للضحك نضحك بملء أفواهنا، ولكن سارة أنكرت قائلة لم أضحك لأنها خافت، والريب يقودنا إلى الجبن ثم الكذب أما الإيمان فيملأنا ثقة وصدقاً «فلنتقدم بثقة» (عب٤:١٦) «لنتقدم بقلب صادق» (عب١٠:٢٢).

ثم نقرأ عن اعتبار الله لإبراهيم مستودع أفكاره ومشوراته بخصوص سدوم لأن إبراهيم وإن كانت علاقته الشخصية مع سدوم لا وجود لها ولكن قرابته من الله جعلته يعرف فكر الله عنها،

وهكذا نحن أيضاً إذا أردنا أن نعرف فكر الله عن هذا العالم الحاضر، يجب أن تنقطع علاقتنا به من حيث أعماله ومشروعاته ونعيش بالانفصال عنه. ومتى كانت شركتنا مع الله حية وقوية بواسطة خضوعنا لكلمته صار لنا فكر الله من جهة كل شيء في هذا العالم. فلا أحتاج إلى مطالعة الجرائد لكي أعرف ما هو مزمع أن يحدث في العالم، لأن كلمة الله فيها ما أريد أن أعرفه عن ذلك، والذي يطالعها يفهم وصف العالم وما امتاز به وكيف يسير وإلى أين المصير. أما مطالعة ما كتبه الناس في جرائدهم عنه فلابد أن إبليس يستخدم بها أعوانه ليذر الرماد في العيون حتى لا ترى النهاية من خلاله.

ولو كان إبراهيم قد ذهب إلى سدوم لكي يعلم منها بعض الحقائق ويسأل علماءها عن حاضرها ومستقبلها حسب أفكارهم فماذا كانوا يجيبونه يا ترى؟ لا ريب إنهم كانوا يوجهون نظره إلى تقدمها الزراعي والمعماري وإلى موارد الثروة والرزق التي بين أيديهم فيرسمون أمام عينيه مناظر البيع والشراء والأخذ والعطاء والزرع والبناء والأكل والشرب والكساء والتزوج والتزويج. ومما لا جدال فيه أن أمر الدينونة ما كان يخطر لهم على بال. ولو ذكرت أمامهم لامتلأت أفواههم بضحك الاستهزاء والكفر. إذن ليست سدوم المكان المناسب لمعرفة نهاية سدوم، وواضح أن «المكان الذي وقف فيه إبراهيم أمام الرب» كان هو المكان الوحيد الذي منه يقف الإنسان على الحقيقة، إذ يكون فوق الغيوم والضباب المتلبد فوق جو سدوم - بل في وسط جو الحضرة الإلهية الهادئ الصافي. حينئذ يفهم حقيقة كل أمر. ولكن ماذا استفاد إبراهيم من معرفته ومن مركزه الذي وجد فيه؟ وفي أي شيء كانت مشغوليته وهو في حضرة الله؟ إن الجواب على هذه الأسئلة يقودنا إلى الكلام عن الامتياز الثالث الذي تمتع به أبو المؤمنين في الفصل المطروح أمامنا الآن أعني به: الشفاعة في الآخرين لدى الرب.

إن إبراهيم وجد فرصة يدافع فيها عن أولئك الذين تدنسوا بمخالطتهم أهل سدوم. وطوبى للذي يغتنم فرصة قربه من الله لكي يقدم خدمة كهذه. هكذا عمل إبراهيم وهكذا يعمل كل إنسان قريب من الله كل حين. والنفس التي تتقدم إلى الله بقلب صادق في يقين الإيمان وهي مستريحة القلب والبال، بحيث يكون الله هو سندها الوحيد ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، تستطيع بل ترغب في أن تشفع في الآخرين. والإنسان اللابس «سلاح الله الكامل» يصلي من أجل جميع القديسين. ولكن هذا كله يذكرنا بشفاعة ذلك الكاهن العظيم الذي اجتاز السماوات؛ الذي استراح الراحة الكاملة في مشورات الله الأزلية؛ الذي بشعور كامل بقبوله التام يجلس على عرش أبيه في وسط بهاء مجد السماوات، الذي بحسب كفايته يشفع لمن هم موضوع تلك الشفاعة المقتدرة في فعلها بل

ما أسعدهم حقاً، فهم مغبوطون ومحفوظون. ويا ليت قلوبنا تدرك معنى هذا كله، فتتسع بواسطة الشركة المستمرة الشخصية مع الله وتمتلئ إلى كل ملء نعمته وكفايته لسد كل أعوازنا.

على أننا نرى في هذا الفصل أن شفاعة إبراهيم مهما كانت مباركة فإنها محدودة لأن الشفيع كان إنساناً فقط. لذلك لم يكن فيها سد كل عوز. لأنه قال «أتكلم هذه المرة فقط» ثم اقتصر على ذلك كأنه خاف أن يسحب من خزينة النعمة الغنية أكثر مما تتحمله، أو نسى أن تحويل الإيمان لا يرجع من المصرف الإلهي مرفوضاً، فينابيع الله لا تنضب إذ في غنى نعمته وصبره كان يوجد ما يكفي لسد عوز عبده العزيز ولو كان العدد قد وصل إلى ثلاثة بل إلى واحد. ولكن العبد قصَّر، وخاف أن يسحب أكثر من حسابه فامتنع عن الطلب لذلك امتنع الله عن العطاء. أما شفيعنا المبارك فليس كذلك فقد قيل عنه «من ثم يقدر أن يخلص أيضاً إلى التمام .. إذ هو حي في كل حين ليشفع فيهم» (عب٧:٢٥) يا ليت قلوبنا تتعلق به وتتمسك به في كل احتياجاتنا وضعفاتنا وتجاربنا.

وقبل أن أختم هذا الموضوع أريد أن أقدم ملاحظة سواء كان لها علاقة بالحقيقة المتقدمة أم لا لأنها جديرة بالالتفات والاهتمام. ذلك أنه يجب أن نُميز بين معاملات الله الأدبية مع العالم وبين رجاء الكنيسة الخاص بها، فذلك له شأن خطير عند مطالعتنا الكتاب. فنبوات العهد القديم جميعها والجزء الأكبر من العهد الجديد يبحث في الأمر الأول؛ ولا شك أن تلك المباحث لها علاقة بكل مسيحي وتلذ له، ويهمه أن يعلم ما يعمل الله. وما هو مزمع أن يعمله مع جميع أمم الأرض؛ لذلك يقرأ بشوق عن أفكار الله. من جهة صور وبابل ونينوى وأورشليم ومصر وأشور وأرض إسرائيل. وبالاختصار فإن محتويات العهد القديم كله تستدعي اهتمام كل قارئ مسيحي وتأمله الدقيق بروح الصلاة. ولكن علينا أن نتذكر أننا لا نجد فيها رجاء الكنيسة بمعناه الصحيح الصريح. بل كيف يتأتى ذلك، ومعلوم أن مسألة وجود الكنيسة لم تكن قد أعلنت بعد؟ إذن غير ممكن أن نقرأ هناك عن رجاء الكنيسة. ليس المعنى أن الكنيسة لا تقتبس من صفحات الوحي في العهد القديم مبادئ أدبية صحيحة تصدق عليها أو تستفيد منها ومن ممارستها. ففيها تجد كل ذلك ولكن هذا غير رجائها الخاص بها. ومع ذلك فكثيرون قد طبقوا أقوال العهد القديم على حالة الكنيسة ونتج عن ذلك أنهم شوهوا الموضوع فنفرت أذهان البسطاء من مطالعته، وإذ أهملوا مطالعة القسم النبوي أهملوا أيضاً أمراً متميزاً كلية عن النبوات ألا وهو رجاء الكنيسة. ورجاء الكنيسة ليس عبارة عن معاملات الله مع أمم الأرض أخيراً بل مقابلة الرب يسوع في سُحب السماء إذ نكون معه ومثله إلى الأبد. هذا ما يجب أن نتذكره جيداً.

ربما يقول البعض: ليس لي رأس يسع النبوات ولكني أقول لهذا أليس لك قلب يسع المسيح؟

لأنك إذا كنت تحب المسيح فلابد وأن تحب ظهوره حتى ولو لم تكن لك مقدرة على درس النبوات. إن الزوجة التي تحب زوجها وإن كانت لا تستطيع أن تشترك معه في مهام أشغاله إلا أن لها قلباً ينتظر عودته إلى منزله. قد لا تفهم دفاتر حساباته ويومياته ولكنها تعرف صوته وتميز وقع أقدامه على درج السلم. ومهما كان المؤمن عامياً ما دامت له محبة نحو شخص الرب يسوع فهو يشتاق أن يراه وهذا هو رجاء الكنيسة. لذلك يقول الرسول لأهل تسالونيكي «رجعتم إلى الله من الأوثان، لتعبدوا الله الحي الحقيقي، وتنتظروا ابنه من السماء» (١تس١:٩ ، ١٠) وواضح أن التسالونيكيين كانوا وقتئذ في بداية الإيمان وكانت معرفتهم بالأسفار النبوية لا تُذكر لو صح أنهم درسوها أصلاً ومع ذلك فمن أول وهلة كانت لهم قوة رجاء الكنيسة ـ أي مجيء ابنه من السماء. وهذا ما نشاهده في جميع أسفار العهد الجديد. نعم إن فيها قسماً نبوياً عن معاملات الله الأدبية ولكن الآيات العديدة التي يمكن الاستشهاد بها عن رجاء المسيحيين أيام الرسل من جهة «رجوع العريس» تثبت أن ذلك الرجاء كان بسيطاً وحياً. ليت الروح القدس يحيي «ذلك الرجاء المبارك» (تي٢:١٣) ويجدده في الكنيسة، بل ليته يجمع مختاريه «ويهيء للرب شعباً مستعداً» (لو١:١٧).

الأصحاح التاسع عشر

توجد طريقتان يستخدمهما الرب بنعمته لاجتذاب القلب إليه من وراء العالم الحاضر. الأولى بإظهار ثبات وجمال «ما فوق» والثانية بإظهار زعزعة وزوال «ما على الأرض» ولنا في خاتمة الأصحاح الثاني عشر من الرسالة إلى العبرانيين مثال جميل لكل من الطريقتين. فبعدما قرر الوحي حقيقة مجيئنا إلى جبل صهيون بما فيه من أفراح وامتيازات يتقدم الرسول إلى قوله «انظروا أن لا تستعفوا من المتكلم. لأنه إن كان أولئك لم ينجوا إذ استعفوا من المتكلم على الأرض، فبالأولى جداً لا ننجو نحن المرتدين عن الذي من السماء! الذي صوته زعزع الأرض حينئذ، وأما الآن فقد وعد قائلاً إني مرة أيضاً أزلزل لا الأرض فقط بل السماء أيضاً. فقوله مرة أيضاً يدل على تغيير الأشياء المتزعزعة كمصنوعة، لكي تبقى التي لا تتزعزع» (عب١٢:٢٥-٢٧). وخير لنا أن ننقاد بأفراح السماء من أن ننقاد بأحزان الأرض. ولا يجب على المؤمن أن ينتظر إلى أن تتزعزع الأمور الحاضرة، فلا يصبر على العالم إلى أن ينبذه بل ينبذ هو العالم أولاً، ينبذه في قوة شركته في الأمور السماوية. وإذا كنا بالإيمان نُمسك بالمسيح فإننا لا نجد صعوبة في طرح العالم وراءنا، بل يصعب علينا حينئذ أن نُمسك بالعالم. مثل الكناس إذا أصبح يوماً وإذ إيراده عشرة آلاف جنيه سنوياً فإنك لا تعود تراه يكنس الشوارع بعد. وهكذا نكون نحن إذا تحققنا من نصيبنا في الأمور السماوية التي لا تتزعزع، حينئذ لا نجد صعوبة في رفض قليل من الأفراح والملذات الأرضية الفانية.

والآن نتأمل في التاريخ المدوّن لنا في هذا الفصل من كتاب الوحي الإلهي.

«وكان لوط جالساً في باب سدوم» (١:١٩).

هذا التعبير يشير إلى المقام العالي الذي وصل إليه لوط، ويظهر من ذلك أنه نجح في العالم مادياً وصار له شأن أيضاً من جهة الأمور العالمية إذ كان لوط حائزاً على نصيب وافر في سدوم. ففي

مادياً وصار له شأن أيضاً من جهة الأمور العالمية إذ كان لوط حائزاً على نصيب وافر في سدوم. ففي بادئ أمره «نقل خيامه إلى سدوم» ثم أخذ يتوغل فيها إلى أن أصبح «جالساً في باب سدوم» كناية عن النفوذ والشهرة والمكانة التي صارت له فيها. وشتّان بين هذا المنظر والمنظر الذي شاهدناه في بداءة الأصحاح الثامن عشر. لأنه «بالإيمان تغرب (أي إبراهيم) في أرض الموعد كأنها غريبة ساكناً في خيام» أما لوط فليس كذلك* ولا يمكن أن يقال عنه «بالإيمان كان لوط جالساً في باب سدوم». كلا بكل أسف. ولا نقرأ عنه عند ذكر أبطال الإيمان -سحابة الشهود العظيمة الواردة في العبرانيين - أولئك الذين شُهِد لهم بالإيمان، لأن العالم كان قد اقتنصه، وأشياءه كانت طُعماً له فلم يتشدد «كأنه يرى من لا يُرى» ولا نظر إلى الأشياء التي لا تُرى، وهي أبدية، كما فعل إبراهيم بل نظر إلى الأشياء التي تُرى وهي وقتية. والفرق بين لوط وإبراهيم فرق جوهري لأنهما وإن كانا ابتدأا في المسير من مكان واحد ولكنهما لم يصلا إلى نقطة واحدة لأن غرضهما لم يكن واحد من جهة الشهادة الجهارية هنا في الأرض. لا ريب أن لوطاً قد خلص ولكن «كما بنار» لأن عمله قد احترق (١كو٣:١٥) فعلاً أما إبراهيم فقد كان له «دخول بسعة إلى ملكوت ربنا ومخلصنا يسوع المسيح الأبدي» (٢بط١:١١).

ثم إننا لا نجد لوطاً متمتعاً بالأفراح والامتيازات والنعم التي تمتع بها إبراهيم. وبدلاً من شركته مع الرب نراه يعذّب نفسه البارة، وعوضاً عن التقرب من الرب نجده على بعد منه؛ وأخيراً فبدلاً من شفاعته في الآخرين يجد في نفسه ما هو كاف ليحصر شفاعته في ذاته.

أما الرب فظل في شركته مع إبراهيم بينما أرسل ملاكين إلى لوط. وحتى الملاكان اقتنعا بكل صعوبة أن يدخلا دار لوط ويقبلا ضيافته إذ «قالا لا بل في الساحة نبيت» وفي هذا القول توبيخ ظاهر. وشتّان بين هذا التردد وبين قبول دعوة إبراهيم بمجرد تقديمها، كما يتضح من مراجعة ذلك في الفصل السابق «فقالوا هكذا تفعل كما تكلمت».

إن قبول ضيافة إنسان تدل على وجود شركة كاملة بين الطرفين «أدخل إليه وأتعشى معه وهو معي» (رؤ٣:٢٠)، «إن كنتم حكمتم أني مؤمنة... فادخلوا بيتي وامكثوا» (أع١٦:١٥) فكأنهم لو حكموا غير ذلك لما كان هناك وجه لقبول الدعوة.

ومن هنا نفهم قوة ومعنى جواب الملاكين للوط الدال على عدم رضاهما عن مركز لوط في سدوم. لأنهما فضلا المبيت في الساحة طول الليل على أن يدخلا تحت سقف شخص ضل الطريق.

* يجب أن نسأل أنفسنا هذا السؤال لكي نمتحن حالة قلوبنا عندما نريد عمل أي شيء «هل أنا بالإيمان أعمل هذا؟» لأن «كل ما ليس من الإيمان فهو خطية» «وبدون إيمان لا يمكن إرضاؤه».

على أن غرضهما من المجيء إلى سدوم إنما كان نجاة لوط، ولكن بسبب إبراهيم، لأننا نقرأ «وحدث لما أخرب الله مدن الدائرة أن الله ذكر إبراهيم وأرسل لوطاً من وسط الانقلاب حين قلب المدن التي سكن فيها لوط» (ع ٢٩). وفي هذا معنى جميل. فنجاة لوط إنما كانت على يد إبراهيم لأن الرب لا يرضى بالإنسان العالمي، والاهتمام بالعالم كان بلا شك الباعث للوط على أن يسكن وسط نجاسات تلك المدينة المدنسة. أما الإيمان فلا يضع صاحبه في مركز كهذا. والاهتمام بالروح لا يأتي بصاحبه إلى هذا المكان، «ونفسه البارة» لا تضعه هناك. فمحبة العالم ليس إلا هي التي قادته أن «يختار» أولاً لنفسه ذلك الموضع ثم «ينقل خيمته» ثانياً، ثم «يجلس في باب سدوم» أخيراً. وما أردأ هذا المركز الذي اختاره لنفسه، فقد كان بالحقيقة بئراً مشققة لا تضبط ماء وقصبة يابسة دخلت في كفه وثقبتها. ولا يوجد أمرٌ من السعي في تدبير أمر ذواتنا بأنفسنا لأنه مؤكد أننا نرتكب غلطات فاحشة، وخير لنا جداً أن نسلّم لله ترتيب طرقنا ونخضع في كل شيء ونكون أمامه مثل أطفال صغار وهو يعتني بنا ومستعد أن يدبر شؤوننا، وكأنما نضع في يد الرب قلماً لرسم خطة سير حياتنا اليومية بحسب حكمته الفائقة ومحبته الأزلية التي لا تنتهي.

لا ريب في أن لوطاً ظن أنه أحسن صنعاً إذ نقل خيامه إلى سدوم مع عائلته ولكن العاقبة أظهرت فساد رأيه وضلاله، وفي ذلك تعليم وإنذار لنا وهو صوت ينادينا أن نحترس من التسليم لحركات الميل إلى العالم «كونوا مكتفين بما عندكم» ولماذا؟ أ لأنكم ذوو غنى في العالم؟ ألأن قلوبكم قد ملكت ما تشتهي من حطام الدنيا؟ ألأن الظروف التي وُجدتم فيها لا تدع مجالاً للأماني والآمال الباطلة؟ هل هذه هي أسباب الاكتفاء والقناعة؟ حاشا وكلا. إذن ماذا؟ «لأنه قال لا أهملك ولا أتركك» (عب١٣:٥) وياله من نصيب صالح! ولو كان لوط اكتفى بما عنده لمَا اشتهى سهول سدوم الخصبة وأرضها السَقي.

وإذا تأملنا في محتويات هذا الفصل تأملاً دقيقاً فإننا نجد فيه أسباباً قوية لتدريب روح القناعة، لأنه ماذا استفاد لوط في طريقه من السعادة أو الشبع؟ ولا شيء، إذ أحاط بالبيت رجال المدينة رجال سدوم من الحدث إلى الشيخ كل الشعب إلى أقصاها ثم أخذوا يهددونه وتقدموا ليكسروا الباب أما هو فأخذ يسترضيهم ولكن بدون طائل وبوسائط تُحزن القلب وهكذا يكون شأن الإنسان الذي يختلط مع العالم بقصد التوسع إذ لابد وأن يصيبه ما أصاب لوطاً، وغير ممكن أن ننتفع من العالم ونشهد ضد شروره في آن واحد «جاء هذا الإنسان ليتغرب وهو يحكم حكماً» (ع ٩). هذا شيء لا يطاق. فإذا أردت تحكم فقف جانباً وتمسّك بقوة النعمة الأدبية. ومحاولة إصلاح طرق العالم بينما نحن نشاكل أهله، محض ادعاء، فلا التوبيخ يؤثر ولا الشهادة تفيد، وهكذا كان الحال مع لوط،

أما شهادته لدى أصهاره «فكان كمازح في أعين أصهاره». وباطلاً نقنع الناس عن دينونة الله القادمة العاجلة بينما نضع نصيبنا ومركزنا ولذتنا في الموضع المهدد بالدينونة.

أما إبراهيم فكان في مركز الحق الذي له فيه أن يتكلم عن الدينونة لأنه كان خارج دائرتها، وخيمة نزيل ممرا لم يكن يهددها خطر بينما كانت النار تلتهم سدوم. ياليت قلوبنا تتوق أكثر إلى أثمار اليقين بأننا غرباء ونزلاء على الأرض، وعوضاً عن أن نوجد في مكان نحتاج فيه إلى من يأخذنا منه بقوة ويخلصنا من العالم مثل لوط، وعيوننا شاخصة إلى الوراء مائلة إلى الرجوع، نشد أحقاءنا ونركض إلى الأمام في ميدان الحياة نحو الغرض حيث المسيح جالس.

ويظهَر أن لوطاً كان لا يزال متعلقاً بالدائرة التي اضطره الملاكان أن يخرج منها بقوة. لأننا لا نقرأ فقط أن الملاكين كانا يعجلا لوطاً ولما توانى أمسكا بيده وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة ثم لما أخرجاه قالا له اهرب لحياتك (هذا ما قدر أن يخلصه من تلك النار) واهرب إلى الجبل، بل نقرأ

«فقال لهما لوط لا ياسيد. هوذا عبدك قد وجد نعمة في عينيك، وعظمت لطفك الذي صنعت إليّ باستبقاء نفسي. وأنا لا أقدر أن أهرب إلى الجبل. لعل الشر يدركني فأموت. هوذا المدينة هذه قريبة للهرب إليها وهي صغيرة. أهرب إلى هناك. أليست هي صغيرة؟ فتحيا نفسي» (١٩: ١٨–٢٠).

ويا له من منظر! إنه كإنسان غريق يحاول أن يتمسك بأي شيء. ومع أن الملاك أمره أن يهرب إلى الجبل ولكنه أبى وقصد الالتجاء ولو إلى «المدينة الصغيرة»: القليل من أشياء العالم. لقد خاف من الموت في نفس المكان الذي كان الله يقصد أن يهديه إليه وتوقع الشر منه، وما كان عنده رجاء إلا في مساعيه الذاتية وأفكاره هو يقول «أهرب إلى هناك .. فتحيا نفسي» يا له من شيء محزن أنه لم يستطع أن يلقي رجاءه بالتمام على الله لأنه كان بكل أسف قد ابتعد عن الله حيناً طويلاً وهو يستنشق جو المدينة الفاسدة لذلك لم يقدّر قيمة جو حضرة الله النقي ولا عرف معنى الاستناد على أذرع القدير الأبدية. إن نفسه كانت متزعزعة، ولما هُدم وكره العالي الذي كان يلتجئ إليه لم يستطع من أول وهلة أن يلقي بنفسه بالإيمان في حضن الله. لم تكن بينه وبين العالم غير المنظور شركة، والآن أخذت الأشياء المنظورة تزول من تحت قدميه بسرعة فإن نزول «النار والكبريت من السماء» كان مزمعاً أن يقلب كل آماله ويهدم كل أمانيه كما يفاجئ اللص صاحب الدار فترتعد فرائصه وتخور قواه ولا يرى ماذا يصنع. وبما أن حب العالم كان مالكاً قلبه لذلك مال أن يهرب إلى تلك المدينة الصغيرة، ولكنه لم يجد راحة هناك فصعد من صوغر وسكن في الجبل وهكذا بسبب الخوف عمل ما لم يرد أن يعمله بحسب كلام الله على لسان ملاكه.

ثم انظر إلى النهاية. إن ابنتيه سقتاه خمراً وأسكرتاه وفي سكره أصبح علة وجود العمونيين

والموآبيين أعداء شعب الله الألداء. ويا له من تعليم لنا هنا : انظر أيها القارئ ما هية العالم وضرر تسليم القلب للسعي وراءه.إن تاريخ لوط يفسر لنا معنى تلك الجملة وما فيها من الإنذار «لا تحبوا العالم» وسواء كانت سدوم أو صوغر فكلاهما واحد، فلا راحة ولا هناء ولا تعزية ولا طمأنينة ولا شبع حقيقي للقلب من العالم لأن دينونة الله واقعة على العالم بأسره ولكنه يتمهل ويطيل أناته رحمة منه «وهو لا يشاء أن يهلك أناس بل أن يقبل الجميع إلى التوبة».

علينا إذن أن ننفصل عن العالم عملياً، وبينما نحن آخذون مركزنا خارج دائرته بالمرة نوجد منتظرين رجاء رجوع سيدنا. فلا يكون لأرضها السقي جاذبية لقلوبنا بل ننظر إلى شرف العالم ومجده وغناه في نور مجد المسيح القادم ومثل أبينا إبراهيم القديس نستطيع الوجود في حضرة الرب ومن هناك ننظر إلى ما حولنا فنشاهد مناظر الخراب والاضمحلال، وبعين الإيمان التي ترى المستقبل كأنه حاضر نبصر دخان احتراقها لأن هذا ما لابد أن يكون «تحترق الأرض والمصنوعات التي فيها» (٢بط٣: ١٠) كل الأشياء التي يركض وراءها أبناء هذا الدهر ـ كل المشتهيات التي يسعون إليها ـ كل الأمور التي يتخاصمون عليها ـ الكل ـ كل شيء سيحترق بالنار، ومن يدري متى يتم ذلك ربما بعد وقت قصير جداً إذ أين سدوم؟ أين عمورة؟ أين المدن التي حولهما؟ أين بهاؤها وتقدمها وغناها؟ أين هي الآن؟ تلاشت كلها إذ اكتسحها قضاء الله وأحرقها بالنار والكبريت. وهكذا قضاء الله الآن يتهدد هذا العالم الأثيم وهوذا اليوم يقرب، ولكن أناة الله تنتظر، وها صوت النعمة ينادي به في كل أذن. وطوبى لمن يسمع ويؤمن. ويا لغبطة الذين يهربون إلى جبل خلاص الله المنيع ويلتجئون إلى صليب ابن الله فينالون المغفرة والسلام!

الرب يمنح قارئ هذه السطور نعمة لكي يدرك معنى الضمير المُطهَّر من الخطية فتتطهر عواطف قلبه من دنس العالم وهو منتظر الابن من السماء.

الأصحاح العشرون

أمامنا في هذا الفصل مسألتان تختلف إحداهما عن الأخرى. الأولى تصف لنا الانحطاط الأدبي الذي يعرِّض أولاد الله أنفسهم إليه في نظر أهل العالم، والثانية الرفعة الأدبية التي تلازمهم دائماً في نظر الله. فإبراهيم أظهر هنا خوفه من الظروف ونحن نستطيع أن ندرك بقلوبنا سهولة الوقوع في هذا الضعف. لما تغرّب في جرار خاف من أهل ذلك المكان، وإذ ظن أن الله لم يكن هناك نسى وعده أن يكون معه دائماً. ويظهر أنه كان مشغولاً بأهل جرار أكثر من مشغوليته بمن هو أقوى وأكبر منهم. وإذ نسى قدرة الله على حماية زوجته التجأ إلى الحيلة التي قد عمد إليها حين انحدر إلى مصر منذ سنين، وفي هذا انذار لنا. لأن أبا المؤمنين نفسه ضل لما تحول نظره عن الله، وإذ فقد مركز توازنه في الله لحظة سقط. وما أصدق هذا القول علينا فنحن أقوياء ما دمنا متمسكين بالله شاعرين بضعفنا. ولا شيء يؤذينا طالما نحن في الطريق التي عينها لنا. ولو كان إبراهيم اعتمد على الله بالبساطة لما تداخل سكان جرار في أمره ولكان له الامتياز أن يثبت أمانة الله من نحوه في وسط أشد الضيقات فيحفظ بذلك مقامه كرجل الإيمان.

إن تأملنا في أحوال أولاد الله الذين يجلبون الإهانة على اسمه القدوس كثيراً ما يسبب حزناً لقلوبنا، لأنهم متى خسروا لذة التمتع بكفايته في كل شؤونهم حينئذ تنحط كرامتهم في نظر أهل العالم، أما إذا سرنا بقوة هذا الحق ونحن واثقون أن كل ينابيعنا هي في الله فحينئذ نرتفع فوق العالم بجميع صوره وأشكاله. ولا يوجد شيء يرفع شأن الإنسان أدبياً نظير الإيمان لأنه يقوده إلى ما فوق أفكار العالم. وكيف يستطيع أهل العالم بل المسيحيون العالميون أيضاً أن يدركوا حياة الإيمان ؟ إن ذلك بعيد عليهم لأن الينابيع التي يستقي منها الإيمان لا يمكن لهم الوصول إليها لأنهم لا يدركونها. فحياتهم سطحية وهي تتعلق بالأمور الحاضرة، ولا يستطيعون أن يروا الأساس الإلهي الذي يبنون عليه رجاءهم. أما الاعتماد على مواعيد الله غير المنظور والبناء على أساس

الإيمان فلا يدركون له معنى. ولكن رجل الإيمان تجده ساكناً مطمئناً في وسط الظروف التي لا ترى فيها الطبيعة شيئاً، ومن ثم يلوح للطبيعة أن الإيمان في نظرها مجرد وهم وتسليم أعمى، وأمور الإيمان وأعماله لا يصادق عليها أو يزكيها سوى من يعرفون الله، لأنهم هم وحدهم دون سواهـ يدركون حقيقة الأساس المتين الذي يبنون عليه تلك الأعمال.

أما في هذا الفصل فإننا نشاهد رجل الله يُعرّض نفسه إلى سخرية وتوبيخ أهل العالم بسبب تصرفاته التي تتسم بالشك وعدم الإيمان. وهكذا الحال دائماً إذ لا يرفع شأن الإنسان ويكرمه في سيره وسيرته سوى الإيمان. نعم إننا في بعض الأحيان نرى أناساً بحسب الطبيعة مستقيمي السيرة ومحمودي السير ولكن هذه الأخلاق لا يركن إليها لأن الأساس الذي تستند عليه واهن والبناء مهدد بالسقوط في كل لحظة، أما الإيمان فهو وحده الذي يُكسِب الإنسان كرامة صحيحة لأنـ يقرن النفس بقوة الله الحي، وهذا هو أساس الآداب الصحيحة.والأمر الغريب أن الإنسان الذي يختاره الله بنعمته لكي يكون مرموقاً بعين رعايته متى حاد عن طريق الإيمان ينحط أكثر مر بقية الناس أدبياً. وهذا هو سبب ما نقرأه في قصة إبراهيم كما وردت في هذا الفصل.

إلا أننا نقرأ عن مسألة أخرى ذات فائدة وأهمية لنا فإبراهيم كان في نفسه شيء من النقص في الاعتماد الكلي على الله لأنه لو كانت ثقته في الله كاملة من جهة سارة لَمَا التجأ إلى الوسائل الأخرى التي كشفت ضعفه. فالله هو الذي كان يسيج حول سارة ويدفع عنها كل ضرر لأنه من ذ الذي يمس مختاري الله بأذى ماداموا في حراسته وحماه؟ أما هو فمن رحمته أعطى لإبراهيـ فرصة لكي يحكم على أصل الشر فيعترف به ويدينه ثم يتخلص منه. وهذا هو الطريق الإلهي للعمل دائماً. ولا يمكن أن توجد بركة حقيقية أو قوة صحيحة إلا متى أظهر كل خمير في النور وانداس بالأقدام. إن الله يتأنى ويصبر ويحتمل ولكنه لا يقود النفس إلى ملء البركة والقوة إ إذا أظهر الشر ودانه. هذه الحقائق واضحة في قصة أبيمالك مع إبراهيم. والآن نتأمل في كرامـ إبراهيم الأدبية في نظر الله وهي المسألة الثانية.

إننا إذا راجعنا تاريخ شعب الله سواء كانوا كجماعة أو كأفراد نعجب جداً من الفرق الهائل بيـ حقيقة ما هم في نظر الله وما هم في نظر العالم. لأن الله يرى شعبه في المسيح وينظر إليهم داخا المسيح ولذلك يراهم بلا دنس «ولا غضن أو شيء من مثل ذلك» (أف٥:٢٧) فهم أمام الله مثل المسيـ ومن جهة مقامهم في المسيح هم مكملون إلى الأبد وهم «ليسوا في الجسد بل في الروح» (رو٨:٩

أما في ذواتهم فهم خلائق ضعيفة مسكينة ساقطة عاجزة، وبما أن العالم لا يرى إلا تلك الصور ولا يعلم شيئاً عن مقامهم في المسيح فمن هنا الفرق بين ما هم في نظر الله وما هم في نظر العالـ

على أن الله يسر بأن يصف جمال شعبه وكماله وبهاءه. والسبب في ذلك لأن هذه الصفات هي من مجرد إنعامه. فالجمال الذي لهم قد ألبسهم إياه الله. لذلك يليق به أن يصف ذلك الجمال وهو وحده أهل لذلك. وهو يفعل ذلك بأسلوب بديع لا سيما حينما يحاول العدو أن يتهجم على شعبه ليؤذيهم أو يلعنهم أو يتهمهم. فعندما قصد بالاق أن يلعن شعب إسرائيل مثلاً قال الرب إنه «لم يبصر إثماً في يعقوب ولا رأى تعباً في إسرائيل» «ما أحسن خيامك يا يعقوب مساكنك يا إسرائيل» (عد٢٤:٥) وعندما يقف الشيطان لمقاومة يهوشع يقول «لينتهرك الرب يا شيطان .. أفليس هذا شعلة منتشلة من النار» (زك ٣:٢) وهكذا نجد الرب يضع نفسه بين شعبه وبين كل لسان يتكلم عليه بالسوء. فهو لا يدفع التهمة بوصف حال شعبه كما هم في ذواتهم ولا كما هم في نظر أهل العالم بل كما جعلهم هو، فيصف مركزهم الذي وضعهم هو فيه.

وهذا ما نشاهده في قصة إبراهيم الذي وإن كان قد أهان نفسه في نظر أبيمالك ملك جرار حتى أن أبيمالك وبخه إلا أن الله لما تداخل في القضية نراه يقول لأبيمالك «ها أنت ميت» وأما عن إبراهيم فيقول «إنه نبي فيصلي لأجلك» نعم ومع أن أبيمالك «بسلامة قلب ونقاوة يدين» فعل ذلك ولكنه كان «ميتاً»، وفضلاً عن ذلك فإن حياته وحياة أهل بيته كانت موقوفة على صلاة ذلك الشخص الغريب المخطئ. وهذه هي طرق الله. في السر له مع ابنه مخاصمة بسبب شره واعوجاج طريقه ولكن بمجرد ما يقف العدو في وجهه ويجاهر بتهمته أو يرفع الدعوى ضده فالرب يدافع عن عبده «من يمسكم يمس حدقة عينه» (زك٢:٨)، «الله هو الذي يبرر؛ من هو الذي يدين؟» (رو٨:٣٣، ٣٤) إن سهام العدو لا يمكن أن تنفذ إلى هذا الترس الذي يحمي به الله أضعف مؤمن مُشترى بذلك الدم الثمين، فهو يُظلل شعبه بخوافيه ويثبت أقدامهم على صخر الدهور ويرفع وجوههم تجاه مضايقيهم ويملأ قلوبهم ببهجة الخلاص والفرح الأبدي تبارك اسمه إلى الأبد!

الأصحاح الحادي والعشرون

«وافتقد الرب سارة كما قال، وفعل الرب لسارة كما تكلم» (٢١: ١).

هنا إنجاز الوعد وثمر الانتظار ونتيجة الصبر. فما خاب قط من انتظر الله. والنفس التي تتمسك بالإيمان بوعد الله قد أمسكت في حقيقة الأمر بالرجاء الذي لا يخيب أبداً. هكذا كان الحال مع إبراهيم، وهكذا كان الأمر مع جميع المؤمنين في كل الأجيال. وهكذا يكون شأن الله مع كل الذين بنعمته قد اعتمدوا عليه. ويا لغبطتنا إذا أخذنا الله نصيبنا وراحتنا في وسط قلاقل المناظر التي نمر فيها فتصبح مرساتنا داخل الحجاب، ولنا وعده وقسمه وهما أمران عديما التغير، والاستناد عليهما يعطي راحة وتعزية قوية لنفوسنا.

ولا شك أن إبراهيم لما وقف أمام وعد الله الذي أصبح حقيقة ثابتة تعلّم في نفسه بطلان مساعيه التي كان قد بذلها لإتمام ذلك الوعد. فإسماعيل لم ينفعه بشيء فيما يخص وعد الله وعلاقته به إنما زادت صعوبة إنجاز الوعد بحسب الطبيعة في نظر إبراهيم، أما من جهة مقاصد الله أو إيمان إبراهيم فلم يكن من إسماعيل أقل نفع بل بالعكس كل ضرر. وهكذا نجد الطبيعة دائماً لا تستطيع أن تعمل شيئاً لأجل الله. بل إن الرب لابد وأن «يفتقد» «ويفعل» وعلى الإيمان أن يصبر وعلى الطبيعة أن تسكت بل يجب نبذها كشيء ميت لا قيمة له، حينئذ يشرق الله بلمعان مجده فيستضيء الإيمان به.

«فحبلت سارة وولدت لإبراهيم ابناً في شيخوخته، في الوقت الذي تكلم الله عنه» (٢١: ٢).

يوجد عند الله ما يعبر عنه «بالوقت المعين» أو «الحين» وعلى الإيمان أن ينتظر ذلك الوقت ويصبر إلى ذلك الحين. فقد يطول الوقت، ومتى تعوّق الرجاء سئمت النفس؛ ولكن الذهن الروحي يثق أن كل شيء يؤول إلى مجد الله أخيراً. «لأن الرؤيا بعد إلى الميعاد، وفي النهاية تتكلم ولا

تكذب. إن توانت فانتظرها لأنها ستأتي إتياناً ولا تتأخر .. والبار بإيمانه يحيا» (حب٢:٣، ٤) هذا هو الإيمان العجيب الذي يعطي للحاضر قوة المستقبل الذي في يد الله ويتغذى بمواعيد الله كأنها حاضرة. هذه هي القوة التي بها تبقى النفس متوقعة الله ولو خابت كل الآمال وقامت كل الظروف ضدها. وفي الوقت المعين يمتلئ الفم ضحكاً.

«وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له اسحاق ابنه» (٢١:٥).

فلم يبقَ للطبيعة شيء تفتخر به. وهكذا نجد في عجز الإنسان فرصة لله للعمل.

«وقالت سارة قد صنع إلى الله ضحكاً» (٢١:٦).

لأنه متى تداخل الله فهناك النصرة. على أن ولادة اسحاق وإن كانت قد ملأت فم سارة ضحكاً، ولكنها أيضاً أحدثت شيئاً جديداً في بيت إبراهيم. لأن ابن الحرة صار سبباً لإظهار حقيقة صفات ابن الجارية. وفي الواقع أن اسحاق في بيت إبراهيم كان أشبه بزرع الولادة الجديدة في نفس الخاطئ من حيث المبدأ: فإسماعيل لم يتغير ولكن اسحاق ولد. أما ابن الجارية فبقى ابن الجارية. قد يصبح أمة قوية ويسكن في البرية ويصير رامي قوس، وأباً لاثنتي عشر قبيلة ولكنه لا يزال ابن الجارية؛ أما اسحاق وإن كان يضطهد ويحتقر ولكنه ابن الحرة. فمركزه ومقامه ـ صفاته ومستقبله كانت من الرب «المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح» (يو٣:٦).

إن الولادة من فوق ليست عبارة عن تغيير في الطبيعة العتيقة بل أخذ طبيعة جديدة، أي زرع طبيعة وحياة الإنسان الثاني بواسطة عمل الروح القدس المؤسَّس على عمل فداء المسيح التام طبقاً لمشورات الله ومقاصده الأزلية المحتومة. وعندما يؤمن الخاطئ بقلبه ويعترف بفمه بالرب يسوع يمتلك تلك الحياة الجديدة وتلك الحياة هي المسيح، ويصبح ابناً لله أي ابن الحرة لأنه ولد من الله (انظر رو١٠:٩؛ كو٣:٤؛ ١يو٣:١، ٢؛ غل٣:٢٦؛ ٤:٣١).

وفضلاً عن ذلك فإن نوال هذه الطبيعة الجديدة لا يغير من صفات الطبيعة العتيقة شيئاً بل تبقى كما هي في جوهرها واعتبارها وفي حقيقة الأمر لا تظهر رداءتها وشرها بالتمام إلا بالمقابلة مع الطبيعة الجديدة وذلك بعد دخول ذلك العنصر الجديد «الجسد يشتهي ضد الروح والروح ضد الجسد وهذان يقاوم أحدهما الآخر حتى تفعلون ما لا تريدون» (غل٥:١٧) ومن هذا نرى أنهما اثنان يختلفان في أوصافهما اختلافاً جوهرياً واضحاً.

إني أعتقد أن التعليم المختص بوجود طبيعتين في المؤمن غير مفهوم تماماً كما يجب. مع أن الجهل بهذه الحقيقة يربك الذهن لا سيما من جهة امتيازاتنا كأولاد الله ومقامنا الصحيح، فالبعض

يتصور أن الولادة الجديدة عبارة عن تغيير يحدث في الطبيعة العتيقة، وأن هذا التغيير تدريجي، بحيث أن الإنسان يتحسن شيئاً فشيئاً إلى أن يتجدد الإنسان بجملته. أما كون هذا الرأي فاسداً فيمكن إثباته بآيات عديدة من العهد الجديد. مثال ذلك قول الكتاب «أن اهتمام الجسد هو عداوة لله» وكيف يمكن إصلاح ذلك ما دام مُعادياً لله؟ إلا أن الرسول يتقدم إلى القول أيضاً «إذ ليس هو خاضعاً لناموس الله لأنه أيضاً لا يستطيع» (رو٨:٧) ومادام ليس في استطاعته الخضوع لناموس الله فكيف يرجى إصلاحه؟ كيف يتأتى تغييره؟ وأيضاً «المولود من الجسد جسد هو» (يو٣:٦) أي مهما صنعت بالجسد يبقى جسداً. أو كما يقول سليمان الحكيم «إن دققت الأحمق في هاون بين السميذ بمدق، لا تبرح عنه حماقته» (أم٢٧:٢٢) ولا فائدة من تحويل الحماقة إلى رزانة. فإما أن تطلب حكمة سماوية نازلة من فوق لتدخل إلى قلبك، وإلا فالجهالة تبقى جهالة. مذكور أيضاً «خلعتم الإنسان العتيق» (كو٣:٩) فهو لا يقول أصلحتم أو حاولتم إصلاح الإنسان العتيق بل خلعتموه. وهذا شيء آخر، وشتّان بين إصلاح أو محاولة رقع ثوب عتيق وبين طرحه بالمرة ولبس ثوب جديد. وهذا هو المعنى المتضمن في العدد الأخير، «خلعتم الإنسان العتيق .. ولبستم الجديد» ولا يوجد كلام أوضح أو أصرح من هذا في التعبير.

والشواهد التي يمكن سردها لإثبات عدم صحة نظرية إصلاح الطبيعة العتيقة بالتدريج عديدة جداً. وهي تبرهن أيضاً على أن تلك الطبيعة العتيقة ميتة بالخطايا، وغير ممكن تجديدها أو إصلاحها. وفضلاً عن ذلك فما بقى علينا سوي أن نقمعها بقوة الحياة الجديدة التي صارت لنا باتحادنا مع رأسنا المقام الممجد في السماوات.

هكذا ولادة اسحاق فإنها لم تُصلِح طبيعة إسماعيل وإنما أظهرت مقاومته لابن الموعد. ربما كان إسماعيل قبل اسحاق هادئاً وعاقلاً ولكن لما ظهر اسحاق انكشفت حقيقة إسماعيل لأنه أخذ يمزح ويضطهد ابن القيامة. وماذا كان يجب عمله حينئذ؟ هل يمكن إصلاح إسماعيل؟ حاشا وكلا بل..

«اطرد هذه الجارية وابنها. لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني اسحاق» (٢١:١٠).

هذا هو العلاج الوحيد لأن الأعوج لا يمكن أن يقوَّم. إذاً يجب التخلص من الأعوج بالمرة والاهتمام بالمستقيم الذي يعطيه الله. أما محاولة تقويم المعوج فإنه تعب باطل وكل المساعي التي يبذلها الإنسان في سبيل إصلاح الطبيعة الساقطة ضائعة عبثاً ولا فائدة منها فيما يخص الله. يجوز أن الناس يهذبون أخلاقهم ويصلحون طرقهم بما يحسن في عيون إخوانهم. أما الله فقد أعطى أولاده ما هو أفضل، وهو يطلب منهم أن يقووا هذا الإنسان الجديد بالروح القدس الساكن فيهم لأن أثماره لا تنشيء في المرء افتخاراً، فيعود كل المدح والمجد لاسم الله وحده.

والخطأ الذي وقعت فيه كنائس غلاطية إنما كان المشغولية بالطبيعة والمنظر الخارجي، «إن لم تختتنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا» (أع ١٥:٢) وكأنهم أوقفوا الخلاص على شيء في الإنسان أو شيء يمكن للإنسان أن يعمله أو يحفظه وهذا قلب لحقائق الإنجيل والفداء المجيد التام. ومن المعلوم عند كل المؤمنين أن أساس الفداء هو المسيح وعمله. فإذا علقنا الخلاص ولو بمقدار يسير جداً على شيء في الإنسان أو منه أو به نكون قد حولناه عن حقيقته. أو بعبارة أخرى يجب طرد إسماعيل بالكلية لكي تكون الآمال في شخص اسحاق وحده الذي أعطاه الله لإبراهيم. وغني عن البيان أن هذا من شأنه أن لا يدع للإنسان مجالاً للافتخار، لأنه لو تعلقت بركات الله سواء كانت حاضرة أو مستقبلة حتى على تغيير إلهي في الطبيعة لصارت للجسد فرصة للافتخار. إذ حتى لو أُصلحت الطبيعة لكان هناك محل للذات فلا يكون لله كل المجد. ولكن عندما يؤتى بي إلى خليقة جديدة فإني أجد الكل من الله. فهو الذي ابتدأ بالفكرة وهو الذي وضع الأساس وهو الذي يبني أيضاً. فالله هو العامل وما أنا إلا ساجد، هو المعطي وأنا الآخذ، هذا هو امتياز المسيحية عن بقية الديانات والنظامات البشرية التقليدية التي تحت الشمس مهما كانت صورتها. لأن الديانة الإنسانية تعطي للبشر محلاً، وكأنها تريد بقاء ابن الجارية مع ابن الحرة في البيت. وبهذه الصورة تجعل للخليقة مكاناً للافتخار. أما المسيحية فإنها بعكس ذلك تحرم على الخلائق أمر التداخل في مسألة الخلاص إذ تطرد الجارية وابنها ليكون كل المجد لله المستحق ذلك وحده.

والآن لنسأل عن حقيقة أمر الجارية وابنها وإلى أي شيء يشيران. وإذا راجعنا الأصحاح الرابع من رسالة غلاطية نجد أن هناك تعليماً وافياً من جهتهما. وبالاختصار نتعلم أن الجارية تشير إلى عهد الناموس وابنها يشير إلى جميع الذين هم من أعمال الناموس أو على مبدئه. وهذا كله واضح جداً وبسيط. فالجارية إنما تلد عبودية وغير ممكن أن تلد حرية. لأنه يسود على الإنسان مادام حياً (رو ٧:١) وما دمت تحت سيادة أي إنسان فأنا لست حراً. والناموس يسود عليّ مادمت حياً. وغير ممكن لي أن أتخلص منه سوي بالموت. وهذا هو تعليم رومية ٧ «إذاً يا إخوتي أنتم أيضاً قد متم للناموس بجسد المسيح لكي تصيروا لآخر للذي قد أُقيم من الأموات لنثمر لله» وهذه هي الحرية لأنه «إن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً» (يو٨:٣٦) «إذن أيها الإخوة لسنا أولاد الجارية بل أولاد الحرة» (غل٤:٣١).

والآن فإننا بقوة هذه الحرية التي حررنا بها الابن نستطيع أن نخضع للوصية القائلة «اطرد الجارية وابنها» أما إذا لم أتأكد حريتي فإنني أحاول الحصول عليها بطرق ووسائط متنوعة وغريبة ولو أن الجارية باقية في البيت. أي أني أسعى وراء الحصول على الحياة بحفظي الناموس وفي ذلك

إثبات بري الذاتي. ولا ريب أن ذلك يجعل التخلص من ابن الجارية أمراً صعباً، لأننا من طبيعة نميل بقلوبنا إلى أعمال الناموس..

«فقبح الكلام جداً في عيني إبراهيم لسبب ابنه» (١١:٢١).

على إنه مهما صعب الأمر علينا فإن فكر الله أن نثبت في الحرية «فاثبتوا إذاً في الحرية التي قد حررنا المسيح بها ولا ترتبكوا أيضاً بنير العبودية» (غل٥:١) يا ليتنا أيها القارئ الحبيب نتمتع بغبطة ما أعده الله لنا في المسيح فنتخلص من كل الأفكار الجسدية ومن كل أثمار الجسد وأعماله ومشوراته، لأن الملء الذي لنا في المسيح يكفينا لرفض كل ما عداه واعتبار كل ما سواه باطلاً ونفاية.

الأصحاح الثاني والعشرون

أصبح إبراهيم الآن في مركز أدبي يؤهله للدخول في بوتقة الامتحان الشديد ليختبر الله ما في قلبه. لأن الشر الذي كان في قلبه كامناً خرج منه كما قرأنا في الأصحاح العشرين. والجارية وابنها طُردا من البيت (ص ٢١) والآن قد أصبحت نفس إبراهيم في أعز مركز وأشرف موضع يصل إليه الإنسان، وهذا هو مركز الامتحان من يد الله نفسه. توجد أنواع كثيرة من الإمتحانات. منها ما هو من يد الشيطان أو تجارب نتيجة ضغط الظروف المحيطة ولكن أسمى أنواع الامتحان ما يصدر من يد الله رأساً، عندما يضع ابنه العزيز في أتون النار لامتحان حقيقة إيمانه. ولابد أن يفعل الله هكذا بأولاده لأنه يطلب تزكية الإيمان ليرى إيماناً صحيحاً. فلا يكفي أن نقول «يارب يارب» ولا «أمضي ياسيد» بل ينبغي أن يفحص الله أعماق القلب لكي يتحقق من عدم وجود أثر للرياء أو الادعاء الباطل. «يا ابني أعطني قلبك» فهو لا يقول اعطني رأسك ولا اعطني عقلك ولا مواهبك ولا مالك ولا قواك بل «أعطني قلبك» ولكي يمتحن الله إخلاصنا وصدق إعترافنا وحقيقة خضوعنا لأوامره يضع يده على أعز شيء لقلوبنا، ولذلك قال لإبراهيم

«خذ ابنك وحيدك، الذي تحبه، اسحاق، واذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك» (٢:٢٢).

ولا شك أن الله في هذا كان واضعاً يده على أقرب شيء لقلب إبراهيم. فكان مزمعاً أن يمحصه في أشد بوتقة. لأن الله يُسرّ «بالحق في الباطن» (مز٥١:٦) إذ قد يوجد حق كثير على الشفتين وفي الذهن إلا أن الله يطلبه في القلب. إن الأمور العادية لا تصلح برهاناً يشبعه ويكشف ما له من محبة في قلوبنا، وهو نفسه لم يسترح بأن يعطينا برهاناً عادياً على محبته لنا، لكنه بذل ابنه عنا، ويجب أن نقدم نحن أيضاً برهاناً واضحاً على محبتنا لمن أحبنا ونحن أموات بالذنوب والخطايا.

على أنه جيد لنا أن نتأمل في الكرامة التي يهبها لنا الله عندما يمتحن قلوبنا هكذا. فنحن لا نقرأ أن الله إمتحن لوطاً لأنه كان مجرباً من سدوم ولم يبلغ إلى القياس الكافي الذي يسوغ ليد الرب أن تمتد عليه لامتحانه. وكان واضحاً بما لا يقبل الشك أن قلب لوط كان بينه وبين الله الشيء الكثير فلم يكن هناك داع لوضعه في بوتقة الامتحان لإظهار حقيقة أمره. ولكن سدوم لم تكن تمثل إغراءاً أو تجربة لإبراهيم. وذلك كان ظاهراً من نفس حديثه مع ملك سدوم الذي نقرأه في أصحاح ١٤، وكان الله يعلم جيداً أن إبراهيم يحبه أكثر من سدوم. أما الآن فقد قصد أن يرى إذا كان يحبه فوق كل عزيز لديه لذلك وضع يده على أقرب شيء لدى قلبه. «خذ ابنك وحيدك اسحاق» نعم اسحاق ابن الموعد، اسحاق موضوع الرجاء، اسحاق موضوع الحب الأبوي، اسحاق الذي فيه كل أمم وقبائل الأرض موعودة بالبركة. اسحاق هذا ينبغي أن يُقدَّم محرقة. حقاً إن في هذا امتحاناً شديداً لإيمان إبراهيم لكي تكون تزكية إيمانه وهي أثمن من الذهب الفاني مع أنه يمتحن بالنار توجد للمدح والكرامة والمجد. ولولا أن نفس إبراهيم كانت مطمئنة وواثقة بالبساطة في الرب لما استطاع أن يطيع بلا تردد ولا إمهال أمراً صعباً كهذا. ولكن الله نفسه كان سند قلبه الثابت ورجاءه الحي لذلك هان عليه أن يضحي بأعز شيء لديه.

والنفس التي وجدت كل ينابيعها في الله تستطيع بلا تردد أن تنبذ كل المصادر البشرية. وكلما اكتشفنا أكثر ما هو مذخر لنا من القوة في إلهنا كلما سهل علينا الاستغناء عن البشر والالتجاء إلى الله وحده. والذي يحاول هجر الأمور المنظورة بأية وسيلة أخرى سوى قوة الإيمان التي تمسك بالأمور غير المنظورة ضاعت مساعيه أدراج الرياح، لأن ذلك مستحيل بل محاولة فاشلة، فسوف أظل متمسكاً بإسحق حتى أجد في الله كل شيء إذا قدرنا أن نقول بالإيمان «الله لنا ملجأ وقوة. عوناً في الضيقات وجد شديداً» فحينئذ يمكن لنا أن نردف ذلك بالقول «لذلك لا نخشى ولو تزحزحت الأرض ولو انقلبت الجبال إلى قلب البحار» (مز ٤٦: ١، ٢).

«فبكّر إبراهيم صباحاً» (٢٢: ٣).

وهي طاعة بلا تردد ولا إمهال، «أسرعت ولم أتوان لحفظ وصاياك» لأن الإيمان لا ينتظر حتى يلاحظ الظروف أو يتأمل في النتائج بل ينتظر الله وحده. لذلك يقول «لما سُر الله الذي أفرزني من بطن أمي ودعاني بنعمته أن يُعلن ابنه فيَّ لأبشر به بين الأمم للوقت لم أستشر لحماً ودماً» (غل ١: ١٥، ١٦) وعندما نقف لنستشير اللحم والدم تتعطل خدمتنا وشهادتنا لأن اللحم والدم لا يعرف الطاعة فيجب أن نُبكّر، وبالنعمة ننفذ أمر الله لنا فتكون لنا من وراء ذلك بركة ولإلهنا المجد. ومادامت لنا كلمة الله نفسها أساساً للعمل فلنا قوة الله لإجراء ذلك العمل. أما إذا عملنا

بمقتضى قوتنا وعزيمتنا فمتى ضعفت قوتنا أو خارت عزيمتنا أنقطع العمل.

ونحن نحتاج عند الشروع في أي عمل إلى أمرين ضروريين جداً وهما الروح القدس قوة العمل وكلمة الله للإرشاد. ولأجل فهم الغرض نضرب مثلاً في السكك الحديدية، يلزم لتسيير القطارات توفر شرطين وهما قوة البخار للمسير وقضبان السكة للإرشاد. فالبخار يعطي القوة أما القضيب فيعين الاتجاه. وظاهر أن البخار وحده لا يكفي لتسيير القطار ما لم يوجد القضيب الذي يحدد الإرشاد وكذلك القضيب وحده لا يكفي لتسيير القطارات ما لم يوجد البخار الذي يحركها. وإبراهيم توفر فيه الشرطان فكانت له القوة من الله وكان له الأمر الصريح بكلمته. لذلك وجبت الطاعة وهذا ما يهمنا التثبت منه جيداً. لأن الطاعة أحياناً تأخذ صورة غير صحيحة وما هي في الحقيقة إلا خداع وإرادة ذاتية غير خاضعة لعمل كلمة الله وإرشادها. وطاعة مثل هذه لا قيمة لها، والروح التي تحركها لابد أن تتطاير كالبخار. والقانون الذي يجب أن نسير بموجبه هو أنه متى كانت الطاعة غير مبنية على أساس كلمة الله فهي موضع الشبهة. وإذا لم تبلغ قياس كلمة الله فهي طاعة ناقصة، أما إذا خالفت قياس الكلمة فهي عين الضلال. نعم قد توجد ظروف فيها يعلن الله طرقه بالروح القدس بكيفية فوق العادة لكي يثبت سلطانه المطلق فيتخطى الحدود. ولكن الله في مثل هذه الظروف يقوي الشهادة ويعطي إقناعاً كاملاً بطريقة واضحة لكل ذهن روحي. وفضلاً عن ذلك فإن تلك الإرشادات لا تخالف بأي وجه من الوجوه المبادئ التي تنقاد بها الطاعة الصحيحة وهي التي رتبها الله نفسه، إن تقديم الابن محرقة ربما يلوح كأنه طاعة فوق الحد ولكن يجب أن نحفظ في بالنا أن قيمة تلك الطاعة واعتبارها في نظر الله كان أساسه الأمر الإلهي.

ثم إن لنا أمراً آخر مقترناً بالطاعة الصحيحة وهو روح السجود

«أما أنا والغلام فنذهب إلى هناك ونسجد» (٢٢:٥).

بمعنى أن الخادم الحقيقي لله لا يضع عينه على الخدمة مهما كانت مهمة بل على السيد، وهذا ما ينشيء فيه روح السجود. لأني إذا كنت أحب سيدي حسب الجسد فلا أبالي بنوع الخدمة، وسيان عندي إذا مسحت حذاءه أو رافقته في تشريفاته، أما إذا كانت مشغوليتي في ذاتي فإني أفضل مرافقته في تشريفاته على مسح حذائه. وهكذا الحال في خدمة السيد السماوي فإذا كان فكري مشغولاً به وحده فلا يهمني أن كنت أخدم في المدن الكبرى في الكنائس المنتظمة أو في القرى الصغرى في الأكواخ الحقيرة. وهذا هو شأن الملائكة في خدمتهم، فالملاك لا يبالي بنوع الخدمة إن كانت إبادة جيش من الأعداء أو حماية أحد العتيدين أن يرثوا الخلاص، لأن السيد هو غرض الخدمة أو كما قال بعضهم «إذا أرسل الله ملاكين في مأموريتين، أحداهما تدبير شئون مملكة والثانية

كنس الشوارع فلا يتنافس الملاكان في خدمتيهما». وهذا القول صحيح ويجب أن يصدق علينا نحن أيضاً، وذلك يتم بأن تمتزج الخدمة بالعبادة فنعمل بأيدينا بقوة أرواحنا أو بعبارة أخرى نسير في خدماتنا بالروح الذي نقرأه في القول عن إبراهيم «أما أنا والغلام فنذهب إلى هناك ونسجد» إننا إذا اتبعنا هذا القانون نحفظ أنفسنا من الخدمة الجسدية التي نحن معرضون لأدائها، أي تأدية الخدمة لمجرد عمل خدمة لأننا مشغولون بالخدمة أكثر من مشغوليتنا بسيدنا، ولكن يجب أن يصدر كل شيء من الإيمان البسيط بالله والطاعة لكلمته.

«بالإيمان قدَّم إبراهيم اسحاق وهو مجرَّب. قدَّم الذي قَبِل المواعيد وحيده» (عب١١:١٧)، ونحن إنما نبدأ أعمالنا ونسير فيها ونكملها متى سرنا بالإيمان ليس إلا. فإبراهيم لم يشرع في تقديم ابنه فقط بل سار في الطريق إلى أن وصل إلى المكان الذي اختاره الله

«فأخذ إبراهيم حطب المحرقة ووضعه على اسحاق ابنه وأخذ بيده النار والسكين. فذهبا كلاهما معاً» (٦:٢٢).

ثم نقرأ بعد ذلك أنه

«بنى هناك إبراهيم المذبح ورتب الحطب وربط اسحاق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه» (٢٢: ٩، ١٠).

وكان مزمعاً أن يذبحه فعلاً. إن هذا «عمل إيمان وتعب محبة» بالمعنى الكامل. فلم يكن إبراهيم مازحاً ولا كان قوالاً غير فعّال - يقترب بشفتيه وقلبه بعيد - يقول «أمضي يا سيد ولا يذهب» بل كان جاداً في القول والعمل، وهذا ما يرتاح إليه الإيمان ويرضاه ويسر به الله. إن التظاهر بالخضوع في غير وقته سهل جداً بل يسهل علينا أن نقول «وإن شك فيك الجميع فأنا لا أشك أبداً .. ولو اضطررتُ أن أموت معك لا أُنكرك» (مت٢٦:٣٣-٣٥) ولكن المهم هو الثبات. لأنه لما حان وقت امتحان بطرس ظهر فشله. والمؤمن لا يتكلم عما يريد أن يفعله بل يفعل ما يستطيع بقوة الرب أن يفعله. ولا يوجد شيء بلا قيمة مثل روح الادعاء الفارغ، لأن الأساس الذي يبني عليه واهٍ وواهن أما الإيمان فيظهر «بالامتحان» وما عدا ذلك فيبقى غير مسموع ولا منظور.

وغني عن القول إن الله إنما يتمجد بأعمال الإيمان المقدسة لأنه غرضها ومصدرها أيضاً. وفي تاريخ حياة إبراهيم لا توجد حادثة تمجّد فيها الله كحادثة جبل المريا. هناك كانت لإبراهيم فرصة أن يشهد لذلك الحق الخطير وهو أنه وجد كل ينابيعه في الله فلم يكن هذا إيمانه بالله قبل أن يولد له اسحاق بل بعد ولادته، وهي مسألة جديرة بالالتفات لأن الاستناد على بركات الله شيء والاستناد على الله نفسه شيء آخر. وضع الثقة في الله بينما ترى عيني ينبوع البركات جارياً شيء، والثقة

فيه حين ينقطع جريان ذلك الينبوع شيء آخر. وهنا ظهر فضل إيمان إبراهيم فقد أثبت ليس أنه يستطيع أن يؤمن بأن الله قادر أن يعطيه نسلاً كرمل البحر في الكثرة مادام اسحاق في صحة وعافية فقط، بل إن إيمانه لا يتغير ولو أصبح اسحاق ذبيحة يصعد دخانها فوق المذبح لأن ثقته كانت قوية كاملة فهي لم تكن ثقة نصفها مستند على الخالق ونصفها على الخلائق بل ثقة أساسها الوحيد الله نفسه إذ « حسب أن الله قادر ». فلم يحسب أن اسحاق قادر، لأن اسحاق بدون الله لم يكن شيئاً، أما الله بدون اسحاق فكان كل شيء. هذا المبدأ خطير ومن الأهمية بمكان عظيم، وبه يمتحن الله حقيقة قلب الإنسان، فهل إذا نشفت وجفت كل مجاري بركاتي تبقى ثقتي في الله غير متغيرة؟ وهل أنا أعتبر كفاية الله لي بكل بساطة بحيث أستطيع بالإيمان أن أمد يدي وآخذ السكين لأذبح ابني بيدي؟ أما إبراهيم فأمكن له ذلك لأن عينه اتجهت نحو إله القيامة «إذ حسب أن الله قادر على الإقامة من الأموات أيضاً» (عب١١:١٩).

وبالاختصار فإن إبراهيم حَسِب أمره مع الله وهذا كان كفاية له، ولذلك لم يسمح الله أن يضرب تلك الضربة القاضية. لقد سَمح له أن يتقدم إلى آخر خطوة ممكنة، ولكنه في رحمته به لم يصرح له أن يتجاوزها. إن الله الذي أشفق على قلب إبراهيم من ألم ضربة ابنه، وحيده لم يشفق على نفسه من ضربة ابنه بل تبارك اسمه تجاوز هو تلك النقطة «الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين» (رو٨:٣٢) بل «سُرّ الرب بأن يسحقه بالحزن» (إش٥٣:١٠) وعندما قدّم الآب ابنه الوحيد على الصليب عند الجلجثة لم يسمع صوت العفو من السماء كما سمع في حادثة اسحاق. لا بل أكمل الفداء وأسلم الروح فختم بذلك على سلامنا الأبدي.

على أن خضوع إبراهيم ثبت تماماً وقد صادق الله عليه أيضاً إذ قال

«الآن علمت أنك خائف الله فلم تُمسك ابنك وحيدك عني» (٢٢:١٢).

لاحظ قوله «الآن» كأن ذلك لم يثبت قبل اليوم. لا شك أن هذه الصفات كانت فيه من قبل وكان الله يعلم بها. ولكن الأمر الثمين لدينا أن نفهم أن الله يبني علمه هنا على ما شاهده على المذبح فوق جبل المريا من برهان واضح وهكذا نجد الإيمان دائماً يتبرر بالأعمال. وخوف الله يثبت بالأثمار التي تنشأ عن ذلك الخوف «ألم يتبرر إبراهيم أبونا بالأعمال إذ قدّم اسحاق ابنه على المذبح» (يع ٢:٢١) ومن كان يرتاب في صحة إيمان إبراهيم؟ هب أن إبراهيم لم يكن مؤمناً إذاً لكان عمله فوق جبل المريا قتلاً وجنوناً. أما باعتباره مؤمناً فهو خادم تقي خائف الله وإنسان مبرر أيضاً. ولابد من إثبات صحة الإيمان إذ «ما المنفعة يا إخوتي إن قال أحد إن له إيماناً ولكن ليس له أعمال» هل يرضى الله أو الناس بمجرد ادعاء باطل كهذا؟ حاشا لأن الله لا يرضى إلا بالحق وأينما رأى الحق

يبرره، أما الإنسان فلا يستطيع أن يدرك معنى الإيمان إلا إذا تزكى بالأعمال. ولا يخفى أن كثيرين حولنا يعترفون أن لهم إيماناً مدعين بالتدين بينما يندر أن تجد بينهم إيماناً صحيحاً، الإيمان الذي هو أثمن من الجواهر، ذلك الإيمان الذي يخاطر بنفسه وسط ظروف الحياة مقتحماً صعوبات الطريق من أمواج وزوابع بل متغلباً عليها غير مبال بها ولو تظاهر الرب كأنه نائم على الوسادة.

وهنا يحسن بنا أن نقارن بين أقوال الرسولين بولس ويعقوب بخصوص التبرير لنرى اتفاقهما العجيب الجميل. وليلاحظ القارئ الفطن الروحي الذي يعترف بأن كل الكتاب موحى به من الله أن الكاتب في الحقيقة ليس هو بولس أو يعقوب بل الروح القدس الذي من تنازله استخدم أمثال بولس ويعقوب ليكونوا آلات في يده للتعبير عما يقصد تدوينه لنا. إن الله قد أكرم خلائقه إذ جعلهم أقلاماً لكتابة أفكاره وإعلاناته، وإن كان قد استعمل أقلاماً متباينة نظير الرسام الذي قد يستخدم في عمل الرسم أقلاماً متنوعة ولكن جمال الرسم لا ينقص لأن صاحب الرسم استعمل أقلاماً مختلفة. ويستحيل أن كاتبين من كتبة الوحي يناقضان بعضهما، كما يستحيل على الأجرام السماوية أن تصطدم مع بعضها في أفلاكها.

أما الحقيقة، كما هو المنتظر، فهي أن الرسولين متفقان اتفاقاً تاماً. وفي مسألة التبرير يمكن لنا أن نعتبر الواحد مكملاً للآخر أو مفسراً له. فبولس مثلاً يتكلم عن الصورة الداخلية أما يعقوب فيصف لنا المنظر الخارجي، بولس يعطينا الوجه السري أما يعقوب فيكشف لنا الوجه الظاهر، ذاك يعتبر المسألة بين الإنسان والله. أما هذا فيعتبرها بين إنسان وإنسان. وواضح أن الاعتبارين صحيحان وكلاهما لازم لنا. فلا هذا يفيد بدون ذاك، ولا ذاك يعتبر حياً بدون هذا. فإبراهيم «تبرر» إذ «آمن بالله» وإبراهيم «تبرر» أيضاً «إذ قدّم اسحاق ابنه على المذبح» ففي الحالة نقرأ عن إيمانه السري وفي الحالة الثانية عن اعترافه الجهاري أمام السماء والأرض. ويجب أن نميز الفرق بين الحالتين فعندما «آمن إبراهيم بالله» «وحسب له براً» لم يسمع صوت من السماء وإن كان الله قد ختم على صحة إيمانه، أما «إذ قدم اسحاق ابنه على المذبح» فحينئذ قال الله «الآن علمت» وأصبح معروفاً لدى الخاص والعام في كل العالم أن إبراهيم رجل بار وهذا هو الحال دائماً. ومتى وجد الإيمان السري وجدت علاماته الخارجية. ولكن أهمية العلامات (الأعمال) إنما هي بالنسبة إلى الإيمان ليس إلا لأنك إذا فصلت أعمال إبراهيم الواردة في رسالة يعقوب عن إيمان إبراهيم الوارد في رسالة بولس فلا يبقى التبرير بعد تبريراً، بل لا شيء. فقيمة الأعمال واعتبارها ومزيتها وفضلها إنما نشأت عن صدورها من الإيمان الذي حسب له براً أولاً، وقد تبرر بهذه الأعمال خارجياً. ثبت بذلك أن بولس ويعقوب متفقان من جهة قضية التبرير أو بالحري ثبت عدم تناقض أسفار

الوحي بعضها مع البعض لأنها كلها صوت الروح القدس الواحد سواء تكلم بفم بولس أو يعقوب.

والآن نعود إلى أصحاحنا وفيه نرى موضوعاً لذيذاً جداً وهو أن إبراهيم بعد امتحان إيمانه اكتشف حقيقة جديدة عن صفات الله. وهذا أمر جدير بالالتفات لأننا متى استطعنا بنعمة الله أن نمر في امتحان من يد الله نفسه فلابد وأن نصل إلى اختبار أعمق من حيث معرفتنا لله فندرك حينئذ قيمة وفضل الامتحان. لأنه لو كان إبراهيم لم يمد يده ليذبح ابنه لما أدرك عمق وغنى تلك الجملة التي وصف بها الله هنا إذ قال «يهوه يرأه»، ونحن لا نكتشف حقيقة الله إلا بمرورنا وسط الامتحان. أما بدون امتحان فمعرفتنا بالله تكون نظرية، لكن الله لا يرضى بنا كذلك بل يريد منا أن نختبر عمق غناه وحقيقة شخصه بالشركة معه عملياً. وما أعظم الفرق بين حاسيات إبراهيم واختباراته حين كان راجعاً من جبل المريا إلى بئر سبع، وبينهما حين كان صاعداً نحو الجبل أولاً. نعم فهو كان راجعاً من جبل الرب إلى بئر القسم. والمكانان يشيران إلى فكرين مختلفين من جهة الله، بل من جهة اسحاق أيضاً، ومن جهة كل شيء أمام إبراهيم. ويليق بنا أن نقول هنا حقاً «طوبى للرجل الذي يحتمل التجربة» (يع١٢:١) فإن الامتحان شرف كبير يهَبه الرب للإنسان، وطوبى لمن يتزكى ويدرك قيمة النتائج التي لا يمكن التعبير عنها بالكلام. إن الإنسان الذي يستطيع أن ينطق بلغة مزمور ١٠٧ مع الذين أعيتهم أنفسهم فيهم «واقتربوا إلى أبواب الموت» هو الذي عرف الله. ياليت لنا نعمة لكي نحتمل التجربة حتى يظهر عمل الله ويتمجد هو أيضاً فينا.

بقيت ملاحظة أختم بها تأملاتنا في هذا الفصل وهي عن معاملات الله مع إبراهيم بعد الامتحان، إذ يشهد له بصورة جميلة كأنه قد أكمل العمل الذي نوى أن يكمله إذ يقول له:

> **«بذاتي أقسمت يقول الرب، أنّي من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تُمسك ابنك وحيدك، أباركك مباركة وأكثّر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر، ويرث نسلك باب أعدائه. ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض. من أجل أنك سمعت لقولي» (٢٢:١٦-١٨).**

وهذه الشهادة تنطبق على شهادة الروح أيضاً عن إبراهيم في الأصحاح الحادي عشر من العبرانيين وأيضاً في الأصحاح الثاني من رسالة يعقوب حيث قيل إن إبراهيم قدم اسحاق ابنه على المذبح فاعتبر الأمر كأنه تم فعلاً. والمبدأ المهم الذي يجب أن نفهمه من هذه القصة هو أن إبراهيم أظهر نفسه على استعداد أن يتخلى عن كل ما في الوجود أمامه سوى الله، وهذا هو المبدأ الذي بناء عليه تبرر إبراهيم. والمؤمن يستطيع أن يستغني عن كل شيء ما عدا الله وحده لأنه يعتبر أن فيه الكفاية فيسهل عليه أن يتخلى عما سواه. ولذلك كان قول الرب لإبراهيم «بذاتي أقسمت» له معنى كبير عنده لأنه يقدر ذاته الإلهية حق قدرها، نعم ففي «ذات الرب» كل أعواز المؤمن. «فإنه لما وعد

الله إبراهيم إذ لم يكن له أعظم يقسم به أقسم بنفسه .. فإن الناس يقسمون بالأعظم ونهاية كل مشاجرة عندهم لأجل التثبيت هي القسم. فلذلك إذ أراد الله أن يظهر أكثر كثيراً لورثة الموعد عدم تغير قضائه، توسط بقسم» (عب٦:١٣-١٧) ففي كلمة الله الحي وقسمه العديمي التغير نهاية كل مشاجرة وبحث، بل كمرساة النفس مؤتمنة وثابتة وسط أمواج وتيارات هذا العالم الهائج.

وعلينا أن نحكم على أنفسنا دائماً بسبب ضعف إيمان قلوبنا في مواعيد الله. فهوذا وعد الله ونحن نعترف شفاهاً أننا مؤمنون به ولكن واأسفاه إنه ليس الإيمان القلبي الثابت العملي كما يجب أن يكون، ولذلك فليس لنا بواسطته تلك «التعزية القوية» التي ينشئها ذلك الإيمان. ما أكثر تراخينا عندما يُطلب منا بقوة الإيمان ووعد الله أن نذبح اسحاقنا. نحن نحتاج أن نصرخ إلى الله نفسه وحده لكي نستطيع أن نفهم معنى وقوة تلك الجملة الواردة في ١ يوحنا ٥:٤ «هذه هي الغلبة التي تغلب العالم إيماننا». فإنما نحن نغلب العالم بإيماننا، أما عدم الإيمان فيعطي للأمور المنظورة غلبة علينا إذ يصبح لها سلطان علينا. إن النفس التي تعلمت بقوة الروح القدس معنى كفاية الله لا تعتمد على شيء من المنظور قط. يا ليتنا أيها القارئ الحبيب نتعلم هذا الدرس فيكثر فرحنا وسلامنا بالله ويزداد مجده فينا. آمين.

الأصحاح الثالث والعشرون

في هذا الفصل القصير من الوحي الإلهي تعاليم مفيدة ولذيذة للنفس لأن الروح القدس يكشف لنا فيه المنظر الذي يجب أن يظهر به المؤمن أمام الذين هم من خارج. فمن الجهة الواحدة ينبغي للمؤمن أن لا يعتمد على أهل العالم في شيء وهذا الحق إلهي وصريح؛ ومن الجهة الأخرى يجب عليه أن يسير بالأمانة نحوهم. وفي ١تسالونيكي ٤:١٢ يقول الرسول «لكي تسلكوا بلياقة عند الذين هم من خارج» وأيضاً «معتنين بأمور حسنة ليس قدام الرب فقط بل قدام الناس أيضاً» (٢كو٨:٢١) «لا تكونوا مديونين لأحد بشيء» (رو١٣:٨) هذه القوانين صريحة وخطيرة وقد سلك بمقتضاها خدام الرب الأمناء في كل الأجيال ولكنها بكل أسف مهملة في هذه الأوقات الأخيرة وقل من يهتم بها.

من هنا تتضح لنا أهمية أصحاح ٢٣ من سفر التكوين. وفي أوله نقرأ عن موت سارة لذلك أصبح إبراهيم في مقام نادب

«فأتى إبراهيم ليندب سارة ويبكي عليها» (٢٣:٢).

ولابد أن أولاد الله تصادفهم ظروف كهذه ولكنه لا يليق بهم أن يتصرفوا كأهل العالم. ففي حقيقة القيامة تعزيتهم وحينئذ يتحول حزنهم إلى صورة أخرى تختلف عن حزن أهل العالم (١تس٤:١٣، ١٤) ورجل الإيمان يستطيع الوقوف عند قبر أخيه أو أخته وهو شاعر أن القبر لا يمسكه طويلاً، وأن أمد الفراق لا يطول «لأنه إن كنا نؤمن أن يسوع مات وقام فكذلك الراقدون بيسوع سيحضرهم الله أيضاً معه» وفداء النفس يضمن فداء الجسد أيضاً وما دمنا حصلنا على الواحد فلابد من نوال الآخر (رو٨:٢٣).

ويظهر لي هنا إبراهيم قد برهن على إيمانه بالقيامة في مشتراه مغارة المكفيلة مدفناً لسارة.

«وقام إبراهيم من أمام ميته» (٢٣:٣).

لأن المؤمن لا يستطيع أن يطيل مكوثه أمام الميت ما دام له غرض أسمى أعطاه إياه ذلك الإله «الحي» تبارك اسمه. والإيمان يضع أمام نظر الإنسان أمر القيامة وبقوة تلك الحقيقة يقوم من أمام ميته، وما أجمل المعاني التي يتضمنها تصرف إبراهيم هذا.

وعلينا أن نتأمل في مضمون تلك العبارة لأننا معرضون للمشغولية بالموت ونتائجه. على أن الموت هو نهاية قوة الشيطان، ونهاية الشيطان هي بداءة عمل الله وقد فهم إبراهيم ذلك حين قام من أمام ميته واشترى مغارة المكفيلة لتكون مقبرة لسارة. هذا هو فكر إبراهيم ورأيه في المستقبل فقد علم أن الله لابد أن يتمم له وعده من جهة أرض كنعان في المستقبل لذلك دفن جسد سارة في القبر على رجاء القيامة الوطيد المجيد.

أما بنو حث فلم يعلموا شيئاً من ذلك؛ والأفكار التي كانت تختلج صدر إبراهيم لم يكن لها موضع في أذهان أولاد حث غير المختونين. فلم يكن يهمهم أين يدفن ميته أما هو فالمسألة عنده كانت ذات شأن خطير

«أنا غريب ونزيل عندكم أعطوني مُلك قبرٍ معكم لأدفن ميتي من أمامي» (٢٣:٤).

لا شك أنهم استغربوا من إبراهيم الذي كبّر مسألةً في حد ذاتها لا تستحق كل هذا الاهتمام ولكن أيها الأحباء «لا يعرفنا العالم لأنه لا يعرفه» (١يو٣:١) بل إن أشهر وأبهى مزايا الإيمان لا يُدرك لها الإنسان الطبيعي معنى أصلاً. وكذلك الكنعانيون الذين لم يعلقوا أهمية على اجراءات إبراهيم لأنهم لم يفهموا غرضه. فما خطر على بالهم قط أن إبراهيم يتوقع امتلاك تلك الأرض في مستقبل الأيام وأنه إنما يشتري تلك المغارة ليأوى ميته إلى حين يتم الذي في مقاصد الله حين ينفجر صبح القيامة. لقد عرف أنه لا شأن له مع بني حث ولذلك كان راضياً أن يكون نصيبه وسطهم أن يُدفِن ميّته في القبر ويسلم إلى الله أمره فيعمل به ومعه ولأجله.

«في الإيمان مات هؤلاء أجمعون وهم لم ينالوا المواعيد بل من بعيد نظروها وصدقوها وحيوها وأقروا بأنهم غرباء ونزلاء على الأرض» (عب١١:١٣). وهنا صحة الشهادة. فهؤلاء الشهود المذكورون في رسالة العبرانيين أصحاح ١١ لم يعيشوا فقط بالإيمان بل حتى في نهاية حياتهم وهم مفارقون العالم شهدوا لصحة مواعيد الله وأنهم اقتنعوا بها في قلوبهم كما في مدة حياتهم. وأنا أعتقد أن مُشتَرى مدفن في الأرض دليل قوة الإيمان ليس للحياة فقط بل للموت أيضاً. لأنه لماذا أظهر إبراهيم كل هذا الاهتمام بمشترى ذلك الحقل؟ لماذا اجتهد أن يجعل امتلاكه لتلك المقبرة مبنياً على قواعد وأصول وحقوق شرعية من عفرون؟ لماذا حتم على أن يدفع الثمن فوزن لعفرون الفضة التي طلبها «جائزة عند التجار»؟ الجواب على هذه الأسئلة كلها هو الإيمان. فعمله كله كان مؤسساً على الإيمان

ليس إلا، لأنه علم أن الأرض له ولابد أن نسله يمتلكها بالجد؛ ولا يريد أن يكون مديناً لأصحابها حينئذ إلى أن يأتي الوقت.

من هذا نرى أن الفصل المعروض أمامنا لنا فيه نور في قضيتين. الأولى من جهة قانون معاملاتنا وسلوكنا مع الذين هم من خارج أي أهل العالم. والثانية من جهة الرجاء المبارك الذي كان أمام رجل الإيمان. وهاتان المسألتان يجب أن تكونا غرض أولاد الله دائماً. أما الرجاء الموضوع أمامنا في الإنجيل فهو الخلود الأبدي. هذا الرجاء فضلاً عن كونه يرفع القلب فوق تأثيرات الطبيعة والعالم فلنا به مبدأ سام للتصرف أمام الذين هم من خارج، «نعلم أنه إذا أُظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو» هذا هو رجاؤنا ولكن ما هو تأثيره الأدبي؟ «وكل من عنده هذا الرجاء به يطهّر نفسه كما هو طاهر» (١يو٣: ٢، ٣) أي إذا كنت أرجو أن أكون مثل المسيح في القريب العاجل فإني أسعى أن أكون مثله على قدر إمكاني الآن. ومن أجل ذلك يجب على المسيحي أن يطهّر نفسه ويسلك بلياقة ويتصرف كما يحق في نظر أهل العالم.

وهكذا تصرف إبراهيم أمام بني حث. فسلوكه وترفعه الظاهران في هذا الفصل قد رفعا شأنه بلا شك في عيون أولئك الناس الغلف. لذلك اعتبروه «رئيساً من الله بينهم» وأرادوا أن يقدموا له خدمة. ولكن إبراهيم تعود أن يقبل الفضل من يد إله القيامة. فأهل حث يجب أن يدفع لهم ثمن مغارة مكفيلة وأما الله فيقبل منه عطية كنعان مجاناً. أبناء حث «عرفوا قيمة الفضة الجائزة عند التجار» أي العملة الدارجة عندهم أما إبراهيم فعرف قيمة الحقل «فالأرض» كانت عندهم «بأربع مائة شاقل فضة» أما عند إبراهيم فكانت لا تقدر بثمن لأنها عربون الميراث الأبدي وبما أن الميراث أبدي فلا يُنال إلا بقوة القيامة. وهكذا نجد الإيمان يقود إلى المستقبل. فيحكم على الشيء بحسب قيمته في نظر الله أي كما يراه في مقادس الله. وهكذا بقوة الإيمان قام إبراهيم من أمام ميته واشترى حقل مكفيلة فوجب له الحقل والمغارة التي فيها وبذلك أظهر رجاءه بالقيامة والميراث المؤسس على هذا الرجاء.

الأصحاح الرابع والعشرون

إن العلاقة التي بين هذا الفصل والفصلين السابقين تستحق الذكر. ففي الأصحاح الثاني والعشرين رأينا الابن يُقدَّم ذبيحة وفي الأصحاح الثالث والعشرين قرأنا عن اختفاء سارة وفي الأصحاح الرابع والعشرين نقرأ عن إرسال العبد ليأخذ زوجة لمن كان يشير إلى من قام من الأموات. وهذه العلاقة فيها مشابهة كاملة للحوادث التي تمت استعداداً لدعوة الكنيسة. وسواء اعتبرنا هذه المشابهة من باب الرمز المقصود في الوحي أم لا، فهذا ما نتركه للقارئ ليبدي فيه حكمه، ولاشك أنه يسلِّم معنا على كل حال بغرابة الأمر.

وإذا رجعنا إلى العهد الجديد فإننا نجد الحوادث بحسب ترتيبها: أولاً رفض وموت المسيح، ثانياً اختفاء إسرائيل بحسب الجسد، وأخيراً دعوة الكنيسة لتكون عروس الخروف.

والقارئ الفطن يلاحظ أن هذا هو ترتيب الحوادث الواردة في الأصحاحات الثلاثة الأخيرة (تك ٢٢-٢٤). فكان ينبغي أن يتألم المسيح ويموت أولاً قبل أن توجد أو بالحري تُدعَى الكنيسة لتكون عروس المسيح. وكان يجب أن يُنقض «حائط السياج المتوسط» (أف٢:١٤) قبل أن يُخلق «الإنسان الجديد»، وهذا ما ينبغي أن ندركه جيداً لكي نفهم مركز الكنيسة في معاملات الله. إذ ما دامت الأمة اليهودية موجودة كتدبير خاص كان لابد وأن يوجد فاصل بين اليهود والأمم. ومن هذا يتضح لنا أن فكرة جمع الأمم واليهود معاً ليكونوا إنساناً واحداً جديداً كانت غريبة لدى ذهن اليهودي. لأنه كان يعتبر نفسه في مركز أسمى من مركز الأممي بل يعتبر الأممي نجساً لا يصح مخالطته (أع ١٠:٢٨) ولو كانت أمة إسرائيل سارت مع الله بحسب حقيقة نسبتها إليه وحفظت مركزها الذي وضعها فيه لبقيت شعباً خاصاً ممتازاً ومنفصلاً عن العالم. ولكنهم لم يحفظوا مركزهم. ولما كمل مكيال إثمهم بصلب رب الحياة والمجد ورفضوا شهادة الروح القدس، نجد أن الرسول قد أُفرز ليكون خادماً لشيء جديد كان مكتوماً في المشورات الأزلية الإلهية عندما كانت

أمة إسرائيل حافظة مركزها كشاهدة له على الأرض. «بسبب هذا أنا بولس أسير المسيح يسوع لأجلكم أيها الأمم إن كنتم قد سمعتم بتدبير نعمة الله المعطاة لي لأجلكم أنه بإعلان عرفني بالسر .. الذي في أجيال أُخر لم يُعرَّف به بنو البشر كما قد أُعلن الآن لرسله القديسين وأنبيائه (أي أنبياء العهد الجديد) بالروح. أن الأمم شركاء في الميراث والجسد ونوال موعده في المسيح بالإنجيل» (أف ١:٣ ـ ٦) هذه أقوال واضحة وصريحة؛ فسر الكنيسة المكونة من اليهود والأمم معاً الذين اعتمدوا بروح واحد إلى جسد واحد واقترنوا معاً بالرأس الممجد في السماوات لم يكن قد أعلن قبل بولس. ثم يتقدم الرسول فيقول عن هذا السر «الذي صرت أنا خادماً له حسب موهبة نعمة الله المعطاة لي حسب فعل قوته» (ع ٧) هذا هو البناء الذي كان رسل وأنبياء العهد الجديد أساسه أو مقدمته (انظر أفسس ٢٠:٢) ومن هذا يتضح أن هذا البناء لم يكن له وجود قبل الرسل. لأنه لو كان هذا البناء موجوداً من أيام هابيل لكان الرسول قال إننا مبنيون على أساس أنبياء العهد القديم. ولكنه لم يقل هكذا. ونحن نستنتج أنه مهما كان مركز أتقياء العهد القديم فهم لم يكونوا جزءاً من جسد لم يكن قد تكوَّن بعد سوى في مقاصد الله ومشوراته الأزلية، لأنه مبني على موت المسيح وقيامته وحلول الروح القدس. نعم إنهم خلصوا، تبارك اسم الله، خلصوا بدم المسيح وسيكون لهم نصيب في المجد السماوي مع الكنيسة ولكن مع كل ذلك فما كان يمكن أن يكونوا جزءاً من جسدٍ لم يكن له وجود إلا بعدهم بمئات من السنين.

وكان من السهل علينا أن نتوسع في سرد البراهين الكثيرة التي تثبت هذه القضية المهمة والحق الإلهي لو كان هذا المجال هذا مناسباً لذكر مزيد من البراهين، ولكننا نتقدم الآن إلى شرح هذا الفصل بعد أن أشرنا إلى هذه المسألة الجوهرية لمناسبة ذكر خلاصة الأصحاح الرابع والعشرين من سفر التكوين هذا.

ربما يجول في أذهان بعض القراء أننا نشرح هذا الفصل باعتباره رمزاً لدعوة الكنيسة بالروح القدس. وأنا من جهتي أشعر بالارتياح حينما أنظر إليه كمثال لعمل الروح القدس الآن. ونحن لا يخطر على بالنا قط أن روح الله كان ينشغل بذكر تفصيلات حادثة كهذه ويفسح لها فصلاً طويلاً كهذا لمجرد شرح حادثة عائلية بسيطة لولا أن فيها رمزاً أو مثالاً لحق مهم. «لأن كل ما سبق فكتب كتب لأجل تعليمنا» (رو ٤:١٥) وهذا القول حق. إذن ماذا نتعلم من هذا الفصل المطروح أمامنا؟ أنا أعتقد أن لنا فيه تعليماً ورمزاً جميلاً عن سر الكنيسة. ويجب أن نفهم أننا بينما نقول إنه لا توجد إعلانات صريحة ومباشرة عن هذا السر في العهد القديم نرى فصولاً وحوادث وظروفاً ترمز إليه على نوع ما كما نرى في هذا الفصل. وكما قلنا سابقاً إن الابن (أي اسحاق) قد أُصعد للمحرقة ثم

أُخذ في مثال القيامة من الأموات، ثم رفضت الآن التي تشير إليها الوالدة بأخذها من العالم ثم بعد ذلك تم إرسال العبد من قبل الآب لاستحضار زوجة للابن.

ولكي نفهم مضمون هذا الفصل فهماً جيداً علينا أن نتأمل في النقاط الثلاث الآتية: القَسَم، الشهادة، النتيجة. وأول شيء جميل ينحصر فيه تأملنا هو ملاحظة أن دعوة رفقة إلى هذا المقام السامي والمجد الرفيع كانت مبنية على قَسَم صادر من إبراهيم إلى عبده. على أن رفقة نفسها لم تكن تعلم شيئاً من ذلك ولو أنها كانت موضوع القَسَم وهكذا الأمر مع كنيسة الله أفراداً وإجمالاً. «وفي سفرك كلها كتبت يوم تصورت إذ لم يكن واحد منها» (مز١٣٩:١٦) «مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه في المحبة» (أف١:٣، ٤) «لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه ليكون هو بكراً بين إخوة كثيرين. والذين سبق فعينهم فهؤلاء دعاهم أيضاً والذين دعاهم فهؤلاء بررهم أيضاً. والذين بررهم فهؤلاء مجدهم أيضاً» (رو٨:٢٩، ٣٠).

هذه الشواهد الكتابية جميعها تثبت صحة النقطة التي نتأمل فيها الآن، فدعوة وتبرير ومجد الكنيسة كانت سابقة في مشورات الله الأزلية حسب قصده، بناء على كلمته وقَسَمه اللذين ثبتهما بموت وقيامة وتمجيد الابن. فمقاصد الله من جهة الكنيسة كانت من قبل تأسيس العالم في فكر الله الأزلي ولا يمكن فصلها بأي وجه من الوجوه عن أفكار الله من جهة مجد الابن. لقد كان الغرض من القَسَم الذي كان بين إبراهيم وعبده، استحضار شريكة لابنه. ورغبة الأب التي اتجهت نحو ابنه هي التي قادته إلى رفع شأن رفقة إلى مثل هذا المقام السامي. وما ألذ تأملنا في هذا لأننا نرى أن سعادة العروس غير منفصلة عن الابن وأمجاده «لأن الرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل. ولأن الرجل لم يُخلق من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجل» (اكو١١:٨، ٩) وهذا ما نجده واضحاً في مثل عشاء العرس الجميل إذ قيل في متى٢:٢٢ «يشبه ملكوت السماوات إنساناً ملكاً صنع عرساً لابنه» فالابن هو غرض كل أفكار ومشورات الله فإذا حصل أي واحد على بركة أو مجد أو مقام فذلك لعلاقته بالابن ليس إلا. لأن الإنسان قد أضاع كل حقوقه الطبيعية حتى في الحياة بسبب الخطية. ولكن المسيح حمل قصاص الخطية بالنيابة عن جسده الذي هو الكنيسة، وهناك على الصليب سُمّر كتائبها فاحتمل خطاياها في جسمه على الخشبة ونزل إلى القبر بسبب ثقلها، ومن ثم نجد أن نجاة الكنيسة من كل ما كان ضدها نجاة كاملة، لأنها أقيمت من قبر المسيح معه، تاركة خطاياها مدفونة وراءها في القبر. والحياة التي لها الآن هي حياة وراء الموت، بعدما وفُيت كل المطاليب التي كانت عليها. فهي إذن حياة مقترنة بالبر الإلهي ومؤسسة عليه، لأن حياة المسيح

قد انتصر بها على كل قوات الموت وصار هو حياة الكنيسة. إذن فالكنيسة تتمتع الآن بحياة الله بالبر الإلهي والرجاء الذي أمامها هو رجاء بر (انظر من ضمن الشواهد العديدة في هذا الشأن الآيات الكتابية الآتية : يو٣:١٦، ٣٦؛ ٥:٣٩، ٤٠؛ ٦:٢٧، ٤٠، ٤٧، ٦٨؛ ١١:٢٥؛ ١٧:٢؛ رو٥:٢١؛ ٦:٢٣؛ ١تي١:١٦؛ ١يو٢:٢٥؛ ٥:٢٠؛ يه٢١؛ أف٢:١-٦، ١٤، ١٥؛ ١كو١٢:١٢-٢٢؛ ٢:١٠-١٥؛ رو١:١٧؛ ٣:٢١-٢٦؛ ٤:٥، ٢٣-٢٥؛ ٢كو٥:٢١؛ غل٥:٥).

وهذه الآيات كافية لاثبات الخواص الثلاث التي امتازت بها الكنيسة وهي البر والحياة والرجاء. وهي امتيازات ناتجة من اتحاد الكنيسة بذاك الذي قام من الأموات. ولا شيء يثبّت القلب مثل الاقتناع بأن وجود الكنيسة كان لازماً لأجل مجد المسيح إذ « المرأة هي مجد الرجل » (١كو١١:٧) كما دعيت الكنيسة « ملء الذي يملأ الكل في الكل » (أف١:٢٣) وهو تعبير يفوق الإدراك لأن قوله « ملء » يعني « تكملة » أي أن الكنيسة مع المسيح يتكون منهما واحد صحيح فهو الرأس وهي الجسد وكلاهما معاً إنسان واحد جديد (أف٢:١٥) وإذا اعتبرنا الكنيسة من هذا الوجه فلا نستغرب من كونها وجدت في قصد ومشورات الله الأزلية المحتومة موضوع الغرض، لأنها باعتبارها الجسد أو العروس أو شريكة حياة الابن الوحيد تشعر أنها كانت بالنعمة في فكر الله قبل تأسيس العالم. كما أن رفقة لأنها كانت لازمة لاسحاق أصبحت موضوع المشورة السرية السابقة من قبل أن يصل الخبر إلى علم رفقة. فكل أفكار إبراهيم كانت متجهة نحو ابنه اسحاق.

«فأستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض أن لا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم» (٢٤:٣).

ومن هذا الحديث نتعلم أن المسألة الجوهرية إنما كانت اختيار زوجة لاسحاق. « ليس جيداً أن يكون آدم وحده » وهذا الوجه نرى منه أهمية الكنيسة. ففي قصد الله كان لابد منها للمسيح، ولأجل دعوتها لتكون زوجة له كان لابد من إتمام عمل الفداء أولاً.

ومتى تأملنا في القضية من هذا الوجه من الحق فلا تصبح إذن مسألة خلاص الإنسان هي : هل يقدر الله أن يخلص الخاطئ أم لا؟ إذ هو قاصد أن « يصنع عُرساً لابنه »، والكنيسة هي العروس المطلوبة. فهي موضوع قصد الآب وغرض محبة الابن بشهادة الروح القدس. وستكون شريكة الابن في كل ما أورثه من مجد ومقام كما أنها شريكته في كل الحب الذي أحبه الآب به. اسمع ماذا يقول الابن بنفسه «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد. أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مكملين إلى واحد وليعلم العالم أنك أرسلتني وأحببتهم كما أحببتني » (يو١٧:٢٢، ٢٣) وفي هذا البيان القدر الكافي للتعبير عن أفكار قلب المسيح من جهة الكنيسة فهي مدعوة لتكون مثله، بل حتى الآن هي مثله، كما يقول الرسول يوحنا «بهذا تكملت المحبة فينا أن يكون لنا ثقة في يوم الدين لأنه كما هو، في هذا العالم هكذا نحن أيضاً » (١يو٤:١٧) فلا موضع هنا

للشك. لأن كل شيء صار للعروس في العريس. كل ما لأسحاق أصبح لرفقة لأن اسحاق صار لرفقة، هكذا كل ما للمسيح أصبح ملكاً للكنيسة «فإن كل شيء لكم أبولس أم أبلوس أم صفا أم العالم أم الحياة أم الموت أم الأشياء الحاضرة أم المستقبلة كل شيء لكم. وأما أنتم فللمسيح والمسيح لله» (١كو٣:٢١-٢٣) فالمسيح جُعل «رأساً فوق كل شيء للكنيسة» (أف١:٢٢) وسيكون سرور المسيح في الأبدية أن يظهر ما هو غنى مجده وجماله وميراثه في الكنيسة، لأن مجدها وجمالها وميراثها إنما هو مجده وجماله وميراثه الذي سُر أن يعطيه لها وسيعرف الرؤساء والسلاطين بما يشاهدونه في الكنيسة بحكمة الله وقدرته ونعمته في المسيح.

والآن نتأمل في النقطة الثانية وهي الشهادة. لأن إبراهيم وضع في أذن عبده شهادة صريحة جداً

«فقال أنا عبد إبراهيم. والرب قد بارك مولاي جداً فصار عظيماً. وأعطاه غنماً وبقراً وفضة وذهباً وعبيداً وإماء وجمالاً وحميراً. وولدت سارة امرأة سيدي ابنا لسيدي بعدما شاخت فقد أعطاه كل ما له» (٢٤:٣٤-٣٦).

فكانت شهادته إعلان الآب والابن. فكان يتكلم عن غنى الآب وكيف أنه أعطى كل شيء للابن لأنه «ابنه الوحيد» وموضوع سرور الآب ومحبته. هذه هي الشهادة التي بواسطتها كان يخطب زوجة لابن سيده.

على أني لست في حاجة أن أنبه القارئ إلى أن هذه الشهادة تمثل لنا تمثيلاً بديعاً شهادة الروح القدس الذي حلّ من السماء يوم الخمسين. «ومتى جاء المعزي الذي سأُرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي» (يو١٥:٢٦) وأيضاً «وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية. ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم، كل ما للآب هو لي، لهذا قلت إنه يأخذ مما لي ويخبركم» (يو١٦:١٣-١٥) فالعبد قصد أن يجتذب رفقة بإعلان ما كان لاسحاق. وهكذا الروح القدس الآن يجتذب الخطاة من عالم الخطية والغباوة إلى غبطة وقداسة الاتحاد بالمسيح «يأخذ مما لي ويخبركم» فروح الله لا يقود الناس إلى النظر إلى ذواتهم أو أعمالهم أو أي شيء لهم بل إلى المسيح وحده دون سواه دائماً والإنسان المتقدم في الحالة الروحية هو الذي ازدادت مشغوليته بشخص المسيح.

يظن البعض أن من علامات التقدم والنمو الروحي أن ينظروا إلى حالة قلوبهم ويتأملوا طويلاً فيما يجدونه هناك حتى ولو كانت أثمار الروح القدس، ولكن هذا خطأ وعوضاً عن أن يثبت به أن الشخص روحي فهو يبرهن عكس ذلك لأنه قيل صريحاً عن الروح القدس إنه «يأخذ مما لي ويخبركم» إذن الشخص الذي يقع نظره على ما في داخله ويبني على ما يراه ولو من أثمار الروح لا يكون منقاداً بالروح حينئذ لأن الروح إنما يجذب النفوس إلى الله باجتذاب النظر نحو

المسيح. هذه المسألة مهمة جداً. لأن معرفة المسيح هي الحياة الأبدية، بل إن أساس الكنيسة هو إعلان الآب شخص المسيح بالروح القدس. لأنه عندما اعترف بطرس بأن المسيح هو ابن الله الحي كان جواب المسيح له «طوبى لك يا سمعان بن يونا إن لحماً ودماً لم يعلن لك لكن أبي الذي في السماوات وأنا أقول لك أيضاً أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها» (مت١٦:١٧، ١٨) أي صخرة يا ترى؟ بطرس؟ حاشا. بل هذه الصخرة (أي ما أعلنه الآب عن شخص المسيح أنه ابن الله الحي) هي أساس بناء كنيسة الله. وهذا ما يوضح لنا حقيقة الإنجيل.فالإنجيل هو إعلان كامل وهو ليس إعلان حق فقط بل إعلان شخص -شخص الابن. ومتى قبل هذا الإعلان بالإيمان فالنفس التي تقبله تنجذب إلى الابن ويصبح هذا الإعلان مصدر حياة وقوة، إذ به لنا اتصال كأعضاء وبه لنا قوة للشركة. «لما سُرّ الله... أن يعلن ابنه فيّ» (غل١:١٦) وهذا هو أساس الصخرة أن الله يعلن ابنه وعلى هذا الأساس يقام البناء وهو أساس متين لمن يستند عليه بحسب مقاصد الله الأزلية.

يتضح لنا مما سبق أن أصحاح ٢٤ من سفر التكوين فيه مثال جميل وواضح لإرسالية وشهادة الروح القدس. فعبد إبراهيم كان يصف جَمال وغنى ما يمتلكه الآب وقد أعطاه كله للابن شاهداً للمحبة التي اتجهت من الآب نحو ابنه، وبالاختصار كان يبذل كل جهده لاجتذاب قلب الخطيبة وسحبه من الأشياء الحاضرة، فكان يرفع بصر رفقة نحو الغرض الموجود قدامها ويؤكد لها أنها ستتبارك حين تصبح واحداً مع ذلك الشخص المجيد المُعزز والمُكرّم، لأنها متى صارت شريكة اسحاق فكل ما له يصبح لها. هذه كانت شهادة ذلك العبد، وبمثل هذا يشهد لنا الروح القدس الآن. فهو يتكلم عن المسيح وعن أمجاد المسيح وعن جمال المسيح وعن ملء المسيح وعن نعمة المسيح وعن «غنى المسيح الذي لا يُستقصى» (أف٣:٨) وعن عظمة شخصه وكمال عمله المبارك.

وفضلاً عن ذلك فإنه يصف لنا غبطة وحدتنا مع المسيح، «أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه» (أف٥:٣٠) هذه هي شهادة الروح القدس كل حين، وهي المحك الذي نختبر به صدق التعليم والكرازة، وهل هما من الروح القدس. فيقال عن التعليم إنه روحي متى كان موضوعه وغرضه المسيح وأمجاده ليس إلا. لأن هذه هي إرسالية الروح. والروح القدس لا يلذ له حديث يتوسع فيه نظير الكلام عن الرب يسوع. إن سروره أن يعلن لنا أمجاد الابن وبهاءه وكمالاته. ومن ثم نجد الخادم الذي يخدم بقوة الروح يكون أكثر كلامه عن شخص المسيح. فلا يوجد في كرازته أو تعليمه محل للأبحاث العقلية أو البراهين المنطقية. لأن هذه المواضيع يشبع منها الشخص الذي يريد

أن يظهر ذاته. أما غرض الروح القدس دائماً فهو إعلان شخص المسيح، وعلى خدامه أن يتذكروا هذا دائماً.

وأخيراً لنتأمل في النقطة الثالثة وهي «النتيجة» من هذا كله. لأن الحق في حد ذاته، وتطبيق الحق عملياً، شيئان مختلفان. ومجرد الكلام عن أمجاد الكنيسة شيء، وجاذبية الأقوال للنفس نحو المسيح شيء آخر. وإذا تأملنا في حال رفقة نرى الفرق ظاهراً وفيه لنا تعليم واضح. فشهادة عبد إبراهيم انغرست في أعماق قلبها بعدما سكنت في أذنها فانخلع قلبها من كل ما حولها. وعرفت أن تنسى ما وراء وتمتد إلى ما هو قدام لعلها تدرك ذلك الذي لأجله أدركها هو. لأنه يستحيل أن تصدق الخبر وتتحقق صحة الأمجاد التي كانت تنتظرها وتبقى في وسط ذلك المكان بدون شوق إلى المسير حالاً. لأنه إذا كان الخبر الذي سمعته عما هو أمامها صحيحاً فالانتظار محض غباوة وأقصى درجات الجهل. وإذا كان الرجاء بأنها ستكون عروساً لاسحاق وارثة معه في كل أمجاده حقيقة، فالانتظار في بيت أبيها ترعى الغنم يُعَدّ احتقار لكل ما عرضته عليها نعمة الله.

ولكن الأخبار التي بلغت مسامعها كانت عن أمور لا يليق الاستخفاف بها. نعم إنها لم تكن قد أبصرت اسحاق بعد ولا ورثت ما وعدت به ولكنها آمنت بالخبر وصدقت الشهادة وقبلت العربون، وفي هذا ما يكفي لقلبها. لذلك نراها أسرعت في الحال وأجابت بدون تردد ولا إمهال وأظهرت أنها مستعدة أن تسافر عاجلاً «فقالت أذهب» إنها لم تبال بمشقة السفر ولا بوعورة الطريق بل قبلت أن تسير برفقة ذاك الذي أخبرها عن غرض موضوع قدامها ومجد عتيد أن يستعلن. «فقالت أذهب» «إذ أنا أنسى ما هو وراء وأمتد إلى ما هو قدام أسعى نحو الغرض لأجل جعالة دعوة الله العليا» (في٣: ١٣، ١٤) وفي هذه القصة مثال جميل ومؤثر لدعوة وقيادة الروح القدس للكنيسة وهي سائرة لملاقاة عريسها السماوي.

هذا ما يجب أن يكون حال الكنيسة ولكنها قُصرت في هذا وأسفاه. نراها متوانية متراخية في طرح كل ثقل والخطية المحيطة بسهولة .. متباعدة عن قوة الشركة في الروح القدس الذي يقودنا ويرافقنا كل الطريق والذي سروره ومهمته أن يأخذ مما ليسوع المسيح ويخبر قلوبنا، كما كان عبد اسحاق يأخذ مما لاسحاق ويخبر رفقة. ولا شك أنه أثناء السفر كان يلقي على آذانها من جديد تلك الأخبار المفرحة. وكلما تقدمت في المسير يرتقي بها إلى قمة أمجاد اسحاق التي كانت على وشك مشاركته فيها. وهذا على الأقل نفس ما يفعله بنا قائدنا السماوي، فلذته وسروره أن يخبرنا عن أمجاد الابن. «ذاك يمجدني، لأنه يأخذ مما لي ويخبركم» (يو١٦: ١٥) وأيضاً «يخبركم بأمور آتية» وهذا ما نحتاج إليه نحن حقيقة في سفر الطريق الشاق. خدمة روح الله هذه التي بها ينكشف

جمال المسيح لقلوبنا فينشيء فينا أشواقاً إليه فنريد أن نراه كما هو لأننا سنكون مثله إلى الأبد. هذا ولا سواه، ما يفصل قلوبنا عملياً عن الأرض والطبيعة لأنه أي شيء اجتذب قلب رفقة ودعاها أن تقول «أذهب» إلا الرجاء بأن تكون مع اسحاق شريكة له في أمجاده مع أنه «قال أخوها وأمها لتمكث الفتاة عندنا أياماً أو عشرة» وهكذا الحال معنا نحن أيضاً فلا شيء يجعلنا نطهر أنفسنا كما هو طاهر سوى ذلك الرجاء أننا سنرى ربنا يسوع كما هو فنكون مثله ومعه إلى الأبد.

الأصحاح الخامس والعشرون

هذا الفصل يبتدئ بذكر زواج إبراهيم ثانية، وهي حادثة لها معنى عند التأمل فيها روحياً، لاسيما إذا نظرنا إليها من حيث علاقتها بما كنا نتأمل فيه في الأصحاح السابق. ذلك لأننا نجد في نور نبوات العهد الجديد أن نسل إبراهيم سيعود إلى الظهور مرة ثانية بعد إتمام عدد المختارين وأخذ المسيح عروسه إليه. لذلك نجد الروح القدس بعدما ذكر أمر زواج اسحاق عاد إلى ذكر نسل إبراهيم حسب الجسد بواسطة زواجه مرة ثانية مع حوادث أخرى. على أني لا أقول بضرورة قبول هذا الشرح ولكنني قلت إنه لا يخلو من معنى.

وقد صدق من قال عن هذا السفر إنه جمع بذار كل الكتاب لأننا كلما تأملنا في صفحاته المشحونة بالفوائد وجدناها فائضة بذكر مبادئ الحقائق الجوهرية التي يتوسع في شرحها وإيضاحها العهد الجديد. نعم إن هذه القضايا مذكورة أحياناً في العهد القديم تلميحاً وفي العهد الجديد تصريحاً ولكن التلميح نفسه له معنى ويؤثر بقوة في الذهن من جهة الحق المنطوي تحته.

وفي خاتمة هذا الأصحاح أيضاً نقرأ عن مبادئ مهمة وخطيرة وعملية في حد ذاتها، نعم إن أخلاق وخصال يعقوب ستتضح لنا أكثر متى تقدمنا في تاريخ حياته إن شاء الرب ولكني أريد أن أقدم هنا بعض ملاحظات عن عيسو من جهة البكورية وما يتبع ذلك. وأول ما نلاحظه أن القلب البشري بحسب الطبيعة لا يعرف لأمور الله معنى ولا قيمة. ومواعيد الله لديه بلا قوة وبلا قيمة وبلا أهمية، لأنه لا يعرف الله. ومن ثم تكون للأمور الحاضرة أهمية وتأثير وقيمة في نظر الإنسان. فهو لا يعتبر إلا العيان لأنه يراه ولا يسلك بالإيمان لأن الحاضر في نظره هو كل شيء أما المستقبل فوهم وخيال باطل. وهذا كان شأن عيسو. اسمع فلسفته الغبية:

«ها أنا ماضٍ إلى الموت فلماذا لي بكورية؟» (٢٥:٣٢).

ويا لها من فلسفة عاطلة وغريبة! كأنه يقول هوذا الحاضر سريع الزوال فلماذا التمسك

بالمستقبل؟ ها عمري قد دنا فلماذا أهتم بالأبدية؟

«فاحتقر عيسو البكورية» (٢٥:٣٤).

كما احتقر إسرائيل بعده أرض الموعد (مز١٠٦:٢٤) ثم احتقروا المسيح أخيراً (زك١١:١٣) كما احتقر المدعوون إلى العرس الدعوة ورفضوها (مت٢٢:٥) وهكذا نجد الإنسان دائماً يستهين بأمور الله. فهو لا يبالي إلا بالحاضر، وطبخة عدس عنده أفضل من ميراث كنعان بجملته. إن السبب الذي أبداه عيسو واحتقر بموجبه البكورية هو عين السبب الذي كان يجب أن يبني عليه زيادة حرصه على تلك البكورية. لأني متى تأكدت بطل الحاضر، عليّ أن ازداد تمسكاً بالمستقبل. وهذا هو حكم ونظر الإيمان «فبما أن هذه كلها تنحل أي أناس يجب أن تكونوا أنتم في سيرة مقدسة وتقوى منتظرين وطالبين سرعة مجيء يوم الرب الذي به تنحل السماوات ملتهبة والعناصر محترقة تذوب. ولكننا بحسب وعده ننتظر سموات جديدة وأرضاً جديدة يسكن فيها البر» (٢بط٣:١١-١٣) هذه هي أفكار الله، من أجل ذلك هي أيضاً أفكار المؤمن. إن هذه كلها تنحل فماذا إذن؟ أتحتقر الأمور غير المنظورة أيضاً؟ حاشا وكلا لأنه إذا كان الحاضر سريع الزوال فماذا بقى علينا نحن إلا أن نكون «منتظرين وطالبين سرعة مجيء يوم الرب» هذا هو حكم الذهن المتجدد. ومن يحكم غير هذا الحكم كان «مستبيحاً كعيسو الذي لأجل أكلة واحدة باع بكوريته» (عب١٢:١٦) الرب يعطينا نعمة ليكون حكمنا من حكمه، ولكن هذا إنما يتم بواسطة الإيمان.

الأصحاح السادس والعشرون

يرجع العدد الأول من هذا الفصل بنا إلى الأصحاح الثاني عشر.

«وكان في الأرض جوع غير الجوع الأول الذي كان في أيام إبراهيم» (١:٢٦).

وهنا نرى أن التجارب التي تصادف شعب الله في حياتهم متشابهة جداً. والغرض منها دائماً امتحان قلب الإنسان ليُظهِر إن كانت كل ينابيعه في الله. إن السير في حالة شركة مستمرة لذيذة مع الله بدون اعتماد على شيء من المنظور ولا على أي أحد من المخلوقات أمر صعب جداً وبعيد المنال. والأمور التي تشبه مصر في أيام إبراهيم وجرار في أيام إسحاق والمحيطة بنا من كل ناحية فيها لنا تجربة شديدة بحيث أنها أحياناً كثيرة إما أن تضلنا عن الطريق الصحيح أو تعاكسنا فنقصر في إدراك حقيقة مركزنا كخدام الله الحي الحقيقي وحده.

«فذهب اسحاق إلى أبيمالك ملك الفلسطينيين إلى جرار» (١:٢٦).

على أنه يوجد فرق ظاهر بين مصر وجرار، فمصر تشير إلى العالم في إعتماده على مصادره الطبيعية والبعد عن الله وعدم الاعتماد عليه. «نهري لي» هذه كانت لغة المصريين الذين لا يعرفون الرب ولا ينتظرون منه شيئاً. ثم إن موقع مصر جغرافياً أبعد من جرار إلى كنعان ولذلك فإن معناه الأدبي زيادة بُعد النفس عن الله، أما جرار فقد ورد عنها في أصحاح ١٩:١٠ «وكانت تخوم الكنعاني من صيدون حينما تجيء نحو جرار إلى غزة وحينما تجيء نحو سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم إلى لاشع» ويقال أيضاً إن المسافة من جرار إلى أورشليم مسير ثلاثة أيام. إذن موقع جرار بالمقابلة مع مصر أفضل أدبياً بكثير ولو أن تأثيرها سيء على كل حال. فإبراهيم وقع في جرار، وكذلك اسحاق كما نقرأ في هذا الفصل. وسقوطه لا يختلف عن سقوط إبراهيم. لأن إبراهيم أنكر امرأته وكذلك اسحاق. وهي ملحوظة مهمة. فالآب وابنه كلاهما سقطا في حفرة

واحدة من الشر وهذا يبرهن لنا أن تأثير ذلك المكان لم يكن صالحاً.

على أنه لو لم يكن اسحاق ذهب إلى أبيمالك ملك الفلسطينيين لَمَا اضطر أن ينكر امرأته، هكذا نجد أن الابتعاد ولو قليلاً عن طريق السلوك المستقيم ينشيء ضعفاً روحياً. فبطرس لما وقف ليصطلي عند النار في دار رئيس الكهنة أنكر سيده. وهوذا اسحاق في جرار لا يجد راحته ولا سعادته. نعم إن الرب قال له «تغرب في هذه الأرض». ولكن حدث كثيراً أن الرب كان يأمر شعبه بما يعلم أنه يناسب حالتهم الأدبية الراهنة ويريد في الوقت نفسه أن يشعرهم بحقيقة حالتهم هذه! فقد أمر موسى مثلاً (سفر العدد ١٣) أن يرسل رجالاً ليتجسسوا أرض كنعان. ولكن لو لم تكن حالة بني إسرائيل منحطة أدبياً حينئذ لم يكن ثم داع لإعطاء أوامر كهذه لأننا نعلم أن الإيمان لا يحتاج إلى «التجسس» مادام الله قد وعد. كذلك نقرأ عن موسى أن الرب أمره أن يختار سبعين شيخاً لمساعدته في العمل مع أنه لو كان يعرف مقامه وامتيازه لما احتاج إلى أمر كهذا. وأيضاً في ١ صموئيل ٨ بالنظر إلى إقامة ملك على إسرائيل نعرف أنه ما كان هناك اضطرار لإقامة ذلك الملك. ومن هذا نستنتج أنه ينبغي ملاحظة حال الشخص أو الجماعة التي يعطي لها الأوامر لكي نستطيع أن نحكم حكماً صائباً من جهة أسباب تلك الأوامر.

ولكن ربما يسأل البعض كيف نحكم أن إقامة اسحاق في جرار كانت في غير محلها مع أننا نقرأ

«وزرع اسحاق في تلك الأرض فأصاب في تلك السنة مئة ضعف وباركه الرب» (١٢:٢٦).

أما الجواب على هذا السؤال فهو أن نجاح الشخص مادياً لا يؤخذ حجة على استقامة ذلك الإنسان وصحة المركز الذي يشغله ولا يسوغ أن نبني عليه حكماً، وسبق لنا القول قبل الآن إنه يوجد فرق بين حضور الرب وبركة الرب ويوجد كثيرون يتمتعون ببركته دون أن يتمتعوا بحضوره وفضلاً عن ذلك فإن أقرب شيء للقلب أن يقع في خطأ الالتباس بين الأمرين فيحسب أن البركة تستلزم الثانية ولكنها غلطة كبيرة. إذ كم من الناس الذين حولنا ونحن نشاهدهم بأعيننا مغمورين ببركات الله ومع كل ذلك لا هم متمتعون بمحضر الرب ولا يميلون إلى ذلك. ويجب أن نميز الفرق، فقد يتعاظم الرجل ويتزايد في التعاظم حتى يصير عظيماً جداً وله مواش من الغنم ومواش من البقر وعبيد كثيرون (ع١٣)، ومع كل ذلك لا يتمتع بلذة وفرح وجود الرب معه، لأن الغنم والبقر ليست هي الرب بل هي أشياء يتولد بسببها حسد الفلسطينيين، أما التمتع بالرب فلا يوجد من بينهم من كان يحسده عليه. ولو كانت شركته قويت وتعاظمت وزادت في التعاظم مع الرب لما خطر في بال أحد من الفلسطينيين أن يحسده على ذلك لأنه لم تكن لهم قلوب تدرك ذلك أو تقدّر حقيقة الأمر، فالغنم والبقر والعبيد وآبار المياه لها قيمة عندهم أما محضر الرب فلا.

وأخيراً اضطر اسحاق أن يرحل من جرار ويفارق الفلسطينيين وأقام في بئر سبع (ع ٢٣)

«فظهر له الرب في تلك الليلة وقال أنا إله إبراهيم أبيك. لا تخف لأني معك وأباركك وأكثر نسلك من أجل إبراهيم عبدي» (٢٦: ٢٤).

ولاحظ هنا أن الرب نفسه مع اسحاق لا بركاته فقط، ولماذا؟ لأن اسحاق كان قد فارق الفلسطينيين وحسدهم وخصامهم ونزاعهم وصعد إلى بئر سبع، حيث يستطيع الرب أن يعلن ذاته لعبده. نعم إن الرب يمكنه أن يباركه ويغمره بالبركات أثناء تغربه في جرار ولكنه ما كان يستطيع أن يتمتع بشخصه هناك. ولكي نتمتع بوجود الرب معنا يجب أن نكون معه حيث هو، ولا شك أنه هو لا يوجد في أماكن الخصام والنزاع العالمي، وخير جداً لأولاد الله أن يخرجوا من تلك المحلات ويبتعدوا عن هذا كله، وهذا ما اختبره اسحاق بنفسه. فإنه لما كان وسط الفلسطينيين لم يجد لنفسه راحة، كما أنه لم يخدمهم في شيء أثناء تغربه وسطهم. ومن الخطأ المبين أن نتوهم أننا نخدم أهل العالم في شيء بمجرد مخالطتهم ومجاراتهم في طرقهم أو في اجتماعاتهم. أما طريق الخدمة الصحيحة النافعة ففي الانفصال عنهم بقوة الشركة مع الله وهكذا نضع أمامهم مثلاً أفضل ونوراً ساطعاً.

وليلاحظ القارئ التقدم الظاهر الذي نشأ من خطة الانفصال في نفس اسحاق أدبياً، إذ نقرأ أولاً «أنه صعد من هناك» ثم «ظهر له الرب» ثم «بنى مذبحاً» ثم «دعا باسم الرب» ثم «نصب خيمته» وأخيراً «حفر هناك عبيد اسحاق بئراً» ويا له من تقدم مبارك. وبمجرد ما خطا خطوة في سبيل الحق ابتدأ يسير من قوة إلى قوة فتمتع بالشركة مع الرب، ثم ذاق لذة السجود الحقيقي ثم برهن عملياً على أنه غريب ونزيل هنا على الأرض وأخيراً وجد ينبوعاً صافياً لا ينازعه فيه منازع فيما بعد ولا يمكن للفلسطينيين أن يطموه أو يملأوه تراباً لأن أيديهم لا تصل إلى هناك.

هذه كلها نتائج عادت فائدتها على نفس اسحاق. والآن لاحظ ما حصده غيره من ثمار هذه الخطة

«وذهب إليه من جرار أبيمالك وأحزات من أصحابه وفيكول رئيس جيشه. فقال لهم اسحاق ما بالكم أتيتم إليّ وأنتم قد أبغضتموني وصرفتموني من عندكم. فقالوا إننا قد رأينا أن الرب كان معك فقلنا ليكن بيننا حلف. بيننا وبينك» (٢٦: ٢٦-٢٨).

ويتضح من هذه الأقوال أن الطريق الصحيح للتأثير على قلوب وضمائر أهل العالم إنما في الانفصال التام عنهم مع معاملتهم بالنعمة لأنه مادام اسحاق كان ساكناً في جرار فلابد من الخصام والنزاع، فما جنى لنفسه سوى الحزن بدون أن ينتفع منه أحد ممن حوله بشيء ولكن من الجهة الأخرى بمجرد ما فارقهم تأثرت قلوبهم فاقتفوا أثره وأرادوا أن يعقدوا معه عهداً. وفي هذا تعليم نافع

لنا. بل إن المبدأ الذي نشاهده هنا يتكرر وقوعه كل حين في تواريخ حياة جميع أولاد الله، وأهم شيء يجب أن ننتبه إليه داخل قلوبنا هو مركزنا أمام الله بمعنى أننا لا نكون فقط حاصلين على بركات الله بل متمتعين بالشركة مع الله، أي يكون حال النفس أدبياً كاملاً لدى الله ومتى كان القلب مستقيماً لدى الله فننتظر أن تكون معاملاته مستقيمة مع الناس. وحالما صعد اسحاق إلى بئر سبع وأخذ مركزه كساجد ابتهجت روحه واستعمله الله لخدمة الآخرين أما إذا رضينا بالانحطاط فإننا نحرم نفوسنا لذة البركة ونقصر كثيراً في تأدية الشهادة أو الخدمة.

ومتى كان مركزنا بعيداً عن الصواب فلا ينبغي لنا أن نفكر في كيف نتمتع بما هو أفضل، لأن الله يأمرنا أن نكون «كارهين الشر» أولاً وحينئذ نبتدئ أن نكون «ملتصقين بالخير» (رو١٢:٩) أما إذا قصدنا أن نلتصق بالخير قبل أن نكره الشر فهو خطأ فاضح «استيقظ أيها النائم وقم من الأموات» أولاً ثم ماذا تكون النتيجة؟ «فيضيء لك المسيح» (أف٥:١٤).

أيها القارئ الحبيب إذا كنت ملتصقاً بما تعلم أنه شر أو إذا كنت بأي وجه من الوجوه متبعاً ما يخالف نص كلمة الله فاسمع ما يقول لك الرب أولاً «كارهين الشر» وثق أنك متى أطعت هذه الوصية لا تبقى فيما بعد في الظلام. إن عدم الإيمان وحده هو الذي يقول «لا أستطيع أن أكره الشر إلا إذا وجدت الخير الذي ينبغي أن التصق به أولاً» ولكن الرب قادر أن يعطينا عيناً بسيطة وروح الخضوع ليكون الجسد كله نيراً.

الأصحاح السابع والعشرون

إن الأصحاحات من السابع والعشرين إلى الخامس والثلاثين تتضمن تاريخ حياة يعقوب أو على الأقل المشاهد الرئيسية في تاريخه. وفيها يقدم لنا روح الله تعاليم سامية جداً : أولاً من جهة مقاصد الله بالنعمة التي لا حد لها. وثانياً من جهة عدم نفع الطبيعة الإنسانية وعجزها الكامل.

في الأصحاح الخامس والعشرين توجد جملة تعمدت المرور عليها دون تعليق ، وقد أرجأت شرحها للآن لكي تكون سيرة يعقوب كاملة أمامنا.

«وصلّى اسحاق إلى الرب لأجل امرأته لأنها كانت عاقراً. فاستجاب له الرب فحبلت رفقة امرأته وتزاحم الولدان في بطنها. فقالت إن كان هكذا فلماذا أنا. فمضت لتسأل الرب فقال لها الرب في بطنك أمتان. ومن أحشائك يفترق شعبان. شعب يقوى على شعب. وكبير يُستعبد لصغير» (٢٥: ٢١-٢٣).

وفي نبوة ملاخي إشارة إلى هذا القول حيث نقرأ « أحببتكم قال الرب. وقلتم بم أحببتنا ؟ أليس عيسو أخاً ليعقوب يقول الرب وأحببت يعقوب وأبغضت عيسو » والرسول بولس في رومية ٩ يعود إلى الاستشهاد بهذا القول إذ يكتب « لأنه وهما لم يولدا بعد ولا فعلا خيراً أو شراً لكي يثبت قصد الله حسب الاختيار ليس من الأعمال بل من الذي يدعو. قيل لها إن الكبير يُستعبد للصغير. كما هو مكتوب أحببت يعقوب وأبغضت عيسو ».

وفي هذه الآيات الصريحة نقرأ عن قصد الله الأزلي حسب اختيار النعمة. هذا قول موجز ولكنه يتضمن معاني كثيرة. وأول ما نفهمه منها أنه ينفي كل ادعاء بشري ويثبت سلطان الله المطلق ليتصرف كما يشاء، وهذه المسألة لها اعتبار وأهمية كبرى. فالمخلوق لا يحق له أن يتمتع بأدنى بركة صحيحة إلا إذا أحنى رأسه أمام سلطان الله المطلق بالنعمة. وهذا ما يليق به كخاطئ عاص لا يوجد له أدنى حق أمام الله لا للعمل ولا للمناقشة. وأهمية هذا المبدأ أن الإنسان بواسطته

يفهم حقيقة مركزه فلا تصبح المسألة أمامه مسألة حقوق له بل قصد الله بالنعمة ومحض مشيئته أن يعطي. مثل الابن الضال الذي وإن رجا أن يكون عبداً لكنه لم يكن مستحقاً أن يدعى عبداً لو كانت المسألة مسألة استحقاق. ولذلك كان عليه أن يقبل المركز الذي وضعه الآب فيه، وهو أعظم مركز في البيت بل مركز الشركة مع الآب نفسه. وهكذا في كل حين. وطوبى لنا لأننا وُضعنا في هذا المركز نفسه. فكلما تقدمنا في السير من يوم إلى يوم واختبرنا في أنفسنا الضعف وأنسنا في ذواتنا العجز ازداد شعورنا بالحاجة إلى أن تقف أقدامنا على أساس نعمة الله المطلقة الغنية. ولا شيء يحفظنا من السقوط ويثبت أقدامنا متى عرفنا أنفسنا مثل هذا الحق المبارك. إن خرابنا بلا حد فيجب أن تكون النعمة بلا حد أيضاً، وهي كذلك لأن الله نفسه مصدرها والمسيح واسطة وصولها إلينا والروح القدس قوة تطبيقها والتمتع بها عملياً. فالثالوث الأقدس قد أعلن بالعلاقة مع النعمة التي تخلص الخاطئ المسكين وهكذا «تملك النعمة بالبر للحياة الأبدية بيسوع المسيح ربنا» (رو٥:٢١) ولا يمكن رؤية ملك النعمة إلا بواسطة الفداء. نعم إنه في الخليقة يمكن معاينة ملك حكمة وقوة الله، وفي عنايته الحاضرة بالخليقة يمكن لنا معاينة صلاح الله وطول أناته أما ملك النعمة فغير ممكن معاينته سوى في الفداء الذي على مبدأ البر.

وفي تاريخ حياة يعقوب أمامنا مثال عجيب لقوة نعمة الله أمام قوة الطبيعة البشرية لأننا نشاهد الطبيعة فيه بكل عيوبها لذلك تنكشف لنا النعمة بواسطته في بهائها وقوتها. وسواء نظرنا إلى وقائع تاريخية قبل ولادته أو عند ولادته أو بعد ولادته فإن الطبيعة ظاهرة بشدتها الفائقة. فقبل الولادة نقرأ عنه أنه «تزاحم الولدان في بطنها» وعند الولادة نقرأ أن «يده قابضة بعقب عيسو» وبعد الولادة نرى في حياته لغاية الأصحاح الثاني والثلاثين (وهو نقطة الانقلاب في حياته) أردأ صفات الطبيعة بدون استثناء. ولكن هذا مما يعظم غنى نعمة ذاك الذي من تنازله يدعو نفسه «إله يعقوب» (مز٤٦:٧..الخ) وهو لقب يبين اتساع النعمة المجانية.

والآن نريد أن نستقصي تاريخ يعقوب بالتتابع فالأصحاح السابع والعشرون يمثل لنا الشراهة والخداع والمكر بأقبح صورها بشكل محزن ومخجل. وعندما يفكر الإنسان في أشياء كهذه بالعلاقة مع شعب الله يتألم ويحزن للغاية. ولكن الروح القدس صادق وأمين، ولابد أن يقرر الحقائق على علاتها فإذا قدّم تاريخ حياة إنسان فلا يقدم لنا تاريخاً ناقصاً بل يصف لنا الرجل كما هو بصورته الحقيقية بدون تعديل.

وهكذا متى قصد الروح القدس أن يصف لنا الله ومعاملاته وطرقه فهو يصفه بحسب حقيقته. ولا حاجة لنا أن نقول إن هذا هو نفس ما نحتاجه، إذ يلزم لنا إعلان الله كاملاً في القداسة وكاملاً

في النعمة والرحمة حتى يستطيع أن يتنازل إلى أعماق شر الإنسان وسقوطه وشقائه فيرثي لحالته ويقيمه من سقطته ويجعل له معه شركة، في ملء ذاته وحقيقة ما هو عليه. وهذا هو نفس ما تعرضه علينا الكتب المقدسة. لأن الله يعرف ما نحتاجه وتبارك اسمه قد سدد كل أعوازنا.

وعلى القارئ أن يتذكر أنه متى أعلن الله لنا بملء المحبة صفات الإنسان بصورتها الصحيحة فإنما يقصد بذلك أن يعظم غنى نعمته الإلهية، فتذلل نفوسنا قدامه. ليس المعنى أنه يقصد أن يعيد على مسامعنا ذكرى الخطايا التي محاها إلى الأبد وطرحها في بحر النسيان من أمام وجهه. فإن عيوب وزلات وغلطات إبراهيم واسحاق ويعقوب قد سُترت ومُحيت إلى الأبد فأصبحوا في عداد «أرواح أبرار مكملين» (عب١٢:٢٣) ولكن تاريخهم يبقى مسطوراً على صفحات الوحي لإظهار نعمة الله من جهة. وإنذار شعب الله في كل العصور من جهة أخرى، ولكي نعلم أيضاً ونرى بكل وضوح أن الله لم يختر أشخاصاً (رجالاً أم نساء) كاملين بل «تحت الآلام مثلنا» محتملاً ضعفاتهم وزلاتهم وسقطاتهم وهو سائر معهم، كما هو سائر معنا الآن.

وفي هذا تعزية قوية لقلوبنا. أما البشر فعندما يكتبون تواريخ الناس فأغلبهم لا يدون تواريخ بشر بل كائنات معصومة من الغلط والضعف ولكن كتابات كهذه لا تعود بالفائدة ولا تبني بل بالعكس تهدم وتورث الفشل. وهي بالحري تاريخ ما يجب أن يكون الإنسان عليه لا ما هو عليه فعلاً، فهي إذن بلا منفعة بل مضرة.

ولا شيء يبني إلا إعلان حقيقة الإنسان ومعاملات الله معه بالمحبة، وهذا ما تفعله الكلمة. والفصل المطروح أمامنا مثال لإيضاح غرضنا. فاسحاق الشيخ كان في أخريات حياته واقفاً عند باب الأبدية يودع العالم والطبيعة ومع ذلك تاقت نفسه إلى الأطعمة الفاخرة وكان مزمعاً بسبب شهوته هذه أن يعمل ضد مشورات الله ومقاصده الإلهية فيبارك الابن الأكبر بدلاً عن الأصغر الموعود بالبركة. ولا ريب أن هذه كلها صفات وأعمال الطبيعة، الطبيعة التي «كلت عيناها عن النظر» وإذا كان عيسو باع بكوريته بطبخة عدس فهوذا اسحاق كان مزمعاً أن يبيع البركة بأكلة صيد. ويا له من أمر مخجل!

ولكن الله لابد أن يتمم مقاصده، فمشورته هي التي تثبت ومسرته لابد أن تنجح. والإيمان يتأكد ذلك وبقوة ذلك اليقين ينتظر، أما الطبيعة فلا تعرف ذلك فتسعى لنوال غاياتها بمساعيها الذاتية. وهنا يتضح لنا أمران عظيمان ظهرا في تاريخ حياة يعقوب - وهما قصد الله بالنعمة من الجهة الواحدة، ومن الجهة الأخرى سعى الإنسان لتحقيق ذلك القصد بطرق ووسائط ليست بحسب الله، ولكن الله في غنى عنها حينما يريد إتمام ذلك القصد. وإذا فهمنا هذين الأمرين ينجلي لدينا

تاريخ حياة يعقوب، بل نجد في سرده لذة لنفوسنا إذ ربما لا يعوزنا شيء مثل الثقة الكاملة في نعمة الله الثقة المقترنة بالصبر. فالطبيعة تحاول أن تعمل بأية صورة كانت، وفي سعيها هذا تكون حجر عثرة في سبيل إتمام مقاصد نعمة الله وقوته. إن الله لم يكن محتاجاً إلى مكر رفقة ولا إلى خداع يعقوب لإنقاذ مقاصده. فقد قال «وكبير يُستعبَد لصغير» وفي هذا الكفاية للمؤمن لا للإنسان الطبيعي الذي يميل إلى السير بحسب أهوائه، فلا يعرف معنى لانتظار الله.

على أنه لا يوجد أشهى من مركز الاعتماد بالبساطة على الله. اعتماد الطفل على أبيه، وانتظار الحين المناسب. نعم إن ذلك يستلزم امتحاناً ولكن الذهن المتجدد يتعلم ويستفيد ويتلذذ في أثناء صبره وانتظاره.وكلما ازدادت وقويت التجربة التي تحاول افلاتنا من بين يديه كلما قويت ثقتنا فيه وازداد تمسكنا به وتعلمنا طرح أنفسنا عليه أكثر. وما ألذ الاعتماد على من يجد لذته في مباركتنا. وطوبى للنفس التي اختبرت غبطة هذا المركز وذاقت قيمة حلاوته. أما الرب يسوع فهو وحده الذي كانت له شركة تامة في هذا الأمر فقد وثق في الله بدون انقطاع وأبى أن ينخدع بتجربة العدو مهما كانت قوتها. فلغته كانت كل حين «رجائي فيك هو» (مز ٣٩:٧) وأيضاً «عليك أُلقيت من الرحم» (مز ٢٢:١٠) لذلك عندما جربه إبليس لكي يسعى في إشباع جوعه كان جوابه «مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله» (مت٤:٤) ولما حاول أن يجربه بأن يلقي بنفسه إلى الأرض من فوق جناح الهيكل كان جوابه «مكتوب أيضاً لا تجرب الرب إلهك» وحين جربه لكي يأخذ ممالك الأرض من غير الله إذا سجد لآخر كان جوابه «مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد» (مت٤:١٠) وبالاختصار فالتجربة لم يكن لها موضع فيه لأن ثقته في الله كانت كاملة إذ أخذ مركز الطاعة المطلقة لله. نعم إن الله قصد أن يكون سنداً وعضداً لابنه. وقصد أن يعطيه جميع ممالك العالم ولكن بسبب ذلك كان ينبغي للرب يسوع المسيح أن ينتظر الله ويصبر إلى أن يأتي الوقت المعين فيتمم الله مقاصده في حينها بحسب فكره. ومن أجل ذلك لم يشرع الرب يسوع في أن ينال مأربه بمساع بشرية. حاشا بل سلّم أموره إلى الله. فما كان ليأكل إلا إذا أمره الله ولا كان يدخل الهيكل إلا متى جاء الوقت المعين من الله ولا كان ليتبوأ عرشه إلا متى حان الأجل المرتب منه «اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك» (مز١١٠:١).

إن خضوع الابن لمشيئة الآب بهذه الصورة لما يدهش الألباب فوق حد التصور. لأنه وإن كان لم يَحسب خُلسة أن يكون معادلاً لله لكنه إذ أخذ صورة إنسان أخذ مقام الطاعة فأصبحت مسرته أن يصنع مشيئة الله الآب. شاكراً حتى في الظروف التي ظهرت كأنها ضده. صانعاً في كل حين ما

يرضي الآب، واضعاً نصب عينيه دائماً مجد الآب كغرضه الوحيد وأخيراً بعد ما أكمل عمل الفداء الذي كان الآب قد أعطاه أن يعمله استودع روحه في يدي الآب وجسده سكن مطمئناً على رجاء أن الآب سيمجّده ويرفّعه أيضاً كما وعده. من ثم لاق بالرسول أن يقول بالوحي «فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع أيضاً الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خُلسة أن يكون معادلاً لله لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد صائراً في شبه الناس وإذ وجد في الهيئة كإنسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب لذلك رفّعه الله أيضاً وأعطاه اسماً فوق كل اسم لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب» (في٢:٥-١١).

أما يعقوب فلم يعرف عن هذا الفكر في بداية حياته إلا القليل جداً لذلك لم يفهم معنى انتظار الله حتى يحين الوقت المناسب حسب أفكاره فأخذ يشتغل بحسب أفكاره. وفي الوقت الذي ظنه هو مناسباً. فعمد إلى كل أنواع الحيل والخداع لأجل الحصول على البركة والميراث بدلاً من الخضوع لمشيئة الله والاعتماد على الله الذي بنعمته قد وعد، وبقدرته وحكمته يضمن تحقيق كل شيء لعبده.

ولكننا نعلم واأسفاه خداع القلب البشري ومقاومته لكل ذلك. فهو لا يدرك للصبر معنى ولا يعرف للانتظار ميزة. وإذا حرمته من كل الوسائط المنظورة فلم يبق أمامه سوي الله متكلاً فإنك لا تجد لاضطرابه حداً. وفي ذلك وصف صريح لحقيقة الطبيعة البشرية ناطق بأفصح بيان. إن الوقوف على حقيقة ماهية طبيعة الإنسان لا يستلزم مشاهدة ما ترتكبه من الرذائل والفظائع التي ترتعد لها الفرائص وتصطك لها الركب، بل يكفي أن تمتحنها بوضعها في مركز الطاعة والاعتماد على الله ولو برهة قصيرة من الزمان وحينئذ تبصر شدة القلق الذي يستولي عليها. فهي لا تعرف الله، ولذلك لا تستطيع الاعتماد عليه في شيء ما. وهذا هو سر شقاء الإنسان وتعاسته وانحطاطه الأدبي. فهو يجهل الله الحقيقي جهلاً تاماً والإنسان بدون الله لا قيمة له بالمرة. إن معرفة الله هي مصدر الحياة بل الحياة نفسها، وما هو الإنسان بدون حياة أو ما فائدة وجوده بدون معرفته الله؟

وفي حالة رفقة ويعقوب نجد الإنسان الطبيعي يغتنم فرصة الطبيعة في اسحاق وعيسو. هذه هي حقيقة المسألة. فلم يصبرا لله بل إذ رأيا أن اسحاق قد كلّت عيناه عن النظر قصدا أن يخدعاه، فأخذا في تدبير الحيل عوضاً عن انتظار الله الذي كان في قدرته أن يحبط فكر اسحاق الذي ظن أن يبارك من لم يباركه الله، وفكره هذا إنما كان مؤسساً على الطبيعة في أدنى درجاتها لأن «اسحاق

أحب عيسو» ليس لأنه كان البكر، بل «لأن في فمه صيداً» وما أحط هذا الفكر!

علينا أن نتذكر في ساعة التجربة أن ما نحتاج إليه، ليس تغيير الظروف، بل النصرة على الذات. ونحن إذا أخذنا مسئولية تدبير أمورنا على عاتقنا فسلبنا زمام مسائلنا وظروفنا من يدي الله فإنما نضر أنفسنا ونتعب. وهذا نفس ما أصاب يعقوب كما سيتضح لنا ذلك متى تقدمنا في درس تاريخ حياته. وقد أجاد بعضهم في وصف تاريخ يعقوب بعد نواله بركة أبيه بالحيلة إذ قال : إن حياته أصبحت حياة أحزان وأتعاب، فقد كشّر له الدهر عن أنيابه وأخوه نفسه قصد أن يغتاله بالقتل حتى اضطر لكي ينجو من يده أن يهجر بيت أبيه وأمه. بل حتى لابان خاله خدعه مثل ما خدع هو أباه أولاً، فنال جزاء ما صنع. وبعدما خدمه واحداً وعشرين سنة فارقه. وهو لا يزال يحسب لغضب أخيه عيسو ألف حساب متوقعاً منه القتل. ولما أمن غضبه عاد فوقع في شر رأوبين الذي نجّس مضجعه. وبعد ذلك نراه حزيناً لخيانة وقساوة ولديه شمعون ولاوي بسبب ما صنعاه مع بيت شكيم. ثم نقرأ عما أصابه من الحزن بسبب انتقال زوجته المحبوبة لديه وعن خداع أولاده له حين أوهموه أن ابنه يوسف قد افترسه وحش رديء. ولكي يكمل مكيال مصائبه حدث ذلك الجوع في آخر حياته فاضطر أن يسافر إلى مصر وهناك مات. حقاً ما أحكم وما أغرب بل ما أعدل معاملات الله!

هذا هو إجمال تاريخ يعقوب ولكنه ليس كل الحق بل هو الحق من وجه واحد أي باعتبار شخص يعقوب وهو الوجه المظلم أما باعتبار إله يعقوب فالحق له وجه آخر جميل. ففي كل دور من أدوار حياة يعقوب وإن كان ينبغي له أن يجني ثمر خيانته وخبثه إلى أن الله تبارك اسمه كان من الجهة الأخرى يحول شره إلى خير متفاضلاً بالنعمة الواسعة التي ازدادت فوق خطية يعقوب وتفاضلت على غباوة وجهالة عبده المسكين. ونشاهد هذا بكل وضوح كلما تقدمنا في درس تاريخ حياته.

على أني أريد أن أقدم هنا بعض ملاحظات من جهة اسحاق ورفقة وعيسو. أما اسحاق فبالرغم عن ضعف طبيعته الواضح في الأعداد الأولى من الأصحاح السابع والعشرين هذا فإننا نجده بالإيمان حافظاً مركزه المعطى له من الله فيبارك وهو شاعر بالقوة التي تأيد بها لإعطاء تلك البركة، وعالم بما يصنع إذ يقول

«باركته نعم ويكون مباركاً .. إني قد جعلته سيداً لك ودفعت إليه جميع إخوته عبيداً وعضدته بحنطة وخمر. فماذا أصنع لك يا ابني» (٢٧: ٣٣، ٣٧).

فيتكلم كمن له بالإيمان تحت سلطانه جميع كنوز الأرض فلا يتظاهر بالتواضع الفارغ ولا يتدانى بسبب ضعف الطبيعة الذي ظهر منه. نعم إنه أوشك أن يرتكب خطأ جسيماً محزناً إذ قصد

أن يعكس مقاصد الله ومشوراته إلا أنه عرف الله بعدئذ فأخذ يبارك بكل جراءة وثقة الإيمان «باركته نعم ويكون مباركاً» «عضدته بحنطة وخمر» إن قوة الإيمان تنتشل الإنسان من مركز ضعفه بل ترفعه فوق ظروف ضعفه ونتائجها وتضعه في مركز نعمة الله.

أما رفقة فكان لابد لها من الشعور بنتائج أعمالها الخدّاعة. لا شك أنها كانت تحسب نفسها قادرة على تدبير المسائل المعضلة بحكمتها وذكائها ولكنها واأسفاه جلبت على نفسها حسرة فراق يعقوب الذي لن تعد تراه فيما بعد. وهذا كله بسبب تداخلها مع أنها لو كانت قد سلمت المسألة في يدي الله بالتمام لما حدث شيء من ذلك مطلقاً. والإيمان يسلك هذا المسلك ولا يخسر شيئاً «من منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعاً واحدة» (لو١٢:٢٥) فالقلق والاهتمام والتدبير لا يفيدنا شيئاً لا بل ويحول نظرنا عن الله وهذه هي الخسارة الكبرى. فإذا سمحت لنا عناية الله أن نحصد مرارة مشغوليتنا وثمر تدبيراتنا فهذا هو عين العدل. وأنا لا أعرف عن أمر يحزن القلب نظير نسيان أولاد الله مركزهم الحقيقي وامتيازهم الصحيح حين يأخذون على عواتقهم أمر تدبير أحوالهم والاهتمام بمصالحهم مع أن طيور السماء وزنابق الحقل تعلمنا أن لا ننسى هذا الامتياز الجميل ألا وهو الاعتماد على الله.

أما من جهة عيسو فإن الرسول يدعوه مستبيحاً «الذي لأجل أكلة واحدة باع بكوريته» ثم يقول لنا «إنه أيضاً بعد ذلك لما أراد أن يرث البركة رفض إذ لم يجد للتوبة مكاناً مع أنه طلبها بدموع» (عب١٢:١٧) ومن هذا نتعلم وصف الإنسان المستبيح أي الذي يحاول أن تكون له الدنيا والآخرة معاً. ومع أنه يبيع آخرته بدنياه فهو يحسب أن تمتعه بالوقت الحاضر لا يسبب له خسارة من مستقبله الأبدي. ويا له من خطأ مبين وقع فيه الكثيرون فإن هذا هو وصف العالميين المعترفين بالمسيح بالاسم الذين لم يصل الحق الإلهي إلى أعماق ضمائرهم ولا شعرت قلوبهم بتأثير نعمة الله.

الأصحاح الثامن والعشرون

والآن علينا أن نقتفي أثر يعقوب من بداية خروجه من تحت سقف بيت أبيه ونتتبعه كسائح وغريب على أرض لا دار له فيها ولا قرار حيث نرى بداية معاملات الله الخصوصية مع عبده. وأول شيء نلاحظه أن يعقوب بدأ يتحقق على نوع ما نتيجة تصرفه مع عيسو ويحصد مرارة ما زرع، ولكن الله من الجهة الأخرى كان متفاضلاً فوق ضعف وغباوة عبده يعقوب، مظهراً له غنى نعمته المطلقة وحكمته البالغة في جميع معاملاته معه. فإن الله لابد وأن ينفذ مقاصده مهما كانت الواسطة، ولكن إذا كان أحد أولاده بسبب قلق نفسه وعدم الإيمان في قلبه يحاول التملص من يده والاعتماد على ذاته فلن يحصد سوي الحزن والتأديب. وهذا ما حدث مع يعقوب الذي لو أنه ترك أمره لله لَمَا اضطر لأن يهرب ويلتجئ إلى حاران، بل كان الله أجرى في عيسو مقاصده ووضعه في مركزه المعين له، وكان يعقوب تمتع بذلك السلام الحلو الذي لا يملك على القلب إلا متى خضعنا في كل شيء ليدي الله ومشوراته.

ولكن ضعف قلوبنا الزائد ينكشف في ظروف كهذه. وسببه عدم التسليم له فنحن دائماً نريد أن نعمل شيئاً وبعملنا هذا نحن نعطِّل عمل نعمة الله وقوته فينا «كفوا واعلموا أني أنا الله» (مز ٤٦: ١٠) هذه نصيحة لا يستطيع أن يخضع لها إلا القلب العاملة فيه نعمة الله بقوة «ليكن حلمكم معروفاً عند جميع الناس. الرب قريب. لا تهتموا بشيء بل في كل شيء بالصلاة والدعاء مع الشكر لتُعلم طلباتكم لدى الله» وما هي نتيجة تصرف كهذا؟ «وسلام الله الذي يفوق كل عقل يحفظ قلوبكم وأفكاركم في المسيح يسوع» (في٤: ٥-٧).

على أن الله في نعمته يسمو دائماً فوق جهالتنا وضعفنا، ومع أننا لابد وأن نجني ثمر عدم الإيمان والضجر الذي نُظهره في سلوكنا، إلا أن الله يغتنم تلك الفرصة لكي يُعلِّم قلوبنا دروساً أعمق عن غنى نعمته وكمال حكمته. ومع أن معاملات الله هذه لا تبرر خطأنا وعدم إيماننا أو

ضجرنا إلا أنها تبين صلاح الله وتعزي قلوبنا حتى ونحن نجتاز في الظروف المؤلمة التي نتجت عن فشلنا. الله فوق كل هذه الظروف، ومن حكمته أنه يُخرج من الشر خيراً ومن الآكل أكلاً ومن الجافي حلاوة. لذلك نرى أن يعقوب وإن كان قد صار طريداً وشريداً عن منزل أبيه بسبب قلقه وغشه إلا أنه من الجهة الأخرى لو كان قد بقى في بيت أبيه لمَا عرف معنى «بيت إيل» وهكذ نجد في جميع ظروف يعقوب وجهين لكل مسألة، فغباوته مثلاً كانت سبب هروبه من بيت أبيه ولكنها أيضاً كانت على نوع ما سبب اختباره بركة ومعنى «بيت الله».

«فخرج يعقوب من بئر سبع وذهب نحو حاران. وصادف مكاناً وبات هناك لأن الشمس كانت قد غابت وأخذ من حجارة المكان ووضعه تحت رأسه فاضطجع في ذلك المكان. ورأى حلماً..» (٢٨: ١٠-١٢).

وهناك نجد هذا الطريد الشريد في المكان الذي يمكن لله أن يتقابل معه فيه ويكشف له مقاصد نعمته ومجده. إذ لا يوجد ما يمثل لنا ضعف الإنسان وفقره الكامل وعجزه الكلي مثل حالة يعقوب هنا، فها هو مضطجع من شدة التعب وهو متوسد الأحجار وملتحف السماء، وهذا هو الوضع الذي فيه يتنازل إله بيت إيل ليعقوب ويعلن فيه مقاصده من جهته ومن جهة نسله أيضاً

«وإذا سُلّم منصوبة على الأرض، ورأسها يمس السماء. وهوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها. وهوذا الرب واقف عليها فقال أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله اسحاق. الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك. ويكون نسلك كتراب الأرض وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض. وها أنا معك وأحفظك حيثما تذهب وأردك إلى هذه الأرض لأني لا أتركك حتى أفعل ما كلمتك به» (٢٨: ١٢-١٥).

وهنا أمامنا «النعمة والمجد» لأن السلم كمنصوبة على الأرض تقود القلب بالطبع إلى التأمل في نعمة الله التي ظهرت في شخص وعمل يسوع المسيح ابن الله على الأرض، حيث أكمل ذلك العمل العجيب الذي هو أساس مشورات الله بالنسبة إلى اليهود والكنيسة والعالم أجمع. وهو أساس أبدي ومتين وراسخ. فعلى الأرض قد عاش الرب يسوع وتعب وأخيراً مات، وبموته أزال كل مانع كان يحول دون إتمام مقاصد الله نحو مباركة الإنسان.

على أن السلم كان رأسها واصلة إلى السماء بمعنى أن الصلة بين الأرض والسماء كانت بواسطته «وهوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها» وهي صورة كاملة في غاية الابداع والاتقان لذاك الذي به تنازل الله إلى أعماق حاجة الإنسان وعوزه وبواسطته أيضاً قد رفع الإنسان إلى المجد ليكون حيث هو إلى الأبد بقوة بر الله. وأعلن الله عن إتمام جميع مقاصده بالرغم من غباوة الإنسان وخطيته وهكذا أصبح من حق كل نفس أن تمتلئ بالسرور الأبدي عندما تدرك بالروح القدس أنها داخل

دائرة مقاصد نعمة الله.

وهوشع النبي يقودنا بالوحي إلى الزمن الذي تشير إليه سلم يعقوب فتكمل معانيه الرمزية حيث يقول في أصحاح ٢: ١٨ - ٢٣ «وأقطع لهم عهداً في ذلك اليوم مع حيوان البرية وطيور السماء ودبابات الأرض وأكسر القوس والسيف والحرب من الأرض وأجعلهم يضطجعون آمنين. وأخطبك لنفسي إلى الأبد وأخطبك لنفسي بالعدل والحق والإحسان والمراحم. أخطبك لنفسي بالأمانة فتعرفين الرب. ويكون في ذلك اليوم أني أستجيب يقول الرب. أستجيب السماوات وهي تستجيب الأرض. والأرض تستجيب القمح والمسطار والزيت وهي تستجيب يزرعيل. وأزرعها لنفسي في الأرض وأرحم لورحامة وأقول للوعمي أنت شعبي وهو يقول أنت إلهي».

وفي الأصحاح الأول من إنجيل يوحنا كلام يشير إلى رؤيا يعقوب حيث يقول المسيح مخاطباً نثنائيل «الحق الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان».

وفي هذه الرؤيا التي رآها يعقوب إعلان مجيد لنعمة الله نحو إسرائيل. وها نحن قد شاهدنا شيئاً من طباع يعقوب وعرفنا شيئاً عن حالته الحقيقية، وواضح من ذلك أن تعامل الله معه لو لم يكن من مجرد النعمة الإلهية لَمَا أمكن أن يلتفت إليه أبداً. فما كانت له حقوق من جهة أصله ولا من جهة شخصه لا قبل الولادة ولا بعد الولادة. فقد كان لعيسو أن يطالب بحقوقه من هذا القبيل، أي بصرف النظر عن مقاصد الله، أما يعقوب فلم يكن له حق شرعي في شيء ما. فعيسو كان يمكن له أن يطالب بإثبات حقوقه الشرعية بصرف النظر عن الله أما يعقوب فلم يكن له رجاء إلا في الله ومقاصده. فيعقوب كان بحسب الطبيعة خاطئاً ليس له شيء من الحقوق لا شرعية ولا فعلية وليس له سند إلا في مشورات الله بالنعمة المطلقة المجانية الكاملة الواسعة، ولذلك نرى الله في الإعلان الذي يبلغه إلى مسامع يعقوب عبده كما قرأناه في نص الوحي الذي أوردناه سابقاً لا يوجد فيه سوى ذكر الله نفسه وما هو مزمع أن يفعله بذاته إذ يقول «أنا... أعطي... أحفظ... أرد... لا أتركك حتى أفعل ما كلمتك به» فالله هو الكل بدون شرط ولا قيد فلا «إن» ولا «إذا» ولا «لكن». وما دامت المسألة مسألة نعمة فلا شيء من ذلك مطلقاً ومتى وجدت شرطاً أو استدراكاً فاعلم أن المسألة ليست نعمة. ليس المعنى أن الله لايستطيع أن يضع الإنسان تحت مسئولية فيخاطبه بـ«إذا» و«لكن». لأننا نعلم أنه مطلق السلطان. إلا أن مركز يعقوب وهو ملقى على الأرض متوسداً حجراً لا يدع مجالاً للمسئولية إذ هو عاجز وبائس ومسكين لذلك يعلن الله ذاته له كمن هو غني وقدير وجواد بالنعمة بدون شرط.

ونحن لا يسعنا إلا أن نعترف بغبطة مركز كهذا لا يوجد لنا فيه رجاء إلا في الله. فندرك حينئذ أن بركاتنا وأفراحنا إنما هي في غنى مقاصد الله وصفاته. وبناء على هذا المبدأ إذا وضعنا أنفسنا على غير هذا الأساس فخسارتنا لا تعوض إذ نضع أنفسنا على مبدأ المسئولية، ويا بئس هذا المركز بل ما أشقانا حينئذ! فيعقوب كان رديئاً إلى حد أنه لم يجد سوى الله نفسه فقط في صفه.

وليلاحظ القارئ أن سبب حزن وضيق يعقوب إنما هو عدم اعترافه عملياً بحقيقة حالته هذه. فإعلان الله ذاته لنا شيء واستنادنا نحن على ذلك الإعلان شيء آخر. فهوذا الله يتنازل لإعلان ذاته ليعقوب بالنعمة ولكن يعقوب ما لبث أن استيقظ من النوم حتى نراه يعود فيظهر لنا نفس صفاته الأولى مما يدل على أنه لم يعرف عن تلك الإعلانات المعرفة العملية إلا القليل جداً فنسى ذلك الشخص المبارك الذي أعلن ذاته له بذلك الإعلان العجيب، لذلك يقول الوحي إنه

«خاف وقال ما أرهب هذا المكان. ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء» (١٧:٢٨).

فقلبه لم يتثبت في الله، وغير ممكن للقلب أن يتثبت في الله إلا إذا انكسر وتفرغ. لأن الله تبارك اسمه يسكن مع القلب المنسحق والمنكسر. أما قلب يعقوب فلم يكن قد انكسر بعد تماماً ولا تعلّم درس الاستناد الكامل على محبة الله الكاملة من نحوه المعلنة في قوله «أحببت يعقوب»، «لأن المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج» (١يو٤:١٨)، أما الذي لم يعرف هذه المحبة ولم يتحققها تماماً فلابد وأن يوجد عنده شيء من الانزعاج والخوف ولكن النفس التي تعرف محبة الله التي بيّنها في صليب المسيح ببساطة الأطفال لا تخاف من محضر الله ولا ترهب بيت الله. بل بالحري تقول مع المرنم «يارب أحببت محل بيتك وموضع مسكن مجدك» (مز ٢٦:٨) وأيضاً «واحدة سألت من الرب وإياها ألتمس أن أسكن في بيت الرب كل أيام حياتي لكي أنظر إلى جمال الرب وأتفرس في هيكله» (مز ٢٧:٤) وأيضاً «ما أحلى مساكنك يارب الجنود تشتاق بل تتوق نفسي إلى ديار الرب» (مز ٨٤:١، ٢) ومتى تثبت القلب في معرفة الله فلا شك أنه يحب بيته مهما كان وصف ذلك البيت، سواء كان بيت إيل أو هيكل أورشليم أو كنيسة الله المؤلفة من جميع المؤمنين الحقيقيين «المبنيين معاً مسكناً لله في الروح» أما معرفة يعقوب لله ففي هذه اللحظة من تاريخ حياته قد أثبت لنا أنهاكانت سطحية جداً.

على أننا سنعود إلى ذكر بعض مبادئ تتعلق ببيت إيل هذا متى سنحت لنا الفرصة. أما الآن فإننا نختم ملاحظاتنا على هذا الفصل بملاحظة تتعلق بحديث يعقوب مع الله مما يثبت حقيقة علاقته معه وجهله صفاته، إذ قيل عنه

«ونذر يعقوب نذراً قائلاً إن كان الله معي وحفظني في هذا الطريق الذي أنا سائر فيه وأعطاني خبزاً لآكل وثياباً لألبس ورجعت بسلام إلى بيت أبي يكون الرب لي إلهاً. وهذا الحجر الذي أقمته عموداً يكون بيت الله وكل ما تعطيني فإني أعشّره لك» (٢٨: ٢٠-٢٢).

لاحظ قوله «إن كان الله معي» مع أن الرب سبق فقال له صريحاً «ها أنا معك وأحفظك حيثما تذهب وأردك إلى هذه الأرض ... الخ» ولكن قلب يعقوب المسكين لم يسع أكثر من «إن» وأفكاره عن صلاح الله وجوده لم تخرج عن حد «خبز ليأكل وثياب ليلبس» مع أن الله من إحسانه قد أعلن له منظر تلك السلم التي كانت منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء والرب نفسه واقف عليها، وعظم نعمته له وقدّم له وعداً بنسل لا يعد وبملك دائم ولكن يعقوب مع كل ذلك لم يستطع أن يدخل إلى حقيقة وكمال أفكار الله ومقاصده من نحوه لأنه كان يقيس الله على ذاته لذلك قصر إدراكه عن معرفته وبالاختصار يمكننا القول إن يعقوب لم يصل إلى نهاية ذاته لذلك لم يصل إلى بداية الله عملياً.

الأصحاحات ٢٩ ـ ٣١

«ثم رفع يعقوب رجليه وذهب إلى أرض بني المشرق» (٢٩:١).

رأينا في الأصحاح الثامن والعشرين أن يعقوب قصر إدراكه عن فهم حقيقة من هو الله، فكان يقابل نعمة الله الغنية الواسعة التي أعلنها له الله في بيت إيل بالقول «إن» ويكتفي من ملء بركات الله «بخبز ليأكل وثياب ليلبس» وسنشاهد هنا نتيجة غباوته وما حصد لنفسه. «الذي يزرعه الإنسان إياه يحصد أيضاً» هذا ما لابد منه. لأن يعقوب لم يصل إلى معرفة حقيقة نفسه في محضر الله، لذلك قصد الرب أن يستخدم الظروف لأجل تأديبه وتدريبه وإخضاعه.

وهذا هو سر أغلب بلائنا وشقائنا وحزننا في العالم لأن قلوبنا لم تنسحق أمام الرب فما حكمنا على ذواتنا ولا تفرغنا مما فينا لذلك، إن جاز التعبير، ننطح رؤوسنا في الحائط المرة بعد الأخرى. إن الإنسان لا يستطيع أن يتمتع بالله تمتعاً فعلياً إلا إذا وصل إلى نهاية ذاته عملياً ولهذا السبب نجد الله يبتدئ أن يعلن ذاته متى نكون قد وصلنا إلى معرفة حقيقة الجسد. إذن إن كنت لم أصل إلى نهاية جسدي في داخل أعماق اختبارات نفسي فلا يمكن لي أن أدرك صفات الله الأدبية إدراكاً عملياً محسوساً ولابد لي من الوصول بطريقة أو بأخرى، إلى قياس من هو أنا بحسب الطبيعة. ولأجل الوصول إلى هذا الغرض نجد الرب يستخدم وسائط وطرقاً متنوعة مهما كان نوعها ما دامت تفيد في إعلان حقيقة ما في قلوبنا لكي نعرف نحن ما فيها فيحسن إلينا في آخرتنا. وكم مرة جربنا مثل يعقوب أن صوت الرب مهما كان قريباً من آذاننا فإننا مراراً كثيرة لا ندرك معناه ولا نعرف قوته، ولسان حالنا يقول «حقاً إن الرب في هذا المكان وأنا لم أعلم. ما أرهب هذا المكان» وكما أن يعقوب لم يتعلم شيئاً من ذلك الدرس بل احتاج إلى اختبار عشرين سنة في مدرسة توافق جسده وتلائم طبعه بكيفية عجيبة هكذا نحن. وسنرى أنه حتى هذه المدة لم تأت بالفائدة المقصودة ولم تكن كافية لقمعه وتدريبه.

والأمر العجيب أننا نرى عناية الله تسوق يعقوب إلى الظروف التي تناسب كيانه الأدبي. فيعقوب

الخدّاع لا ينفع معه سوي لابان المخادع نظيره وكأن الرب قصد أن يجمعهما مع بعض لكي يظهر كل ما فيهما فيفرغا جعبة حيلهما ويصلا إلى نهاية مكرهما. وليس غريباً أن نرى في لابان المكر والخداع لأنه لا رأى بيت إيل ولا سلماً منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء ولا أبصر سماء مفتوحة ولا ملائكة صاعدة ونازلة ولا مواعيد سامية من فم الرب نفسه تضمن له أرض كنعان ولنسله من بعده ولا وعداً بنسل لا يحصى من الكثرة، فلا عجب إذا أظهر حرصاً كهذا على الدنيا لأن كل آماله فيها ولا يمكن أن ننتظر من أهل العالم إلا تصرفاً وطرقاً تليق بهم إذ لا يوجد عندهم رجاء في غيره. بل كيف ننتظر من إناء أن ينضح خلاف ما فيه. أما يعقوب الذي سمع ورأى كل ما له في بيت إيل فمن العيب المشين والأمر المحزن أن نراه يتنافس مع إنسان عالمي لعله يحصل على ثروة ويجمع له مقتنيات.

ومع ذلك فإن أولاد الله أنفسهم كثيراً ما ينسون مقامهم وميراثهم السماوي ونصيبهم الأبدي السامي وينزلون إلى مستوى أهل العالم قاصدين أن يجمعوا لهم ثروة أو ينالوا شرفاً في وسط أرض مضروبة باللعنة ملوثة بالخطية. فتراهم يتسابقون في مضمار الحياة، بل إن بعضهم تصل به الدرجة إلى حد أنك لا تجد فيه شاهداً واحداً يدلك على صحة ذلك المبدأ السامي الذي يقرره الرسول يوحنا في قوله عن «الغلبة التي تغلب العالم» (١يو٥:٤) إنها ملازمة للإيمان. ونحن إذا نظرنا إلى يعقوب ولابان وحكمنا عليهما من المبادئ التي يسيران عليها لَما وجدنا فرقاً بينهما يميز أحدهما عن الآخر. أما إذا حولنا النظر عن شخصيهما ودخلنا دائرة أفكار الله من جهتهما لوجدنا الفرق عظيماً المسافة. فالفرق ليس في يعقوب ولكن في الله الذي ميز عبده. وهكذا الحال معنا فإنه حتى في الظروف التي لا نستطيع أن نشاهد فيها فرقاً بين أبناء الظلمة وأبناء النور فإن الفرق بينهما واسع جداً، والسبب في ذلك لأن هؤلاء هم «آنية رحمة قد سبق فأعدها للمجد» وأما أولئك فإنهم آنية غضب مهيأة للهلاك*» (رو ٩:٢٢، ٢٣) وهذا الفرق خطير. فالذين على شاكلة يعقوب يمتازون عمن هم على شاكلة لابان امتيازاً جوهرياً وكما امتازوا في السابق فهم يمتازون دائماً مهما قصروا في البلوغ إلى حقيقة مركزهم.

وفي جميع الحوادث المذكورة في هذه الأصحاحات الثلاثة نجد يعقوب مشتغلاً ومجتهداً في الباطل وهذا نتيجة جهله حقيقة نعمة الله المتجهة نحوه، وعدم استطاعته أن يثق في مواعيد الله الثقة

---

* مما يلذ لنا التأمل فيه روحياً ملاحظة احتراس الوحي عند الكلام في رومية ٩ ضد ما يحاول أن يستنتجه العقل البشرى في قضية اختيار الله. فإن الرسول حينما يتكلم عن «آنية الغضب» يقول إنها مهيأة للهلاك ليس أن الله هيأها أو أعدها لذلك. ومن الجهة الأخرى عندما يتكلم عن «آنية الرحمة» فيذكر أنه أعدها للمجد. وإذا راجع القارئ معى متى ٢٥:٣٤-٤١ يجد شاهداً قوياً على صحة هذه النظرية فإن الملك عندما يخاطب الذين على اليمين يقول «تعالوا يا مباركى أبى رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم» وعندما يوجه خطابه إلى فريق اليسار يقول لهم «اذهبوا عنى يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته» فلا يقول لهم «يا معلونى أبى» ولا يقول عن النار الأبدية إنها المعدة لهم بل «لإبليس وملائكته». وبالإختصار فإنه واضح أن الله أعد «ملكوت مجد» و «آنية رحمة» لكي ترث هذا الملكوت. أما آنية الغضب فلم يعدها هو بل هي هيأت نفسها للنار الأبدية التي لم تعد للناس بل لإبليس وملائكته. إذاً فكلمة الله التي تثبت قضية الاختيار لا تنفى المسئولية عن الإنسان، فالذين يدخلون السماء يشكرون الله على إحسانه أما الذين يدخلون النار فلا يلومون سوي أنفسهم.

الكاملة. لأن الإنسان الذي يأخذ من الله وعداً بامتلاك جميع أرض كنعان بدون شرط ثم يخطر على باله «إن أعطاني الله خبزاً لآكل وثياباً لألبس» (ع ٢٠). لا شك أن معرفته بالله ضعيفة وإدراكه قيمة مواعيد الله له قاصر. من ثم نراه ساعياً بنفسه. وهذا هو التصرف الذي نشاهده في كل الذين لا يدركون معنى نعمة الله. أي أنهم لم يختبروا قوة تلك النعمة ولو اعترفوا بإلمامهم بمبادئ النعمة، لأن المعرفة شيء والاختبار العملي شيء آخر. والذي يقرأ قصة يعقوب يظن لأول وهلة أن الحلم أثر في حياته الأدبية ولكن إعلانات الله في بيت إيل وتصرف يعقوب في حاران أمران مختلفان عن بعضهما. إنما يعقوب أثبت لنا بسلوكه وسيره في حاران حقيقة قياس اختباره واقتناعه بالحق الذي كان قد بلغ مسامعه، مهما ادعى أو اعترف بشفتيه. فهو لم يختبر نفسه في حضرة الله وبالتالي جهل قياس النعمة وهو أثبت جهله للنعمة عندما ربط نفسه بلابان فاقتدي به في طرقه وفي أفكاره.

ونحن لا يسعنا هنا إلا ملاحظة أمر جدير بالالتفات وهو أن يعقوب لما قصر عن إدراك حقيقة الجسد والحكم عليه في محضر الله، فمن عناية الله به أنه لما سمح له بأن يدخل دائرة الاختبارات التي يمكنه أن يتلقن فيها هذا الدرس، قاده إلى حاران وهي وطن لابان ورفقة أو بالحري المدرسة التي تخرج منها أولئك الدهاة إذ تعلموا فيها دروس المكر فحفظوها وفاقوا فيها. فمن أراد أن يتعلم من هو الله عليه أن يذهب إلى بيت إيل ومن أراد أن يتعلم من هو الإنسان عليه أن يذهب إلى حاران. وإذ قصّر يعقوب عن إدراك إعلان الله نفسه له في بيت إيل أرسله إلى حاران ليريه ذاته، وما أصعب وأمرّ الدروس التي كان عليه أن يتعلمها هناك. إن يعقوب لم يكن واثقاً في الله الثقة البسيطة ولا كان ينتظر الله وحده ويترجاه دون سواه مع أن الله كان مع يعقوب ونعمة الله من نحوه لم يكن يحول دونها تقصير يعقوب. على أن يعقوب اعترف على نوع ما بوجود الله وأمانته من نحوه ولكنه كان يدبر ويحتال لنفسه فلم يسلم الله أمر زوجاته وأجرته بل حاول أن يدبر كل أموره بالغش والحيل وبالاختصار فإنه كان يقتحم أو يتعقب الأمور تعقباً فهو يعقوب بكل معاني الكلمة. اقرأ مثلاً الرواية الواردة في أصحاح ٣٠: ٣٧-٤٢ وقل أين تجد دهاء ومكراً أعظم من هذا الدهاء، المكر الذي يرسم لك حقيقة أوصاف يعقوب. فعوضاً عن أن يسلم أمره لله الذي كان يستطيع أن يبارك في الغنم المخططات والرقط والبلق (٣٠: ٣٩)، الأمر الذي كان يسهل عليه لو أن عبده وثق فيه فعلاً، نراه عاملاً لنفسه مدبراً تلك الحيلة التي لا يدبرها سوى ذهن يعقوب. وهذا يمثل لنا تصرفه مع لابان كل تلك المدة التي صرفها في بيته وحتى عند خروجه من عنده «خدع يعقوب قلب لابان الأرامي إذ لم يخبره أنه هارب» (٣١: ٢٠).

وعندما نتتبع حوادث يعقوب وأعماله واحدة فواحدة نرى صور النعمة الإلهية العجيبة بشكل يدهش الألباب ويحير الأفكار. لأنه من كان يستطيع أن يحتمل شخصاً مثل يعقوب سوي الله

وحده! أو من كان يعتني بأمر إنسان نظير هذا سواه. وبالحقيقة نعمة الله تصل إلى أعماق حالتنا المنحطة إذ تلحق الإنسان حيث هو وتدركه في أدنى درجة يكون قد وصل إليها وتعمل فيه وهي عارفة بصفاته. ومن المهم جداً أن نتثبت من معرفة النعمة بهذا الشكل ونفهم وصفها من بدء دخولنا فيها إذ تجعلنا غير متزعزعين حين نكتشف رداءة ذواتنا وشر قلوبنا، الأمر الذي كثيراً ما يُعرِّض المؤمنين لضعف الإيمان ويؤثر على سلام أولاد الله وثقتهم في أبيهم.

وكثيرون لا يدركون خراب طبيعتهم الكامل وفسادهم الكلي كما هو بالحقيقة في محضر الله مع أنهم قد انجذبت قلوبهم بالنعمة إلى الله وهدأت ضمائرهم إلى درجة ما بتأثير دم المسيح. ولذك متى تقدموا في السير وأخذوا يطلعون على الخطية الساكنة فيهم فبسبب عدم إدراكهم نعمة الله وقيمة وكفاية دم المسيح الإدراك الصحيح يشكون في أمر بنوتهم ويرتابون في نفوسهم وهكذا يضلون عن المسيح إذ يقيسون أنفسهم بأنفسهم وتكون النتيجة إما أنهم يرجعون إلى الفرائض والطقوس والأركان الأولى الضعيفة لاستنهاض تعبدهم أو أنهم يرجعون إلى العالم والجسديات وهي نتائج وخيمة سببها أن القلب لم «يتثبت بالنعمة».

وهذه التأملات تجعل درس سيرة يعقوب مفيداً ولذيذاً. إذ ولا واحد يطالع الأصحاحات الثلاثة المطروحة أمامنا الآن للتأمل إلا ويندهش من سعة النعمة التي شملت واحداً مثل يعقوب، وليس أنها شملته فقط بل مع كل هذه العيوب التي ظهرت فيه يقول الله عنه «لم يبصر إثماً في يعقوب ولا رأى تعباً في إسرائيل» (عد٢٣:٢١) إن الله لا يقول لم يكن في يعقوب إثم ولا في إسرائيل تعب، فإن قولاً كهذا ما كان ليعطي القلب سلاماً أو راحة. ولا يطمئن قلب الخاطئ الضعيف المسكين إذا قلت له إنه لا توجد فيه خطية. لأنه واأسفاه يعلم حق العلم بأن الخطية ساكنة فيه. إنما راحته هي في أن يقال له إنه لا توجد عليه خطية وأن الله لا يبصر فيه إثماً لأنه ينظر إليه في ذبيحة المسيح الكاملة، وهذا ما يثبّت قلبه ويهدّئ ضميره. ولو كان الله قد اختار عيسو لما كانت قد ظهرت نعمة الله الكاملة المطلقة، وسبب ذلك لأن صفات عيسو ليست في نظرنا في صورة صفات يعقوب الشنيعة التي تمثلت أمامنا في تاريخ حياته، وكلما تدانى الإنسان كلما تسامى الله، بمعنى أني كلما ازداد شعوري بديني من خمسين دينار إلى خمسماية دينار كلما ازداد شعوري بالإحسان وتعظمت النعمة في نظري وازداد اختباري لتلك المحبة التي سامحتني بكل الدين إذ لم يكن لي ما يسدده (لو٧:٤٢) حقاً يليق بنا أن نقول مع الرسول بولس «حسن أن يثبّت القلب بالنعمة لا بأطعمة لم ينتفع بها الذين تعاطوها» (عب١٣:٩).

الأصحاح الثاني والثلاثون

«وأما يعقوب فمضى في طريقه ولاقاه ملائكة الله» (١:٣٢).

وهنا نجد نعمة الله تقتفي أثر يعقوب أينما سار لأن محبة الله لا تتغير فإن الذين أحبهم مهما كانوا أحبهم إلى المنتهى، لأن محبته كذاته هي هي «أمساً واليوم وإلى الأبد» ولكن تأثير جيش الله على يعقوب كان ضعيفاً جداً كما نشاهد من أعماله التي دونها لنا الوحي في هذا الفصل

«وأرسل يعقوب رسلاً قدامه إلى عيسو أخيه إلى أرض سعير بلاد أدوم» (٣:٣٢).

ومن هذا يظهر أنه كان خائفاً من عيسو أخيه وكان له حق في الخوف لأنه سبق بالإساءة إلى أخيه فوقع في لوم الضمير، إلا أنه عوضاً عن أن يلقي همه على الرب ويتكل عليه، يأخذ في تدبير الحيل حسب عادته عساه ينجو من غضب عيسو، وبدلاً من الاعتماد على الله أخذ في استرضاء أخيه بالمكر.

«وأمرهم قائلاً هكذا تقولون لسيدي عيسو. هكذا قال عبدك يعقوب تغربت عند لابان ولبثت إلى الآن» (٤:٣٢).

وفي هذه الألفاظ دليل على أن مشغولية يعقوب لم تكن في الله لأن في قوله لعيسو «سيدي» و «عبدك» ما يدل على اختلال مركز توازنه لأن الأخ لا يخاطب أخاه بهذة اللغة إلا إذا كان ملوماً في ضميره وهي لهجة لا تصدر إلا من مثل يعقوب وتليق بواحد نظيره.

«فرجع الرسل إلى يعقوب قائلين أتينا إلى أخيك، إلى عيسو. وهو أيضاً قادم للقائك وأربع مئة رجل معه. فخاف يعقوب جداً وضاق به الأمر» (٦:٣٢، ٧).

ولكن ماذا صنع؟ هل سكب نفسه أمام الله؟ كلا. بل أخذ في التدبير وعمد إلى العمل بنفسه كما هي عادته

«فقسم القوم الذين معه والغنم والبقر والجمال إلى جيشين. وقال إن جاء عيسو إلى الجيش الواحد وضربه يكون الجيش الباقي ناجياً» (٣٢: ٧، ٨).

فأول فكر يعمد إليه يعقوب هو تدبير الحيل وهي صورة القلب البشري الضعيف المسكين. نعم إنه يلتجئ إلى الله بعدما يدبر أموره بنفسه ويصرخ إليه طالباً النجاة ولكنه لا يلبث أن يفارق مخدع صلاته حتى يرجع إلى التدبير. ولكن التدبير والصلاة أمران لا يتفقان معاً. لأني حين أدبر أموري بنفسي تكون ثقتي في تدبيراتي وأما حين التجأ إلى الله بالصلاة فثقتي في الله وحده، ومن هذا نشاهد أن الأمرين يختلفان عن بعضهما اختلافاً جوهرياً بل هما ضدان لا يجتمعان لأنه إذا كانت عيناي مفتوحتين للتأمل في اجراءاتي فلا أبصر الله حينئذ عاملاً لأجلي، ولا تكون الصلاة عنوان حاجتي بل تأدية فرض واجب أو طلب مصادقة من الله على مشروعاتي الخاصة. وهذا كله لا يجدي نفعاً لأن معنى الصلاة ليس طلب مصادقة الله على أفكارنا نحن بل الدعاء إليه أن يصنع كل شيء بنفسه*.

فيعقوب ولو أنه طلب إلى الله أن ينقذه من أخيه عيسو ولكن يظهر أنه لم يكتف بهذا « لأنه قال استعطف وجهه بالهدية السائرة أمامي » (ع ٢٠) فلم يكن اعتماده كله على الله وحده « القلب أخدع من كل شيء وهو نجيس» (إر ١٧: ٩) وما أعسر معرفة الأساس الذي يبني عليه ثقته فإننا أحياناً نتصور ونحاول أن نقنع أنفسنا أننا واثقون في الله بينما نكون في الواقع وحقيقة الأمر واضعين ثقتنا في تدبيراتنا. ومن كان يظن أن يرى يعقوب يقول « استعطف وجهه بالهدية » بعدما سمعه يصلي إلى الله وهو يقول «نجني من يد أخي من يد عيسو لأني خائف منه أن يأتي ويضربني الأم مع البنين » (ع١١)؟ فهل نسى صلواته يا ترى؟ أم كان يحسب الهدية إلهه؟ وهل كان اعتماده على الغنم أقوى من اعتماده على الله الذي أستودع أموره في يده؟ هذه كلها أسئلة تخطر على البال بمجرد ما ينظر إلى تصرفاته مع عيسو. ويسهل علينا أن نجاوب عليها متى تأملنا في قلوبنا نحن، فهي مثل صحيفة تاريخ يعقوب نرى فيها خيانة القلب البشري وكيف أن أسهل شيء لديه أن يعتمد على أي واسطة ما عدا الله. ولكن هذا لا يكفي إذ يجب أن نتعلم نتيجة الإتكال على تدبيراتنا الجسدية فنعرف غباوتنا ونتأكد أن الحكمة الصحيحة هي في الاستناد على الله لا سواه.

أما إذا جعلنا صلواتنا جزءاً من تدبيراتنا فذلك لا يفيدنا شيئاً ولو أننا أحياناً نظن أننا عملنا

* لا ريب أن الله يستخدم الوسائط التي يراها مناسبة متى سلّم المؤمن أمره إليه. ولكن هذا يختلف عن اهتمام الإنسان بنفسه وطلب البركة من الرب على تدبيرات عملت بدون إيمان وبدون انتظار الله. ولكن الذين يميزون هذا الفرق قليلون.

كل الواجب عندما نطرح مسائلنا لدى الله بعدما نكون قد استعملنا كل الوسائط الجائزة لكي يبارك عليها. لأن صلواتنا في مثل هذه الأحوال لا تنفع أكثر من تدبيراتنا نفسها لأننا نكون واثقين في تدبيراتنا أكثر من ثقتنا في الله.

فأول شيء يجب أن ندركه هو عدم نفعنا بالمرة في شيء ما لأن الله لا يتداخل في شؤوننا فعلياً إلا متى أدركنا هذا الحق. ونحن لا نستطيع أن نرفض التدبير لأنفسنا إلا إذا أدركنا عدم نفعنا في شيء حيث يجب أن ندرك أن «كل جسد عشب وكل جماله كزهر الحقل» (إش ٤٠:٦).

وهذا نفس ما نعانيه في هذا الفصل اللذيذ لأن يعقوب بعدما أعيت حيلته نقرأ أنه

«بقي يعقوب وحده. وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر» (٢٤:٣٢).

وهذه هي نقطة الانقلاب في تاريخ حياة هذا الرجل الغريب. ومتى بقي الإنسان وحده مع الله فحينئذ يتعلم حقيقة نفسه وتدبيراته ومساعيه إذ لا يوجد مكان نزن فيه الأمور وزناً صحيحاً فنعرف حقيقة الطبيعة وأثمارها إلا في مقادس الله. هناك نعرف قيمتها الصحيحة، لأن المسألة ليست ماذا نقول عن أنفسنا أو ماذا يقول الناس عنا بل ماذا يقول الله عنا والجواب الصحيح لهذا السؤال لا نعرفه إلا ونحن مع الله وحده بعيدين عن العالم وعن الذات وعن كل أفكارنا وتصورات قلوبنا وأبحاثنا العقلية وحاسياتنا البشرية الصادرة من الطبيعة، «بالانفراد مع الله» حينئذ نستطيع أن نحكم على ذواتنا حكماً صحيحاً ونعرف من نحن.

«فبقيَ يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر» لاحظ أن يعقوب لم يكن هو الذي صارع ذلك الإنسان بل إنسان صارع يعقوب والذي دعاني إلى إبداء هذه الملاحظة هو أن كثيرين يستشهدون بهذه العبارة على مقدرة يعقوب على الصلاة. مع أنه واضح من نسق هذه العبارة أن هذا ليس هو غرض الجملة. فمصارعتي لإنسان ما شيء ومصارعة إنسان لي شيء آخر. لأنه في الحالة الأولى أكون أنا الساعي في الحصول على شيء منه وأما في الحالة الثانية فيكون هو الساعي في نوال حاجته مني. وغرض الله من مصارعة يعقوب في هذه الحالة إنما لكي يُظهِر له حقيقة أمره أنه خليقة ضعيفة مسكينة قليلة الحيلة عديمة النفع، ولما أظهر يعقوب مقاومة ضد معاملات الله هذه

«ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه» (٢٥:٣٢).

إنه ينبغي أن يُكتب حكم الموت على الجسد كما يجب أن نُدرك قوة الصليب قبل أن نتمتع بالسير مع الله بقلب ثابت ممتلئ فرحاً.

ونحن إلى الآن قد تتبعنا سيرة يعقوب في أوقات تدبيراته وحكمته وحركات صفاته الغريبة فرأيناه عاملاً محتالاً مدة العشرين السنة التي تغربها عند لابان ولم يعرف ضعف ذاته وعدم نفعه إلا لما انفرد مع الله «بقي وحده» وإذ عرف وتعلم ما هو قال «لا أطلقك» وهذه الكلمة هي بداية تاريخ جديد وانقلاب في حياة يعقوب. لأنه كان إلى هذه الساعة متمسكاً بطريقه معتصماً بحبل حيله وأما الآن فقد اضطر أن يقول «لا أطلقك» وعلى القارئ أن يلاحظ أن يعقوب لم ينطق بهذه العبارة ويتكلم بهذه اللهجة إلا بعد أن «انخلع حق فخذه» ومتى تأملنا في هذه القضية نستطيع أن نفهم معنى هذا الفصل. فالله كان مصارعاً يعقوب لكي يقوده إلى هذه النقطة، لقد شاهدنا مبلغ قدرة يعقوب في الصلاة قبل الآن إذ بعد ما نطق بكلمات قليلة في الصلاة أظهر حقيقة ما في نفسه وما كان يعتمد عليه إذ قال «أستعطف وجهه (أي عيسو) بالهدية السائرة أمامي» مع أن الذي يدرك معنى وقوة الصلاة ويعتمد على الله حقاً لا ينطق بكلام كهذا. إذ لو كان ينتظر من الله أنه يستعطف له وجه أخيه فهل يقول «أستعطف وجهه بهدية؟» مستحيل، لأن الخالق غير المخلوق، والنفس التي تعرف شيئاً عن حقيقة حياة الإيمان تميز بين الاثنين وتفصلهما عن بعضهما.

ولكن واأسفاه علينا فنحن مقصرون في هذا وكثيراً ما نستر خداع قلوبنا وعدم وثوقنا في الله تحت رداء استحسان استعمال الوسائط المحللة التي لها صورة التقوى. وكأننا نطلب من الله أن يبارك على وسائطنا بينما نكون نحن في الحقيقة واضعين ثقتنا فيها لا في الله نفسه. ياليت قلوبنا تتعلم شر هذا التصرف. وياليتنا نتعلم التمسك بالله وحده دون سواه حتى يمتاز تاريخ حياتنا بذلك الترفع الأدبي اللائق بنا فوق ظروف الحياة التي نمر في وسطها. وقول يعقوب «لا أطلقك حتى تباركني» (ع ٢٦) ليس بالأمر الهين، ولا يمكن أن يصل الإنسان إلى نهاية نفسه ونهاية الخليقة بكل صورها وأشكالها بحيث أنه يقدر أن يقول هذه الجملة إلا بكل صعوبة فيعقوب لم ينطق بتلك العبارة إلا بعدما انخلع حق فخذه فقد جاهد مدة طويلة حتى سلّم، لأن ثقته في الجسد كانت شديدة، والذي يصل إلى مثل اعتراف يعقوب هذا ويقول هذا القول من قلبه ويثبت في قوة ذلك الكلام يكون عنده سر كل القوة الصحيحة، ويمكن لله أن يضع في التراب أشد الرقاب صلابة وأكثر القلوب عناداً، لأنه يعرف كيف يمس مركز القوة الذي في طبيعتنا ويقضي عليه القضاء الأخير، لأنه قبل أن يصل الإنسان إلى هذه النقطة كيف يمكن أن تكون له قوة مع الله أو مع الناس؟ يجب أن نصير ضعفاء قبل أن نكون أقوياء «فقوة المسيح» إنما تكمل في ضعفنا وفي معرفتنا بأننا ضعفاء. لأن المسيح لا يمكنه أن يصادق على قوة أو حكمة أو مجد الطبيعة، بل يجب

أن تختفي هذه جميعها قبل أن تظهر قوة المسيح. لأن نعمة المسيح أو قوة المسيح لا يمكن أن تستند على شيء في الطبيعة، إذ لو أمكن ذلك لكان للجسد محل للافتخار ووجه للوجود أمام الله ولكننا نحن نعلم أن هذا غير ممكن.

وبما أن ظهور مجد الله واسمه وصفاته متوقف على نبذ الطبيعة إذ غير ممكن لنا أن نتمتع بتلك الامتيازات إلا بعد رفض كل ما يخص الطبيعة من أعماق نفوسنا. من ثم نرى أن يعقوب ولو أن اسمه دل على صفاته كمحتال وظهرت حقيقة اسمه في صفاته إلا أن اسم الله لم يعلن له تماماً إلا بعد أن انخلع حق فخذه ووضعت نفسه إلى التراب حينئذ دعي اسمه «إسرائيل» أي رئيساً وأميراً وهي خطوة مهمة خطاها يعقوب في طريق الإيمان. أما عندما سأل يعقوب وقال «أخبرني باسمك» فكان الجواب «لماذا تسأل عن اسمي» فالرب أبى أن يخبر يعقوب عن اسمه إذ اكتفى بأن عرفه حقيقة نفسه وأخبره باسمه الجديد «وباركه هناك» وهذا الأمر كثير الحدوث مع شعب الله. تراهم يصلون إلى حقيقة ذواتهم وضعفهم أدبياً ولكنهم يقصرون دون إدراك ما هو الله لهم عملياً ولو أنه صار قريباً جداً منهم وباركهم إذ فهموا حقيقة ذواتهم. وهنا نجد يعقوب أخذ ذلك الاسم الجديد «إسرائيل» بعدما انخلع حق فخذه، فما صار رئيساً قديراً إلا بعد أن تعلّم ضعف ذاته وعرف نفسه أنه إنسان ضعيف. ومع كل ذلك فإننا نرى الرب يقول له «لماذا تسأل عن اسمي؟» كأن يعقوب لم يصل بعد إلى إدراك اسم الرب وإن كان قد اطلع على حقيقة ذاته فأعطى له أن يعرف اسمه هو.

من هنا نتعلم أن مباركة الرب لنا شيء واعلان صفاته بالروح القدس لقلوبنا شيء آخر. «فقد باركه هناك» إلا أنه لم يعلن له شيئاً عن اسمه. إذن في معرفة ذواتنا بركة لنا إذ نصل إلى درجة فيها نكون قد فهمنا الطريق الذي يجب أن نسلكه لكي نعرف من هو الله عملياً. هذا كان الحال مع يعقوب فحين انخلع حق فخذه فهم حقيقة نفسه لكي يصبح هو لا شيء والله كل شيء له لأن الإنسان الأعرج لا يقوى على المسير فيضطر أن يتقوى بالله ويتمسك بالقدير وحده.

وقبل مغادرة هذا الفصل أريد أن أبدي ملاحظة وهي أن سفر أيوب يمكن اعتباره شرحاً مطولاً لهذه النقطة التي كنا نتأمل فيها في تاريخ حياة يعقوب، ففي الواحد والثلاثين أصحاحاً الأولى نجد أيوب يجادل ويحاور أصدقاءه قاصداً الانتصار عليهم. أما في الأصحاح الثاني والثلاثين فنجد الله بواسطة أليهو آخذاً في مصارعة أيوب. وفي أصحاح ٣٨ هجم عليه بجلاله وعظمته معلناً مجده وقدرته فاضطر أيوب أن يقول أخيراً «بسمع الأذن قد سمعت عنك والآن رأتك عيني لذلك أرفض وأندم في التراب والرماد» (أي٤٢: ٥، ٦) وهذا شيء يشبه خلع حق فخذ يعقوب ولكن

لاحظ قوله «رأتك عيني» فكأن أيوب لم ير نفسه فقط بل رأى الله أيضاً ولا يمكن أن يقودنا إلى رؤية الله سوى الندامة ورفض ذواتنا، وهذا نفس ما سيجرى مع إسرائيل كأمة كما جرى مع يعقوب ورأيناه في أيوب. إذ ينظرون إلى الذي طعنوه وينوحون حينئذ يردهم الله ويباركهم فتكون أخرتهم كما كان الأمر مع أيوب أحسن من الأوائل حينئذ يتعلمون معنى تلك الجملة الواردة في هوشع ٩:١٣ «هلاكك يا اسرائيل أنك عليَّ على عونك (أي أنت أهلكت نفسك يا اسرائيل ولكن عليّ عونك)».

الأصحاحان الثالث والثلاثون والرابع والثلاثون

هنا نجد كيف أن مخاوف يعقوب كانت في غير محلها وتدابيره كانت جميعها باطلة. فإنه بالرغم من مصارعة الرب له وخلع حق فخذه وعرجه لا نزال نراه عاملاً ومدبراً

«ورفع يعقوب عينيه ونظر وإذا عيسو مقبل ومعه أربع مئة رجل. فقسم الأولاد على ليئة وعلى راحيل والجاريتين. ووضع الجاريتين وأولادهما أولاً وليئة وأولادها وراءهم وراحيل ويوسف أخيراً» (٣٣: ١، ٢).

فهذا التدبير يدل على الخوف فكان لا يزال يتوقع الانتقام من يد عيسو فوضع في صدر القافلة أولئك الذين اهتمامه بهم كان قليلاً ليكونوا عرضة لانتقام عيسو. حقاً ما أخدع القلب البشري وما أبطأه في التوكل على الله. لو كان يعقوب مستنداً على الله حقيقة لما خشى الهلاك ولا توقع الانتقام لا لنفسه ولا لحاشيته، ولكن القلب يعرف جيداً صعوبة الاستناد البسيط بكل سكون وهدوء على قدرة ونعمة الله الغني الموجود في كل مكان.

ثم لاحظ أيضاً قوله

«فركض عيسو للقائه وعانقه ووقع على عنقه وقبّله، وبكيا» (٣٣: ٤).

فالهدية أصبحت غير لازمة وكل تلك التدبيرات لا محل لها الآن لأن الله استعطف وجه عيسو كما استعطف لابان من قبل، وهكذا نراه دائماً يوبخنا على عدم إيماننا وضعفنا وخوفنا بأقوال التشجيع ونزع المخاوف من قلوبنا. فيعقوب الذي كان يتوقع سيف عيسو وجد منه العناق والتقبيل وعوضاً عن الحرب والخصام وجد دموعاً ذارفة. وهذه هي معاملات الله دائماً. فمن ذا الذي لا يثق فيه ومن ذا الذي لا يكرمه بالاعتماد عليه من كل القلب؟ ولماذا نحن نستعجل في الشك والقلق مع أن أمانة الله ظاهرة من نحونا كل حين؟ إن الجواب على كل هذا بسيط. وذلك أننا لم نتعرف بالله كما يجب. «تعرف به واسلم» (أي٢٢: ٢١) وهذا القول يصدق على الخاطئ كما يصدق على أولاد الله ١

أنفسهم، فمعرفة الله حياة والتعرف به سلام «هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو١٧:٣) وكلما ازداد تعرفنا بالله كلما قوي سلامنا، وكلما ترفعت نفوسنا عن الالتجاء إلى البشر والثقة في المخلوقات «فالله صخرة» وعلينا أن نلقي كل أثقالنا عليه، حينئذ نتعلم كيف أنه مستعد وقادر أن يعولنا ويحفظنا.

على أن يعقوب الذي رأى صلاح الله هذا وكل هذه المعاملات نقرأ عنه أنه

«ارتحل إلى سكوت. وبنى لنفسه بيتاً» (١٧:٣٣).

كأنه وصل إلى وطنه ونسى أنه غريب ونزيل فخالف بذلك المبدأ الذي كان يجب أن يسير بموجبه والروح الذي كان عليه أن يتبعه، مع أن سكوت لم يكن المكان الذي عينه له الله أبداً لأن الرب لم يقل له «أنا إله سكوت» بل «أنا إله بيت إيل» وكان يجب أن يكون بيت إيل لا سكوت غرض يعقوب الوحيد. ولكن وا أسفاه على القلب الذي يميل إلى الاستناد على كل شيء ويتخذ أي شيء نصيبه وغرضه ما خلا الشيء الذي يرتبه ويعينه الله بالنعمة.

«ثم أتى يعقوب سالماً إلى مدينة شكيم التي في أرض كنعان» (١٨:٣٣).

وهنا أيضاً نراه مقصراً عن إدراك غرض الله. وفي الاسم الذي دعا به مذبحه ما يدل على حال نفسه أدبياً إذ دعاه «إيل إله إسرائيل» أي «الله إله إسرائيل» فحصر فكره من جهة الله في دائرة ضيقة. نعم إن امتيازنا أن نعرف أن الله هو إلهنا ولكن متى عرفنا أنه إله بيته وشعبه الذي نحن جزء منه فنكون قد عرفنا عنه أكثر إذ وسعنا دائرة فكرنا من جهته، كما أن المؤمن له الحق أن يعتبر المسيح رأسه ولكنه أفضل جداً أن يعرف أنه رأس لجسده أي الكنيسة التي هو أحد أفرادها بصفته عضواً من أعضاء الجسد.

وسنرى في الأصحاح الخامس والثلاثون أن يعقوب قد وصل إلى معرفة أوسع عن الله وأن دائرة مداركه قد اتسعت من جهته. أما هنا في شكيم فواضح أن أفكاره كانت قاصرة عن إدراك حقيقة من هو الله. وكما أن السبطين والنصف من أسباط بني إسرائيل الذين تأخروا عند شاطئ نهر الأردن كانوا أول من وقع في قبضة العدو، هكذا كان الحال مع يعقوب. إذ نقرأ في الأصحاح الرابع والثلاثين عن أثمار تغربه في شكيم. والحادثة المذكورة فيه تعد نقطة سوداء في سمعة عائلته. ولما حاول شمعون ولاوي أن يمحوا تأثير تلك النقطة بقوتهما الذاتية وحماسهما الطبيعي أضافا حزناً على حزن فكان تأثر يعقوب من عملهما أشد من تأثره من حادثة ابنته

«فقال يعقوب لشمعون ولاوي كدرتماني بتكريهكما إياي عند سكان الأرض الكنعانيين والفرزيين وأنا نفر قليل. فيجتمعون عليَّ ويضربونني فأبيد أنا وبيتي» (٣٠:٣٤).

وهنا نلاحظ أن اهتمام يعقوب بنفسه فاق كل اهتمام آخر. ويظهر أن يعقوب كان سائراً وهو شاعر بالخطر المحدق به وبعائلته، ومتخوف ومحترس وفي هم وضجر وصغر نفس. مع أن هذا لا يليق بمؤمن بالله.

نحن لا نقصد بهذا القول أن يعقوب لم يكن على وجه الإجمال رجل إيمان، لأنه مشهود له من هذا الوجه ومذكور ضمن سحابة الشهود الواردة في عبرانيين ١١ ولكننا نقول أنه قصّر في السير في هذا الطريق على مبدأ الإيمان بصفة مستمرة وأظهر ضعفاً في الطريق. إذ هل من الإيمان أن نسمعه يقول «أبيد أنا وبيتي» كلا. فإن موعد الله له (الوارد في ١٤:٢٨، ١٥) كان يجب أن يبدد كل مخاوفه ويلاشي كل اضطراباته وينزع كل هم قلبه الضعيف «احفظك .. لا أتركك» وكان ينبغي أن أقوالاً كهذه تُسكّن اضطرابه وتطمئن قلبه ولكنه واضح أن فكره كان مشغولاً بالخطر الذي كان يحدق به من أهل شكيم لا بالعناية التي وُعد بها من الله وأنه محفوظ في يده. وكان يجب أن يعرف أن شعرة واحدة من رأسه لا تسقط أو تمس. وعوضاً عن وضع نظره في شمعون ولاوي أو الخوف من نتيجة اندفاعهما يحكم على ذاته بالنظر لوجوده في مكان كهذا. إذ لولا سكناه في شكيم لمَا أصاب دينة ما أصابها من الذل والهوان ولمَا أظهر ابنا يعقوب كل تلك القسوة. وطالما رأينا المسيحيين يوقعون أنفسهم في الحزن وصغر النفس والقلق بسبب عدم سيرهم بالأمانة، ثم عوضاً عن أن يحكموا على أنفسهم تراهم ينشغلون بالظروف فيضعون اللوم عليها لا على ذواتهم.

وكم مرة نرى الوالدين المسيحيين مثلاً في غضبهما ومرارة نفسيهما يلومان أولادهما على سوء تصرفهم وعنادهم ومشابهتهم أهل العالم مع أن العيب فيهما لأنهما كانا قدوة رديئة بسبب عدم أمانتهما في العيشة المنزلية أمام الله. وهذا كان نفس وصف حال يعقوب. فقد كانت حالته الروحية في شكيم منحطة. وبما أنه لم يستعمل إدراكه وفطنته الروحية في الحكم على حالته، استخدم الله الظروف لتأديبه وتدريبه. «الله لا يشمخ عليه فإن الذي يزرعه الإنسان إياه يحصد أيضاً» (غل٧:٦) هذا هو المبدأ العام في معاملات الله السياسية مع شعبه، وهو مبدأ لا يستثني أي واحد من الخضوع له وهي رحمة كبيرة من الله على أولاده إذ يكلفهم أن يحصدوا ما زرعوا لأن مرارة البعد عن الله أمر يجب أن نتعلمه عملياً، ومن رحمته بنا أنه يُدرِّبنا بهذه الصورة. إنه يجب أن نفهم أن بعدنا عن الله ليس فيه راحة بالمرة ومبارك اسم

إلهنا الذي يريد لنا الراحة، يريد أن نستريح عليه وعنده ومعه، وهذه هي النعمة الكاملة، فمتى ضلت قلوبنا أو قصرت عن الوصول إلى الله فكلمته إلينا «إن رجعت .. فلا تتيه» (إر ٤:١) أما التواضع الكاذب الذي هو في الحقيقة ثمر عدم الإيمان فيجعل الإنسان التائه الشارد يكتفي بمركزه دون الوجود مع الله، غير عارف مبدأ وقياس رد النفس؛ مثل ذلك الابن الضال الذي كان يفكر أن يصير عبداً أجيراً غير عارف أن المسألة إذا كانت المسألة متوقفة عليه فليس له استحقاق لا أن يكون ابناً ولا حتى عبداً أجير. وهكذا نحن يجب أن نأتي إلى الله على مبدأ وكيفية تليق به أو أننا لا نأتي إليه مطلقاً.

الأصحاحان الخامس والثلاثون والسادس والثلاثون

«ثم قال الله ليعقوب قم اصعد إلى بيت إيل وأقم هناك» (١:٣٥).

هذا القول يثبت لنا صحة القضية التي كنا نتأمل فيها معاً في نهاية الفصل السابق. ومتى قصر المؤمن عن إدراك مقامه أو انحط في الطريق فهكذا يرد الرب النفس دائماً. «اذكر من أين سقطت وتب واعمل الأعمال الأولى» (رؤ ٥:٢) هذا هو مبدأ رد النفس الإلهي. فالنفس ينبغي أن ترجع إلى أسمى درجة وصلت إليها سابقاً بل يجب أن تعود إلى قياس الله. فالرب لا يقول اذكر أين أنت بل اذكر مركزك العظيم الذي كنت فيه وسقطت منه. وبمثل هذا الارشاد يتعلم الإنسان المركز الذي وصل إليه لكي يعود من حيث ضل.

ولنلاحظ أنه عندما يدعونا الله إلى قياس سام ومقدس كهذا فذلك يقود نفوسنا إلى اختبار شر المركز المحزن الذي نكون قد وصلنا إليه. إذ كم من الشرور تراكمت على عائلة يعقوب ولم يكن يتأمل فيها إلى أن نبه الله نفسه بدعوته إليه قائلاً «قم اصعد إلى بيت إيل» يظهر من هذا أن شكيم لم تكن المكان الذي فيه يستطيع أن يرى يعقوب كل تلك الشرور وخامتها لأن جو ذلك المكان كان مشبعاً بالأبخرة والروائح النتنة والعناصر الدنسة حتى أن نفسه لم تستطع أن تميز بوضوح جلي حقيقة الشر. ولكن لما طرق أذن يعقوب صوت دعوة الله إليه أن يصعد إلى بيت إيل، حينئذ

«قال يعقوب لبيته ولكل من كان معه اعزلوا الآلهة الغريبة التي بينكم وتطهروا وأبدلوا ثيابكم. ولنقم ونصعد إلى بيت إيل. فأصنع هناك مذبحاً لله الذي استجاب لي في يوم ضيقتي وكان معي في الطريق الذي ذهبت فيه» (٢:٣٥، ٣).

وهكذا نجد أن مجرد ذكر «بيت إيل» رفع نفس ذلك الشيخ فرجع بفكره في لمح البصر إلى ذكرى معاملات الله كل تلك العشرين سنة، وكيف أنه تعلم من هو الله في بيت إيل لا في شكيم فرأى نفسه مضطراً أن يرجع إلى بيت إيل ويصنع هناك مذبح آخر على أساس آخر غير الذي بنى عليه

مذبح شكيم، لأن مذبح شكيم كان مقترناً بالنجاسة وعبادة الأصنام.

فيعقوب دعا قبلاً اسم المذبح «إيل إله إسرائيل» لأنه كان محاطاً بأمور لا تليق بقداسة الله وبيت الله. وعلينا أن نفهم جيداً هذه المسألة لأنه لا يوجد ما يهدي النفس إلى طريق الصواب بالانفصال التام عن الشر إلا إدراك ما هو بيت الله وما يليق بذلك البيت. أما إذا كان نظري قاصراً على التأمل في الله كإلهي أنا فقط فلا يمكن أن تجري في نفسي ينابيع تلك المعاني البليغة الإلهية الجليلة المتعلقة بالله كمن هو رب بيته وما ينجم من علاقته بذلك البيت. ويظن البعض أنه لا يوجد ضرر من الاشتراك مع الآخرين في ممارسة عبادة بها أشياء نافلة عاطلة، مادامت قلوبهم هم صادقة ومستقيمة لدى الله، أو بعبارة أوضح هم يتوهمون أنه يمكنهم أن يعبدوا الله في شكيم ويحسبون أن المذبح المدعو «إيل إله إسرائيل» لا يختلف عن المذبح المدعو «إيل بيت إيل» وأن الاثنين ينطبقان على فكر الله، وأنهما في درجة واحدة ومستوى واحد. ولكنها غلطة ظاهرة. والقارئ الفطن الروحي يدرك الفرق الكبير بين حالة يعقوب في شكيم وحالته في بيت إيل، كما يلاحظ الفرق بين المذبحين، لأن أفكارنا من جهة عبادة الله تتوقف بالضرورة على حالتنا الروحية. فإذا كانت حالتنا الروحية منحطة وضعيفة كانت عبادتنا كذلك وإذا كانت حالتنا مرفوعة ومتسعة فبمقدار نمونا نستطيع أن نتعمق في اختبار صفات الله ونسبته إلينا.

وبالاختصار فإن اسم مذبحنا وشكل عبادتنا يدل على مقدار إدراكنا لصفات الله. وكما أن عبادة إيل بيت إيل أسمى من عبادة إيل إله إسرائيل لأن الأولى تتضمن تصور الله بصورة أرقى من الثانية، هكذا يمكن لنا أن نقول أن تأملنا في الله كمن هو إله بيته أرقى من عبادتنا له كإله شخص بمفرده. نعم إن في التعبير عن الله «كإله إسرائيل» معنى جميلاً وفكرة نعمة متجهة نحو الشخص المتأمل في الله بهذه الصورة؛ ولابد أن النفس تتلذذ بتأملها في صفات الله وهو معتنٍ بكل واحد بمفرده مهتماً بكل حجر من حجارة بيته وناظراً إلى كل عضو من أعضاء الجسد أفراداً. لأن كل حجر في بيت الله هو «حجر حي» قد بني على «الحجر الحي» وله شركة مع «الله الحي» بقوة «روح الحياة» ولكن مع أن كل هذا صحيح ومبارك فإن الله هو إله بيته، ومتى اتسعت مداركنا الروحية واستطعنا أن ننظر إليه بهذه الصورة فسجودنا إليه يصبح أسمى مما لو سجدنا له ونحن غير متأملين إلا في علاقته بأشخاصنا أفراداً.

على أنه توجد ملاحظة أخرى نشاهدها في رجوع يعقوب إلى بيت إيل إذ قيل له «اصنع هناك مذبحاً لله الذي ظهر لك حين هربت من وجه عيسو أخيك» (ع١) كأن الله يذكّره بيوم الضيق، وفي الواقع نحن يحسن بنا أن نرجع بفكرنا أحياناً إلى الأوقات المرة التي وقعنا فيها حين بلغ منا

الأمر أن نهبط إلى أدنى نقطة في تاريخ حياتنا. فشاول اضطر أن يتذكر الوقت الذي كان فيه صغيراً في عيني نفسه، وهذه هي نقطة الابتداء الصحيحة لكل منا. ونحن نحتاج أن نتذكر دائماً القول «أ ليس إذ كنت صغيراً في عينيك» (١صم ١٥:١٧) عندئذ يكون القلب مستنداً على الله بالحقيقة ولكن ما أسرع نسيان الإنسان حقيقة ذاته إذ يتصور أنه شيء فيضطر الرب أن يعلمه من جديد أنه لا شيء. ونحن عندما ندخل طريق الخدمة أو الشهادة لأول مرة يكون شعورنا بضعفنا وعدم نفعنا، وأننا لسنا كفاة من أنفسنا، شعوراً صحيحاً وتكون النتيجة أننا نلتجئ إلى الله ونتوكل عليه مستمدين منه العون والمدد مستنجدين به في كل ظروفنا، ولكن لا نلبث أن نتوهم بعد ذلك نظراً لاستمرار القوة على العمل، إننا نقدر على المسير من تلقاء أنفسنا أو على الأقل لا يعود يبقى شعورنا بضعفنا بنفس القياس الأول فتقل ثقتنا في الله وتصبح خدمتنا ضئيلة ضعيفة تافهة مجرد أقوال بدون قوة وبدون مسحة، إذ لا تكون حينئذ صادرة من ينبوع الروح القدس، الينبوع المتدفق، بل مصدرها ذهننا التعيس البائس.

ومن عدد ٩ إلى ١٥ نجد الله مجدداً وعده ليعقوب، بأن لا يدعوه يعقوب (المتعقب المحتال) بل اسرائيل (الأمير) ويعقوب أيضاً يعود فيدعو المكان «بيت إيل». أما في عدد ١٨ فأمامنا مثال جميل للفرق بين حكم الإيمان وحكم الطبيعة. إذ الطبيعة ترى الأمور من خلال السحب التي تكتنفها وأما الإيمان فينظر إليها في نور طلعة الله وإعلان مشوراته

«وكان عند خروج نفسها، لأنها ماتت، أنها دعت اسمه بن أوني. وأما أبوه فدعاه بنيامين» (١٨:٣٥).

أي أن الطبيعة دعته «ابن حزني» وأما الإيمان فدعا اسمه «ابن يدي اليمين» وهذا ما نشاهده كل حين، وشتّان بين تصور الطبيعة وتصور الإيمان، ونحن علينا أن نبذل كل اجتهاد لكي تكون أفكارنا أفكار الإيمان لا أفكار العيان منقادة نفوسنا لا إلى الطبيعة المنظورة بل إلى الأمور التي لا ترى لأنها من الإيمان.

* * * *

في الأصحاح السادس والثلاثين ذكر مواليد عيسو حسب قبائلهم وأماكنهم بأسمائهم، ولكننا لا نقصد التعليق على ما ورد بل نريد أن نتقدم إلى قسم من ألذ أقسام الوحي المشحونة بالفوائد ويبتدئ من الأصحاح السابع والثلاثين وينتهي بالخمسين. وهذا القسم هو الذي ننوي الإفاضة فيه على قدر الإمكان.

الأصحاح السابع والثلاثون

لا يوجد في الكتاب المقدس رمز للمسيح أو صورة له أجمل ولا أكمل من صورة يوسف. وسواء نظرنا إلى المسيح كمن هو موضوع محبة الآب أو موضوع حسد إخوته (خاصته) أو تأملنا إليه في اتضاعه وآلامه وموته ورفعته ومجده ففي كل ذلك نجد يوسف مثالاً بديعاً في غاية الوضوح.

ففي الأصحاح السابع والثلاثين نقرأ عن أحلام يوسف التي أهاجت بغضة إخوته وحسدهم. وإذ كان هو موضوع محبة أبيه وإعجابه وكانت قلوب إخوته لا تعرف شيئاً عن هذه المحبة لذلك أبغضوه حسداً. فلم تكن لهم شركة في محبة الآب ومن ثم لم يطيقوا أن يسمعوا عن علو شأنه. وهذه الصورة تُذكرنا بصورة اليهود لما جاء المسيح إلى الأرض. «إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله» (يو١:١١) إذ لم يروا له «صورة ولا جمال» فلم يعترفوا ببنوته لله ولا بملكه عليهم لأن عيونهم لم تكن مفتوحة لكي ترى «مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً» (يو١:١٤) فرفضوه بل أبغضوه.

ثم أننا نشاهد أن يوسف لا ينفك يقص أحلامه على إخوته بالرغم من رفضهم لسماع حلمه الأول وما انثنى عزمه عن تأدية الشهادة

«وحلم يوسف حلماً وأخبر إخوته فازدادوا أيضاً بغضاً له .. ثم حلم حلماً آخر وقصه على إخوته» (٣٧:٥، ٩).

وقد كانت هذه شهادة مؤسسة على إعلانات الله. ولكن تلك الشهادة ساقته إلى الجب، ولو كان قد تراجع عن تأدية الشهادة أو خفف من تأثيرها وسلطانها لكان تخلص من سخطهم ولكنه قال الحق فأبغضوه.

وهذا نفس ما وقع مع المرموز إليه بيوسف. فقد جاء شاهداً للحق واعترف الاعتراف الحسن، وما أخفى من الحق حرفاً واحداً، بل ما نطق إلا بالحق إذ كان هو الحق، ولكن الإنسان ما كان منه أمام شهادة الحق هذه إلا أن صلبه وسقاه الخل وطعنه بالحربة مع أن شهادة المسيح كانت مقترنة بالنعمة

الكاملة الغنية الواسعة. فما جاء بالحق وحده بل بالنعمة أيضاً إذ أعلن لنا ملء محبة الآب « أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا » (يو١:١٧). وقد كان المسيح يسوع إعلان الله للإنسان لذلك أصبح الإنسان الآن بلا عذر فقد أتى معلناً للإنسان ما هو الله ولكن الإنسان أبغضه بغضاً شديداً. فمحبة الله الكاملة قابلها الإنسان بالكراهة التامة. وعند الصليب ظهرت هذه القضية بأجلى بيان، وفي قصة يوسف بانت النتيجة عينها لما ألقى يوسف في الجب بواسطة إخوته.

«فلما أبصروه من بعيد قبلما اقترب إليهم احتالوا له ليميتوه. فقال بعضهم لبعض هوذا هذا صاحب الأحلام قادم. فالآن هلم نقتله ونطرحه في إحدى الآبار ونقول وحش رديء أكله. فنرى ماذا تكون أحلامه» (٣٧:١٨-٢٠).

هذه الأقوال تذكرنا بالمثل الوارد في متى ٢١:٣٧-٣٩ « فأخيراً أرسل إليهم ابنه قائلاً يهابون ابني. وأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث. هلموا نقتله ونأخذ ميراثه فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه » فالآب أرسل ابنه إلى العالم! على فكر أنهم يهابون ابنه ولكن واأسفاه على قلب الإنسان الذي لم يكرم ذلك الابن المحبوب من الآب. فقد أخرجه خارجاً. وهوذا الأرض والسماء تشهدان بذلك فالإنسان قد صَلَب المسيح ولكن الله أقامه من الأموات. الإنسان جعله بين لصين معلقاً على الصليب أما الله فقد رفعه وأجلسه عن يمينه في السماوات. الإنسان وضع يسوع في أدنى موضع على الأرض ولكن الله وضعه في أعلى مركز في السماء مكللاً بالمجد والكرامة.

هذا كله واضح في قصة يوسف « يوسف غُصن شجرة مثمرة، غصن شجرة مثمرة على عين. أغصان قد ارتفعت فوق حائط فمرّرته ورمته واضطهدته أرباب السهام ولكن ثبتت بمتانة قوسه وتشددت سواعد يديه. من يدي عزيز يعقوب، من هناك من الراعي صخر إسرائيل، من إله أبيك الذي يعينك ومن القادر على كل شيء الذي يباركك تأتي بركات السماء من فوق وبركات الغمر الرابض تحت. بركات الثديين والرحم. بركات أبيك فاقت على بركات أبويَّ... إلى منية الآكام الدهرية تكون على رأس يوسف وعلى قمة نذير إخوته » (٤٩:٢٢-٢٦).

هذه الآيات الجميلة تظهر لنا بأجلى وضوح « الآلام التي للمسيح والأمجاد التي بعدها » (١بط١:١١) فأرباب السهام عملوا ما في طاقتهم ولكن الله كان أقوى منهم. ويوسف الحقيقي ضرب وجرح في بيت أحبائه ولكن « تشددت سواعد يديه » بقوة القيامة والمؤمن يعلم الآن أن المسيح هو أساس مقاصد بركات الله وأمجاده من جهة الكنيسة وإسرائيل والعالم أجمع. ونحن إذا نظرنا إلى يوسف وهو في الجب ثم في السجن ثم نظرنا إليه بعد ذلك وهو حاكم على جميع أرض مصر نرى الفرق بين أفكار الله وأفكار البشر. وهكذا إذا نظرنا إلى الصليب ثم إلى «يمين العظمة في الأعالي » (عب١:٣) فإننا نجد نفس الشيء بصورة أكمل.

على أن قلب الإنسان لم يظهر تماماً بحقيقته أمام الله إلا بمجيء المسيح «لو لم أكن قد جئت وكلمتهم لم تكن لهم خطية» (يو١٥:٢٢) ليس المعنى أنهم لم يكونوا خطاة. كلا بل «لم تكن لهم خطية» أي خطية رفضه لذلك قيل في موضوع آخر «لو كنتم عمياناً لما كانت لكم خطية» (يو٩:٤١) فالله اقترب جداً من الإنسان في شخص ابنه ولكن الإنسان قال «هذا هو الوارث» وما العمل؟ «هلم نقتله» فكأنهم لم يستروا خطيتهم. ومن قال إنه يبصر فلا عذر له. والصعوبة ليست في الاعتراف بالعمى بل في الاعتراف بالبصر. وهذه مسألة خطيرة جديرة بالالتفات في عصر كعصرنا الحاضر الذي كثر فيه الاعتراف الشفوي. فالخطية لمن يعترف أنه يبصر، أما الأعمى فممكن أن تنفتح عيناه فيبصر ولكن ما العمل في إنسان يظن أنه يبصر وهو أعمى؟

الأصحاح الثامن والثلاثون

إن حوادث هذا الفصل تبين نصرة نعمة الله على خطية الإنسان «واضح أن ربنا قد طلع من سبط يهوذا» (عب ١٤:٧) وكيف كان ذلك؟ «يهوذا ولد فارص وزارح من ثامار» (مت ٣:١) شيء غريب! إن الله من نعمته الفائقة يتسامى فوق خطية وجهالة الإنسان لكي ينفذ مقاصد محبته ورحمته إليه. لذلك نقرأ في نفس هذا الفصل (مت ١) أن «داود الملك ولد سليمان من التي لأوريا» حقاً إنه يليق بالله وحده أن يتصرف هكذا. فإن الروح القدس في هذه السلسلة يعطينا نسب المسيح حسب الجسد. ومن ضمن حلقات هذه السلسلة يذكر أمثال ثامار وبثشبع. هذا برهان لا يقبل الشك على أن الإنسان ليس له شأن بالمرة في إملاء هذا التاريخ. ومتى وصلنا إلى نهاية الأصحاح الأول من إنجيل متى لا يبقى مجال للريب أن هذا هو «الله ظهر في الجسد» وكاتب تاريخه هو الروح القدس لأن الإنسان ليس له قدرة البتة أن يخترع سلسلة نسب على هذا النمط، والإنسان الروحي لا يسعه أن يطالع هذا الفصل إلا ويرى فيه إعلان نعمة الله أولاً، ويتأكد أن إنجيل متى موحى به من الله ثانياً، وهذا أقل ما يقال ولا سيما من جهة رواية نسب المسيح حسب الجسد. وإني متيقن أن القارئ المسيحي الفطن يستفيد فوائد عظمى ويقتبس ما هو للبنيان والتأمل إذا قارن بين الأصحاح الثامن والثلاثين من سفر التكوين والأصحاح الحادي عشر من سفر صموئيل الثاني وبين الأصحاح الأول من إنجيل متى.

الأصحاحات ٣٩-٤٥

إذا طالعنا هذه الفصول الهامة فإننا نشاهد في ثناياها سلسلة حوادث تدل على عناية الله المتجهة نحو غرض واحد وهو تمجيد يوسف ورفعه من وهدة الجب. وفي الوقت نفسه نجد الله معلناً لنا أشياء أخرى ثانوية وذلك لكي «تعلن أفكار من قلوب كثيرة» (لو٢:٣٥) ويتعظم يوسف من ورائها. فقد «دعا بالجوع على الأرض. كسر قوام الخبز كله. أرسل أمامهم رجلاً. بيع يوسف عبداً. آذوا بالقيد رجليه. في الحديد دخلت نفسه إلى وقت مجيء كلمته. قول الرب امتحنه. أرسل الملك فحله. أرسل سلطان الشعب فأطلقه. أقامه سيداً على بيته ومتسلطاً على كل ملكه ليأسر رؤساءه حسب إرادته ويعلّم مشايخه حكمة» (مز١٠٥:١٦-٢٢).

ويحسن بنا أن نفهم أن أهم نقطة ظاهرة هنا هي رفع شأن الإنسان الذي احتقره البشر. ثم التأثير على أذهان أولئك القوم لكي يشعروا بذنبهم في احتقار ذلك الإنسان ورفضه. وهذا ما يجب أن نتحققه، إن الله يحول كل الظروف والحوادث مهما كانت حقيرة أو عظيمة لتنفيذ مقاصده. ففي الأصحاح التاسع والثلاثين نجد امرأة فوطيفار آلة في يد الشيطان. وفي آخر الأصحاح الأربعين يستخدم الشيطان رئيس سقاة فرعون لهذه الغاية. ففي المرة الأولى نجح في إدخال يوسف إلى السجن وفي المرة الثانية استخدم نكران رئيس السقاة للجميل سبباً لبقاء يوسف في السجن، ولكن الله حول كل هذه الأمور إلى خير يوسف، لأنه كان عاملاً من وراء الستار. فيد الله هي التي كانت تدير دفة كل تلك الحوادث ولما جاء الوقت المعين وجد الإنسان الذي بواسطته ينفذ مقاصده. وهذه هي طريقة عمل الله دائماً فهو فوق الظروف وفي استطاعته أن يستخدم كل الأمور لإتمام مشوراته المحتومة ومقاصده من نحونا في كل شيء، بل ما ألذ معرفتنا أن كل العوامل هي تحت سلطة الله المطلقة فالملائكة والبشر والأبالسة - جميعهم في قبضة يده يديرهم كيفما شاء لإتمام مقاصده الإلهية.

وفي الفصول المطروحة أمامنا على بساط التأمل نرى هذه القضايا واضحة جداً فإن الله كان يرى ما يجري في بيت رئيس شرط وثني، كما أنه يُرِى ملكاً وثنياً حلماً وهو على فراش نومه، ويستخدمها كلها لإتمام مشوراته. على أن الله لا يكتفي بالأفراد والظروف الخصوصية ويستخدمها دون غيرها في تنفيذ أغراضه، بل مصر نفسها بجملتها وجميع الممالك المتاخمة لها يضمها الله إلى دائرة تدابيره. وبالاختصار فإن الأرض وما عليها مسرح يمثل فيه الله أدوار جلال عظمة ومجد ذاك الذي أبغضه إخوته. هذا هو عمل الله. والقديسون يتلذذون جداً من تتبع سلسلة معاملات أبيهم السماوي معهم ففيها تدريب لنفوسهم وطعام شهي. وما أوضح عناية الله التي رافقت تاريخ يوسف المفعم بالفوائد. الق مثلاً نظرة إلى السجن حيث كان يوسف مكبلاً بالحديد متهماً بأشنع ذنب ينسب إلى إنسان مثله، مخذولاً ومرفوضاً من الناس. ثم حول نظرك في أقل من لمح البصر تراه متربعاً على العرش شاغلاً أسمى مقام في مصر، وقل لي من يسعه أن ينكر يد الله في هذا كله؟

«ثم قال فرعون ليوسف: بعدما أعلمك الله كل هذا ليس بصير وحكيم مثلك أنت تكون على بيتي وعلى فمك يُقبّل جميع شعبي. إلا إن الكرسي أكون فيه أعظم منك، ثم قال فرعون ليوسف انظر، قد جعلتك على كل أرض مصر. وخلع فرعون خاتمه من يده وجعله في يد يوسف وألبسه ثياب بوص ووضع طوق ذهب في عنقه، وأركبه في مركبته الثانية ونادوا أمامه اركعوا. وجعله على كل أرض مصر. وقال فرعون ليوسف: أنا فرعون، فبدونك لا يرفع إنسان يده ولا رجله في كل أرض مصر» (٤١:٣٩-٤٤).

وهنا كرامة ليس بعدها كرامة. وإذا تأملنا في حاله لما كان في السجن وحين ألقي في الجب وقارنا بين ذلك وبين حاله الآن، والخطوات التي سار فيها والحوادث التي مر فيها حتى وصل إلى هذه الدرجة ففي الحال نشاهد يد الله وعنايته من الجهة الواحدة ومن الجهة الأخرى نجد مثالاً بديعاً ورمزاً مستوفياً لآلام ربنا يسوع المسيح والأمجاد التي بعدها. فيوسف من السجن ومن وهدة الجب التي ساقه إليها حسد إخوته وحكم الأممي الجائر ليكون متسلطاً على جميع أرض مصر، وليس ذلك فقط بل لكي يكون سبب بركة ومصدر حياة لإسرائيل والأرض كلها. وهذا كله رمز، ويصعب أن نجد مثالاً أجمل أو صورة أكمل. فهوذا إنسان من حيث النية والقصد قد وضع إلى الموت بأيدي البشر ولكن الله رفّعه وأجلسه على كرسي الجلال والمجد «أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال، يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم أيضاً تعلمون. هذا أخذتموه مسلماً بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق وبأيدي أثمة صلبتموه وقتلتموه. الذي أقامه الله ناقضاً أوجاع الموت إذ لم يكن ممكناً أن يُمسك منه» (أع٢:٢٢-٢٤).

على أنه توجد ملاحظتان في تاريخ يوسف إذا طبقناهما على ما أشرنا إليه فيما مضى من قصته نجد الرمز أكمل مما رأينا إلى الآن. أول ملاحظة فيما يخص زواجه بأجنبية كما ورد في الأصحاح الحادي والأربعين، والملاحظة الثانية تتعلق بما دار بينه وبين إخوته من الحديث المذكور في الأصحاح الخامس والأربعين فقد لخص يوسف حوادث حياته بالصورة الآتية : قال إنه في بادئ الأمر أتاهم مرسلاً من قبل الآب ولكنهم رفضوه وبحسب فكرهم وعلى قدر ما وسنعت أيديهم أسلموه إلى الموت ولكن الله رفعه إلى أسمى مقام. وفي أثناء ذلك أخذ له زوجة من مصر وبعد ذلك رجع إخوته إلى نفوسهم فتواضعوا وانسحقوا أمامه، حينئذ تعرّف بهم وهدّأ روعهم وطيب خواطرهم وجبّر كسر قلوبهم وباركهم وصار ينبوع بركات ليس لهم وحدهم بل للعالم أجمع.

وغايتي الآن أن أقدم بعض الملاحظات عن زواج يوسف هذا وردّ نفوس إخوته. أما تلك الزوجة الأجنبية فتشير إلى الكنيسة فإن المسيح لما جاء إلى خاصته وخاصته لم تقبله صعد إلى العلا وأرسل الروح القدس ليأخذ له كنيسة من اليهود والأمم معاً لتكون متحدة وإياه في مجده السماوي. وبما أننا توسعنا في الشرح عن الكنيسة عند الكلام على الأصحاح الرابع والعشرين فبقى علينا الآن ملاحظة نقطة أو اثنتين فقط. وأول نقطة نلاحظها هنا هي أن زوجة يوسف المصرية اقترنت به في مجده* وبما أنها أصبحت شريكته فقد صار لها كل ما له بحيث أن علاقتها وصلتها به لا يدركها سواها، وهذا هو شأن الكنيسة مع المسيح وحال العروس امرأة الخروف. فهي قد اقترنت بالمسيح لكي تكون شريكته في آلامه وفي أمجاده معاً، فكما المسيح هكذا الكنيسة في مركزها، ومركزها هذا يحدد سلوكها. ونحن نقترن بالمسيح كالممجد في السماء، لا كمن كان ذليلاً على الأرض، «إذن نحن من الآن لا نعرف أحداً حسب الجسد، وإن كنا قد عرفنا المسيح حسب الجسد لكن الآن لا نعرفه بعد» (٢كو٥:١٦) فمركز اتحاد الكنيسة بالمسيح هو المجد «وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليّ الجميع» (يو١٢:٣٢).

وفي إدراك هذه الحقيقة فائدة عملية من حيث مبدأ سيرنا أكثر مما نظن لأول وهلة. وغرض الشيطان دائماً، كما وميل قلوبنا أيضاً، ألا نصل إلى إدراك حقيقة نسبتنا إلى المسيح، ولا سيما من جهة اتحادنا به وهو في المجد. وقد شاع الفكر ودرج على أن «دم الخروف هو وحدة القديسين» أو أن الدم هو مركز وحدتنا. نعم إن دم المسيح الثمين هو أساس اقترابنا إلى الله كأفراد للسجود ولكن متى تكلمنا عن وحدتنا ككنيسة فيجب أن نفهم أن الروح القدس هو الذي يجمعنا ويربطنا معاً بشخص المسيح المُقام والمُمجّد، وهذا ما يعطي لدعوتنا المقدسة وشركتنا معاً كمسيحيين قيمتها السامية، وإذا افتكرنا خلاف

* كما أن زوجة يوسف تشير إلى اقتران الكنيسة بالمسيح في مجده هكذا زوجة موسى تشير إلى وحدة الكنيسة مع المسيح في رفضه.

ذلك فلابد وأن نصبح طائفة من الطوائف وإذا كان اجتماعنا حول طقوس أو فرائض مهما كانت أهميتها أو حول حقيقة مهما كانت ظاهرة، فكأننا جعلنا مركزنا غير شخص المسيح.

ومن هنا تتضح لنا أهمية النتائج العملية التي ستنتج عن الحق الخاص باجتماعنا باسم رأسنا المُقام والمُمجّد في السماء. ولو كان المسيح باقياً على الأرض لكنا نجتمع حوله هنا؛ ولكن بما أنه مستتر في السماء فمقام الكنيسة السماوي مستمد من وجوده هناك لذلك يقول المسيح «ليسوا من العالم كما أني أنا لست من العالم» وأيضاً «لأجلهم أقدّس أنا ذاتي ليكونوا هم أيضاً مقدسين في الحق» (يو١٧:١٦، ١٩) وفي ١بطرس ٢:٤، ٥ نقرأ «الذي إذ تأتون إليه حجراً حياً مرفوضاً من الناس ولكن مختار من الله كريم. كونوا أنتم أيضاً مبنيين كحجارة حية بيتاً روحياً كهنوتاً مقدساً لتقديم ذبائح روحية مقبولة عند الله بيسوع المسيح» وإذا كنا نجتمع حول المسيح فنحن معه ومثله، وكلما قاد الروح القدس نفوسنا لإدراك هذه الحقيقة أكثر كلما فهمنا وصف السلوك الذي يحق لهذا المقام. لأن يوسف لم يجتمع بزوجته في السجن ولا في الجب بل في مجد وبهاء مقامه الرفيع الذي أخذه في مصر، والفرق بين المركزين عظيم جداً.

ثم إننا نقرأ بعد ذلك أنه «ولد ليوسف ابنان قبل أن تأتي سنة الجوع» فكأنهما تمتعا بنتيجة اقترانهما قبل أن تأتي أزمنة الضيق. فولد لهما ابنان قبل ساعة التجربة العتيدة. وهذا ما سيحدث مع الكنيسة أيضاً، إذ يُدعَى جميع الأعضاء ويَكمُل الجسد وينضم إلى الرأس في السماء قبل تلك «الضيقة العظيمة» المزمعة أن تأتي على الأرض.

بقى علينا أن نتأمل قليلاً في حديث يوسف مع إخوته، وفيه نرى بعض نقط متشابهة مع تاريخ أمة إسرائيل في الأزمنة الأخيرة، وأول شيء نلاحظه أن إخوة يوسف نُخست ضمائرهم وتنبهت أفكارهم واجتازوا في اختبارات صعبة مدة اختفاء أخيهم عنهم. ومن ضمن تلك الاختبارات ما ورد، مثلاً، عنهم أنهم

«قالوا بعضهم لبعض: حقاً إننا مذنبون إلى أخينا الذي رأينا ضيقة نفسه لما استرحمنا ولم نسمع لذلك جاءت علينا هذه الضيقة. فأجابهم رأوبين قائلاً: أ لم أكلمكم قائلاً لا تأثموا بالولد وأنتم لم تسمعوا؟ فهوذا دمه يُطلب» (٤٢:٢١، ٢٢).

وأيضاً نقرأ

«فقال يهوذا ماذا نقول لسيدي. ماذا نتكلم وبماذا نتبرر. الله قد وجد إثم عبيدك. ها نحن عبيد لسيدي نحن والذي وجد الطاس في يده جميعاً» (٤٤:١٦).

حقاً إن الله وحده يعرف كيف يربي الإنسان، ويقدر أن ينبه الضمير فيشعر بخطيته ويذل النفس فتعرف حقيقة أمرها أمام الله هذا كله عمله وحده. فالإنسان قد يركض في ميدان شهواته لا يلوى على شيء حتى ينخس الله ضميره بسهام قدرته فيفيق وهو في أحضان المحبة. إن إخوة يوسف لم يخطر لهم على بال قط أن معاملتهم القاسية لأخيهم ستكون سبب كل هذه البركات. فقد أخذوه «وطرحوه في البئر»، وويل لهم «الشاربون من كؤوس الخمر والذين يدهنون بأفضل الأدهان ولا يغتمون على انسحاق يوسف» (عا ٦:٦).

ولكننا نرى الله مؤثراً على قلوبهم ومنبهاً ضمائرهم بطريقة عجيبة. فقد مرت الأعوام وربما تصوروا أنهم أحسنوا صنعاً ولكن سبع سني الشبع وسبع سني الجوع علّمتهم. وماذا علّمتهم؟ بل من هو الذي أرسل الجوع؟ وما هو غرضه منه؟ حقاً ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء. وما أعجب عنايته. وأعمق حكمته. فقد وصل الجوع إلى أرض كنعان فاضطر إخوة يوسف المذنبون أن يواجهوا أخاهم الذي أذنبوا إليه. حقاً إن يد الله ظاهرة في كل هذا. فهوذا المجرمون أمام يوسف الذي «بأيدي آثمة» ألقوه في البئر وقد افتضح أمرهم وانكشف إثمهم في مواجهة يوسف نفسه، ويا له من مكان مبارك!

«فلم يستطع يوسف أن يضبط نفسه لدى جميع الواقفين عنده. فصرخ أخرجوا كل إنسان عني. فلم يقف أحد عنده حين عرّف يوسف إخوته بنفسه» (١:٤٥).

لم يكن مسموحاً لأجنبي أن يحضر هذا المشهد إذ مَن من الغرباء كان يستطيع أن يفهم أو يُقدّر حاسيات يوسف حق قدرها. ثم إن لنا في هذا المشهد مثال التبكيت الإلهي الذي يشعر به الخاطئ تجاه نعمة الله. ويمكن لنا القول إنه متى تلاقى هذان الأمران انحلّت كل مسألة.

«فقال يوسف لإخوته تقدّموا إليّ. فتقدموا. فقال أنا يوسف أخوكم الذي بعتموه إلى مصر. والآن لا تتأسفوا ولا تغتاظوا لأنكم بعتموني إلى هنا، لأنه لاستبقاء حياة أرسلني الله قدامكم... فقد أرسلني الله قدامكم ليجعل لكم بقية في الأرض، وليستبقي لكم نجاة عظيمة. فالآن ليس أنتم أرسلتموني إلى هنا بل الله» (٤:٤٥-٨).

حقاً إن هذه هي النعمة التي تهدّئ روع الضمير وتسكّن خوف القلب. فإخوة يوسف كانوا قد حكموا على أنفسهم لذلك أخذ يوسف في تطييب خواطرهم وتضميد جراحاتهم وجبر قلوبهم المكسورة. وفي كل هذا رمز لمعاملات الله مع إسرائيل في الأيام الأخيرة حين «ينظرون إليّ الذي طعنوه وينوحون عليه» (زك١٢:١٠) حينئذ يدركون ملء نعمة الله وقوة ذلك الينبوع المطهر (زك١٣:١).

وفي الأصحاح الثالث من سفر الأعمال نجد روح الله في بطرس منشئاً في ضمائر اليهود هذا التبكيت إذ يقول لهم «إن إله إبراهيم واسحاق ويعقوب إله آبائنا مجّد فتاه يسوع الذي أسلمتموه أنتم وأنكرتموه أمام وجه بيلاطس وهو حاكم بإطلاقه. ولكن أنتم أنكرتم القدوس البار وطلبتم أن يوهب لكم رجل قاتل. ورئيس الحياة قتلتموه الذي أقامه الله من الأموات ونحن شهود لذلك» (أع٣:١٣-١٥) وقد قصد الروح القدس بهذه الأقوال أن يأخذ من أفواه السامعين ذلك الإقرار الذي اعترف به إخوة يوسف من قبلهم حين قالوا «حقاً إننا مذنبون» وفي الوقت نفسه يعرض عليهم النعمة المتضمنة في قوله «والآن أيها الإخوة أنا أعلم أنكم بجهالة عملتم كما رؤساؤكم أيضاً، وأما الله فما سبق وأنبأ به بأفواه جميع أنبيائه أن يتألم المسيح قد تممه هكذا. فتوبوا وارجعوا لتمحى خطاياكم لكي تأتي أوقات الفرج من وجه الرب» (أع٣:١٧-١٩) فمع أن اليهود في عداوتهم وقساوة قلوبهم قتلوا المسيح كما فعل إخوة يوسف مع أخيهم ولكن نعمة الله لليهود كما لإخوة يوسف تظهر في أن هذا قد سبق فتعين في مشورة الله المحتومة لخيرهم، وهذه نعمة كاملة تفوق تصورات الفكر البشري، وكل ما هو مطلوب هو الضمير المقتنع بحق الله في الداخل. فالذين يستطيعون أن يقولوا «حقاً إننا مذنبون» يمكنهم أن يفهموا حقيقة النعمة المتضمنة في قول يوسف «ليس أنتم بل الله» وهذا هو الحال دائماً، فالنفس التي تستذنب ذاتها هي التي تفهم معنى الغفران الإلهي وتقدره حق قدره.

الأصحاحات ٤٦-٥٠

نقرأ في بقية أصحاحات هذا السفر عن ارتحال يعقوب وأهل بيته وسكناهم في مصر وعما فعل يوسف بقية سني الجوع، ومباركة يعقوب لبنيه الاثنى عشر وأخيراً موته ودفنه.

إن خاتمة تاريخ يعقوب تغاير كلية ما مر به من الأدوار الأولى. إنها مثل ليلة هادئة عقب نهار عاصف، أو مثل يوم كانت شمسه محتجبة عن الأصار وراء السحاب والضباب ولكن متى انقشع الغيم عند المساء وظهر الجو رائقاً دل على انتظار غد مشمس مكلل بالمجد والبهاء. وهذا الوصف أشبه بحال أبينا يعقوب. فدهاؤه وخبثه ومكره واحتياله وتدبيره وخوفه وقلقه الناشيء عن عدم الإيمان هذه السحب جميعها قد تبددت الآن وظهر من ورائها قوة إيمان هادئ نراه يمنح بركات كثيرة ويبشر بخيرات قادمة بعقل، مما يدل على وجود شركة قوية مع الله.

ومع أن عينيه الطبيعيتين قد كلتا عن النظر كان بصره الروحي حاداً. لذلك لم ينخدع من جهة تعيين مركزي أفرايم ومنسى اللذين وضعهما الله فيهما حسب مقاصده. وهو «لا يرتعد ارتعاداً عظيماً جداً» كما حدث مع اسحاق أبيه في آخر حياته (راجع تكوين ٢٧). بل بالعكس نراه يجاوب على معارضة يوسف له بقوله «علمت يا ابني علمت»، لأن ضعف بصره الجسدي لم يضعف نظر الإيمان إذ تعلم بالاختبار أهمية الخضوع لأفكار الله وعدم الاستناد على الظواهر الطبيعية أو التأثر بها.

وفي أصحاح ٤٨:١ لنا مثال جميل لمعاملات الله معنا معاملة تفوق أفكارنا وتتغلب على مخاوفنا

«وقال إسرائيل ليوسف: لم أكن أظن أني أرى وجهك، وهوذا الله قد أراني نسلك أيضاً» (١:٤٨).

ففي نظر الطبيعة يوسف كان ميتاً، ولكن في نظر الله يوسف كان حياً وشاغلاً لأعظم مركز في مصر بعد فرعون «ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال إنسان ما أعده الله للذين

يحبونه» (١كو٢:٩) يا ليت نفوسنا تزداد أكثر في إدراك طرق الله ومعاملاته معنا.

ومما يلذ لنا ملاحظته، الطريقة التي بها يرد الاسمان «اسرائيل» و«يعقوب» في الفصول الأخيرة من سفر التكوين فقد قيل مثلاً

«فأُخبر يعقوب وقيل له هوذا ابنك يوسف قادم إليك فتشدد إسرائيل وجلس على السرير» (٢:٤٨).

ثم نقرأ في العدد الثالث

«وقال يعقوب ليوسف الله القادر على كل شيء ظهر لي في لوز أرض كنعان» (٣:٤٨).

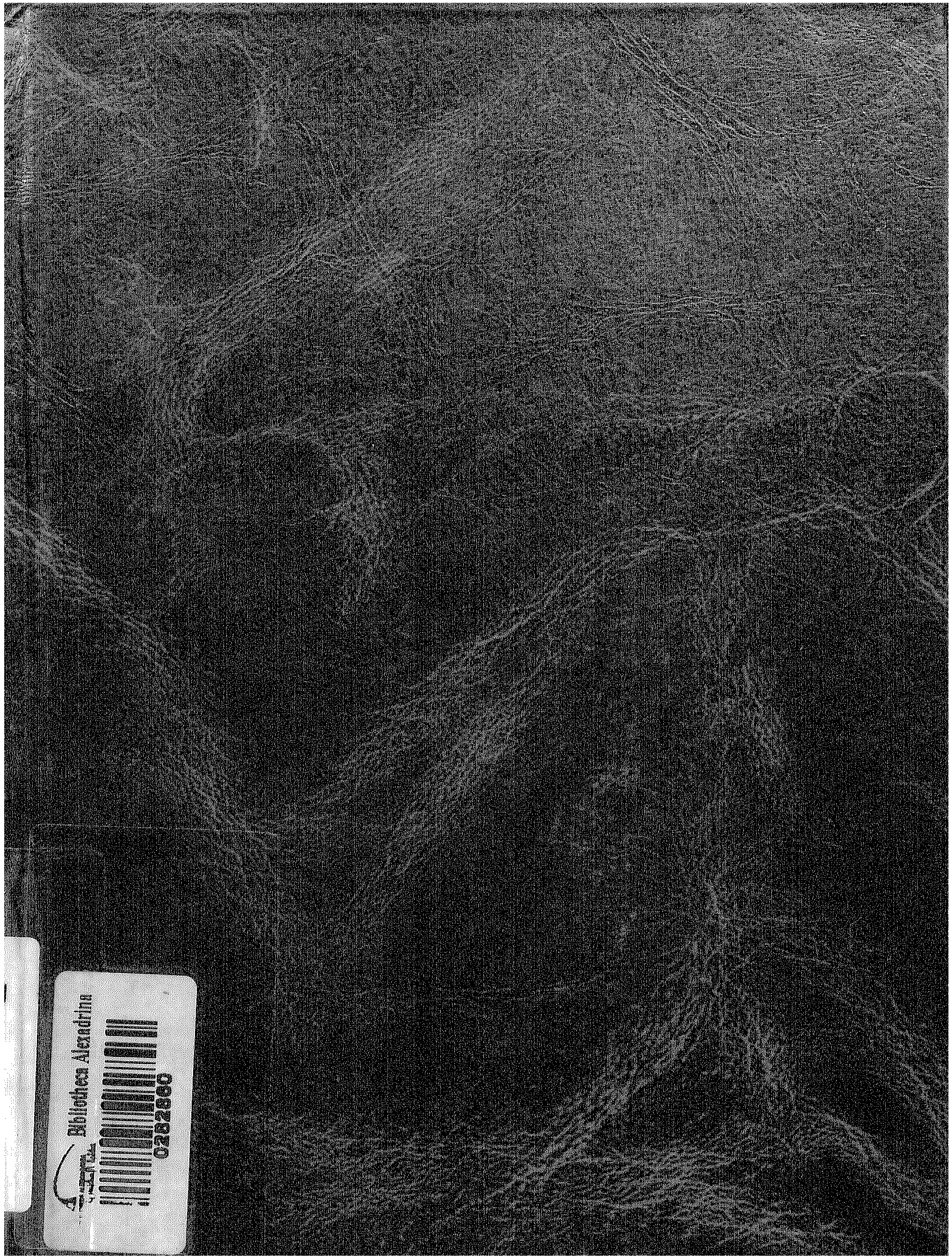
ونحن نعلم أنه لا يوجد في كلمة الله شيء بدون معنى ونستنتج أن اختلاف التعبير فيه تعليم خصوصي لنا. وبالاجمال نقول أن اسم «يعقوب» يشير إلى مقدار تنازل الله واسم «اسرائيل» يشير إلى درجة السمو التي رفع إليها يعقوب.

ولكننا لا نقصد التوسع في شرح هذه النقط ولو أن الذهن الروحي يجد في مطالعتها طعاماً لنفسه، من ذلك زوال خوف يعقوب السابق بمجرد رؤيته ابنه حياً يرتع في بحبوحة المجد. وفي هذا تظهر نعمة الله في سلطانها المهيمن على كل شيء وإن كان يعتريه إجراء القضاء وذلك واضح من نزول بني إسرائيل إلى أرض مصر حيث باعوا أخاهم من قبل. وفي هذه الفصول تتجلى أمامنا نعمة يوسف للملك. فبينما نسمع فرعون يقول «اذهبوا إلى يوسف» (٥٥:٤١) نقرأ بالمثل أن يوسف يقول للشعب «إني قد اشتريتكم اليوم وأرضكم لفرعون» (٢٣:٤٧) وتأملنا في هذه الأمور يلذ لنا ويقودنا إلى ذلك الوقت المجيد الذي فيه يأخذ ابن الإنسان الرياسة ويمسك زمام الملكوت بيده وبحسب تعيين الله يتسلط على الخليقة المفدية وتكون الكنيسة التي هي عروس الخروف آخذة مركزها القريب جداً من عريسها والمُرتّب لها من الله في مقاصده الأزلية في ذلك اليوم يرجع بيت إسرائيل إلى الله فتمتلئ الأرض بالبركات التي هي نتيجة الخضوع لسلطانه. ومتى أخضع له الكل حينئذ يسلّم مقاليد السياسة وزمام السيادة في يد الله ليكون هو «الكل في الكل».

لكن هذه التأملات تدل على جمال وكمال تاريخ يوسف. ففي قصة يوسف نجد أمامنا بالاختصار وبكل وضوح من باب الرمز إرسالية الابن لبيت إسرائيل ومجيئه إليهم في حالة التواضع ورفضهم له ثم توبتهم ورجوعهم ونجد أيضاً رمز اقتران المسيح بالكنيسة التي هي عروسه إلى أن يأتي زمان مجده وملكه وآخر الكل تسليم ذلك الملكوت إلى الله ليكون هو «الكل في الكل».

وليلاحظ القارئ أن هذه الحقائق وارد ذكرها تكراراً على صفحات الوحي وعُلّم بها، حقائق

تؤيدها كلمة الله في جميع أسفار الكتاب المقدس فنحن لا نبني الحق على تاريخ يوسف وحده ولكن الإشارة إلى هذه المواضيع في بداية تاريخ العالم مما يؤيد وحدة الكتاب المقدس ويبني نفوسنا فسواء رجعنا إلى سفر التكوين أو إلى رسالة أفسس، وسواء درسنا أنبياء العهد القديم أو رسل العهد الجديد فالحقائق التي نتعلمها كلها واحدة لأن: «كل الكتاب موحى به من الله».



Bibliotheca Alexandrina
0282860